الاقتداء بالمسيح

« لقد أبقى لكُمُ المسيحُ قدوةً لتقتفوا آثاره »

(1 بطرس 2: 21)

الاقتداء بالمسيح

نقله عن اللاتينية

الأب بطرس المعلم البولسي

طبعة جديدة

1999

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

جونيه شارع القدّيس بولس – ص ب 125

هاتف 911561- 09/933052- فاكس: 09/918447

بيروت – شارع لبنان – هاتف 01/448806

زحله – الحمراء بلازا – هاتف 08/812807

تصدير

بقلم صاحب السيادة

المطران بطرس كامل مدور

لقد كثر في عصرنا إقبال الاكليريكيين والمؤمنين أنفسهم على العمل الرسولي، لبنيان جسد المسيح السرّي أي كنيسة الله. واندفع كثيرون منهم في هذا التيّار بإفراطٍ بات يخشى معه على حياتهم الروحية الداخلية وعلى فاعلية رسالتهم عينها. ولا تزال الكنيسة نفسها ومعلمو الحياة الروحية يحذرّون من خطر سموه «هرطقة العمل»، ويدعون كل من يزاول العمل الرسولي الى صيانة حياته الداخلية أولا، باتخاذ الوسائل التقليدية في الكنيسة لممارسة «حياة مستترة مع المسيح في الله». وليس لهذا الغرض وسيلة افعل في النفس من مطالعة الكتب الروحية التي تدعو الى الحياة الداخلية، واشهرها كتاب «الاقتداء بالمسيح» الذي لا يحتاج الى تعريف.

فذلك ما حدا احد المرسلين البولسيين الى إخراج ترجمة جديدة لهذا الكتاب النفيس في قالب أنيق أقرب ما يكون الى النص اللاتيني الاصلي وأنفذ ما يبلغ الى صميم النفس التقية العابدة. واذا هو كتيب جميل الطبع لطيف الحجم يدخل في كل جيب، ويطالع في كل آن، ويتغلغل في كل نفس، لانه جعل بظرفه واسلوبه وضآلة ثمنه في متناول الجميع.

فليجزل الله أجر ناشريه، وينلهم غاية مبتغاهم، لمجده تعالى وتقديس النفوس العاملة وفائدة المؤمنين وبنيان كنيسة الله. ذلك أحر دعائي واسمى مبتغاي.

*** بطرس كامل مدور**
رئيس أساقفة بيلوسيوس
معاون البطريرك

مقـدّمة
بقلم الأستاذ بولس سلامه

حسبُ هذا الكتاب من الشرف ونباهة الصيت أنّ المسيح في عنوانه، فكيف به وهو دعوة للاقتداء بيسوع، اي اقتفاء الأثر الأرفع الذي حلمت بصاحبه الدنيا، واشرأبّت الى طلعته العصور، فشرّفها بميلاده في مغارة، وودّعها – في الظاهر – كما سيعود اليها على جناح سحابة! وبين المهد والصعود دارت الأرض حول الشمس ثلاثاً وثلاثين مرة، وكانت هذه الحقبة أجمل برهة في عمر الأرض، لو صحّ إدخالها في حساب الزمن، وأحرِ بها أن تدخل في نظام الابدية: ذلك أن ثوانيها حافلة بالخلود، وأنّ مالئها هو الجامع بين الازل والابد، وهو الذي أنار ما بعده، وألقى الضياءَ على ما سلف، فبعث التاريخ من جديد كما تخلق الشمس الألوان للعين عندما تنسخ الظلال، فتنكشف الافاق عن دنياوات لم تكن في البال، لا بالفعل ولا بالقوة.

ولقد طالما انشعبت آراء الباحثين في هوية مؤلف هذا الكتاب؛ وما يضير الالماسة النفيسة أن تلقيها في صندوق الحسنات يمين لم تشعر يُسراها بما فعلت ؟ وعندي ان هذا الاغفال المقصود هو أول البراهين على اقتداء المؤلف بالمسيح، فالمقتدى به ولد في مذود، والكاتب المقتدي طلب العزلة والتخفي في دير قصيّ منفرد. فكان هذا الكتاب، «الذي لم تسطر اجمل منه يدٌ بشرية»، ثمره التواضع والحياة الباطنية، إذ استنار واضعه بنور المسيح فأوحى اليه ما أوحى.

ومن دواعي العجب علم المؤلف بالنفس البشرية، وبما يعتريها من خور، ويضطرب فيها من لجج فيها الدّرّ والصدف، والحيتان والمرجان، والعافية والسرطان. ولا ترى صاحبنا يقف عند عرض الداء فيروعك بما يصف من هوله، ويشيع الوهن في أعصابك واليأس في قلبك، بل يدعوك الى الرجاء لا الى قنوط شوبنهور، والى التسلح بقوة من غير طراز قوة نيتشه، بعد أن يفتح بصرك على الاغوار الصاخبة، على غير طريقة سيغموند فرويد وأضرابه.

يريك الهاوية لتنصرف عنها الى القمة بوثبة كوثبة الطائر الذي يساعده التواء الغصن على الوثبة، لتبسط جناحيك لا في الزوبعة التي ترد القوادم على الخوافي، بل في الاثير السماوي، في جو المسيح. يغطّ المؤلف ريشته مرة بالايمان ومرة بالمحبة، فيصرف الاسماع عن ضوضاء الأرض، والابصار عن اباطيلها، عادلا عن طريقة سليمان الى طريقة القائل: «تعالوا اليّ يا جميع المتعبين».

هذا الكتاب دعوة الى السلام في ظل الصليب، لا الى اللذات العابرة يحسها الغواة كما يجد الاجرب لذة في حك البثور، ولا يزيده الحكّ إلا هياجاً على هياج وسوءا على سوء؛ ولا الى الخيرات الزمنية التي انتظرها اليهود من يسوع، فكان يومه المحجل عندهم يوم أشبعهم سمكاً وخبزاً؛ بل الى الخيرات الروحية التي تهزأ بالفناء، وتصل الأرض بالسماء. صاحبنا يدعو الى الاقتداء بيسوع العملي، الذي عاش وجوده فكانت حياته فعلاً موصولاً، فحقّ له القول: «أنا الطريق والحقّ والحياة».

ولطالما كان هذا الكتاب واحةَ منقذة للذين أضلهم الشيطان فتاهوا من قفر الى قفر وساخت أقدامهم في الرمضاء حتى الركب، لا يكادون ينقعون غلة حتى تسلمهم الشهوات الى اختها، فأتاح لهم هذا السفر ريّاً سماوياً وهداهم ينبوعاً زلالا، من يشربه لا يظمأ الى الابد لانه ماء الحياة، ينهل من كأس ربّ الحياة. بيد ان العطاش الذي ارتووا لم يقبلوا عليه متكبرين متوشحين غطرسة الفلاسفة: فتلك عنجهيةٌ تفضي الى شك دافيد هيوم وجفاف عمنوئيل كنط ، بل انهم تناولوه بتواضع العقل، الذي يفتح الباب للنسيم العلوي. فيدخل منعشاً ويرفع النفس الى الاجواء العلى؛ فمثل القلب الوديع مثل الارض المطمئنة يغمرها الماء فتخصب. أما الرعان المتشامخة فنصيبها الشمس المحرقة لا يلبث نبتها أن يجف ويستحيل هشيماً. وخير لمن سيج على قلبه بغرور العلم الناقص، وغشى بصيرته بالادعاء الفارغ، ألا يتناول هذا السفر الغالي، إذ يقع البرُّ الجيد على الصخر الجلمد: «يا بنيَّ، أعطني قلبك»، قال الحكيم.

التواضع في الاهداف الرئيسة التي يدعو اليها الاقتداء، وأحسبه رأس الفضائل. ومن المؤسف أن تتقلص الوداعة من الصدور في هذا العصر الشماخ؛ وقلما تجد لها ظلا في صدور النشء الطالع المدّعي المعرفة وليس له منها إلا الدعوى، فتراه هازئاً بالقيم، متهكماً بالدين، ساخراً بالعقائد، زاعماً انها صلحت لعصر المحراث ومركبة الخيل، وتخلفت عن موكب الحضارة في عصر المذياع والطائرة. وإنها لنظرة ضالة، نصيبها من الصحة نصيب زعم القائل: كان المثلث مؤلفاً من ثلاثة أضلاع في عهد إقليدوس، اما اليوم فلا.

ومن اركان الاقتداء وجوب التضحية والصبر على المكاره والتمرّس بالالم، والعالم أحوج ما يكون الى ذلك في عصر طغى فيه حب الذات، وأخذه الترف فأصيبت العزائم بسلٍ روحي نزع الرجولة من صدور الرجال، والانوثة من أفئدة النساء، فكأنهم وكأنهن آلاتٌ في جملة آلات المدنية الزائفة، التي كان لها القسط الأوفر في خنق الهمم، وقتل المروآت، وإشادة المعابد للمادة والتنكر للميتافيزيقية، وشيوع الالحاد حتى اعتبر ضرباً من ضروب الرُّقي، وغدت الروحانيات آخر ما يخطر في البال. ولا عجب، فإن الملاحدة لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وعبثاً أجهدوا أبصارهم فلم يجدوا الروح لا في المعمل ولا في المختبر ولا في قاعة السينما.

ومن أهم نقاط الاقتداء الدعوة الى الحياة الروحية الباطنية التي تسمو على الطقسيات سمو الباب على القشوط – وان كانت القشور تعين على حفظ اللباب فتقيه لفح الهجير، وتحوّطه بحرز لا بد منه – والى هذا الجوهر أشار المسيح بقوله: «انّ ملكوت الله في داخلكم». فالحياة الداخلية اتصال مباشر بالله، وهي الطريق التي سلكها اوغوسطين وبسكال وكيركغورد وتيريز دافيلا ويوحنا الصليبي وسواهم من كواكب التاريخ، وكان هنري برغسون منها قاب قوسين أو أدنى كما يظهر من كتابه (مصدرا الدين والاخلاق). ولقد لمح ذلك اليهودي النير الفؤاد أنّ العقل الكنطي، وحده، قاصر بدون الحدس أو الوثبة الكبرى التي عرفها الوجوديون الجديرون بهذا اللقب، وإن هي الا ارتماء الابن الشاطر في حضن أبيه تائباً متواضعاً مطرحاً كبرياءه وجهله في زرائب الخنازير، بعد أن تشهى مآكلها وظل جائعاً .

ولا ريب ان للمطالعات الروحية – بصرف النظر عن الكسب الاخلاقي – وقعاً في النفس يملك عليها مشاعرها، ويبعث فيها من الغبطة ما تقصر عن مثله روائع النوابغ، لأنّ روحاً علوياً يشيع فيها فتقرأ وراء السطور أكثر مما تقرأ في السطور نفسها. وأذكر اني طالعت كتاب (حياة نفس) للقديسة تريزيا الطفل يسوع منذ خمس عشرة سنة فأنساني كثيراً مما قرأت لقمم الادب في أوربا: ذلك أنّ المحبة تغمره من الدفة الى الدفة، وأنّ لغة القداسة ليست لغةً هجائية تتآلف حروفها فتولد معنى معروفاً في اصطلاح البشر: إن هي إلا نفحة سحرية تنزلُ على الافئدة من عالم غير هذا العالم.

والكتاب الذي بين يديك ايها القارئ تنزَّلَ من عالم آخر، فإذا أسعدك الحظُّ باطلاعه، فمن الفطنة أن تحافظ على طهره في ذاكرتك، فلا تعمد بعده الى الكتب الخليعة التي تكتظُّ بها المكتبات كما تحفل القمامات بالاقذار. ومن العجب أنّ حروف المطابع لا تذوب خجلاً إذ تصكُّ على الورق محالفة بين مؤلفيها والشيطان، لان أولئك المرتزقة يشدون بالناس الى تحت، وأية عبقرية ترى في دعوتهم الانسان الى الحيوانية، ذلك الانسان الذي احصى الله شعر رأسه، فلا تسقط واحدة منه إلا باذنه، الانسان الذي اقتداه بدمه الثمين يسوع مدار هذا الكتاب ؟

بقي أن أهنئ حضرة المترجم الجليل الذي أفرغ جهده في هذه الترجمة لتأتي أقرب ما يكون الى الأصل، فأمعن في البحث والتقصي، ذاهباً الى أبعد المصادر وأوثقها في اللغة اللاتينية، مقابلاً مقارناً بين شتى الترجمات في اللغات الحديثة، غير مدّخرٍ وسعاً في التمييز بين الاصداف واللآلئ. ولقد أسبغ على المعاني لغة من حرير خالٍ من الزخرف البين والصناعة المزركشة، على أنه الحرير الخالص لا خشونة فيه ولا تعقيد، فما أبعده عن ديباجة القدامى التي علاها الغبار وأخلقها التزمت، وهلهلة العصريين التي ذهبت بالرونق والوقار. إنها لغة الحياة المطواعة التي لا تتخلف عن ركب الحضارة حتى ليرضى عنها سعيد عقل نفسه. ومن محاسنها انها جمعت بين الطلاوة والانسجام إذ ألزم المترجم قلمه ما لا يلزم إلا الشاعر الذي يتعمد المؤسيقى، فلا تنافر في التركيب ولا اعتلال في الايقاع، أو الرسّام الذي يؤلف بين الالوان فتخرج باسمة زاهية لون الفجر الأشقر الذوائب، أو حمرة الشفق في عشايا الربيع الصاحية، لا كدّر ولا غيم بل صفاءٌ في صفاء.

ولم يقصر صاحبنا همه على إرضاء الاذن بالاوتار الحرفية والكلم الصوادح، بل تعدّى السمع الى متعة النظر، فعمل على إخراج الكتاب أفضل ما يكون الاخراج، إذ اتخذ للمحتوى النفيس، إطاراً جميلاً من حرف جيد الى ورق وضيء، فأرضى السمع والبصر والذوق جميعاً، ناظراً في كل ذلك الى مجد الله ونفع القارئ، إذ يسر للمطالع أسباب الراحة، فجعل الكتاب لطيف الحجم بحيث يحمل في الجيب – وإن كان محتواه يوازي الوزنات العشر- . ولا خوف على القارئ من اللحن والتصحيف فقد جعله المترجم في حرز حريز منهما بأن ضبط

الكلام بالشكل وعلامات الوقف. ولا خطر من اضاعة الوقت في التفتيش عن موضوع معين، فقد ألحق الكتاب بتقويم هجائي نفيس يسهل للباحث جميع مطالبه.

ويقيناً ان هذه الترجمة جاءت قمة الترجمات السالفة، فكانت حسنة مضافة الى حسنات حريصا التي يحسن في تقريظها الاجمال، حفاظاً على التواضع وهو إحدى الجواهر في فضائل هذا الكتاب.

بولس سلامه

***** *****

السفر الأول

نصائح مفيدة للحياة الروحية

« طوبى لمن يعلمه الحق بذاته... ليصمت جميع المعلمين
ولتسكت الخلائق كلها في حضرتك؛ وأنت وحدك كلمني.»
(1 اقتداء 1:3 و2)

الفصل الأول

في الاقتداء بالمسيح واحتقار اباطيل العالم كلها

1- «من يتبعني - يقول الربّ- فلا يمشي في الظلام[1]».
ذاك هو كلامُ المسيح، يخصنا به على التشبه بسيرته وأخلاقه، إن أردنا الاستنارة الحقة، والتحرّر من كل عمى في القلب.
فليكن إذن جُلُّ اهتمامنا، التأمل في حياة يسوع المسيح .

2- إن تعليم المسيح يفوق تعاليم القديسين كلها، ومن كان فيه روح المسيح، فإنه واجدٌ في تعليمه المنّ الخفي.
بيد ان كثيرين، في الواقع، قلما يتأثرون بسماعهم المتواتر للانجيل، إذ ليس فيهم روح المسيح.
فمن أراد أن يتفهم جيداً ويتذوق أقوال المسيح، فعليه أن يجتهد في التوفيق بين حياته كلها وحياة المسيح.

3- ماذا يفيدك البحث العميق في الثالوث، إن خلوت من التواضع، بحيث تصبح غير مرضي لدى الثالوث.
حقاً ليست الأقوال السامية هي التي تجعل الانسان قدّيساً وصديقاً، بل السيرة الفاضلة هي التي تجعله عزيزاً على الله.
اني أفضل الشعور بانسحاق القلب، على معرفة تحديده.
لو عرفت على ظهر قلبك كل الكتاب المقدس، وأقوال الفلاسفة جميعاً، فأيُّ نفع لك في ذلك كله، ان خلوت من محبة الله ونعمته ؟

«باطل الأباطيل وكل شيء باطل[2]»، ما خلا حب الله والتعبد له وحده .
هذه هي الحكمة السامية : أن يسعى الانسان الى الملكوت السماوي، باحتقاره العالم.

-4 فباطلٌ إذن طلب الأموال الزائلة، والاتكال عليها.
باطلٌ أيضاً الطمعُ في الكرامات، والتطاول الى المرتبة الرفيعة.
باطلٌ اتباع شهوات الجسد، وابتغاء ما يستوجب لنا أخيراً شديد العقاب .
باطلٌ تمني العمر الطويل، مع قلة الاكتراث لعيشةٍ صالحة.
باطلٌ قصر النظر على الحياة الحاضرة، وعدم التبصر في الأمور المستقبلة.
باطلٌ حب ما يزول بكل سرعة، وعدم الاسراع الى مقر الفرح الدائم.

-5 تذكّر مراراً هذا المثل: «العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئُ من السماع[3]».
فاجتهد إذن أن تصرف قلبك عن حب المنظورات، وتنتقل به الى غير المنظورات.
فإن الذين ينقادون للحواس، يدنّسون ضمائرهم، ويفقدون نعمة الله.

*** ***

الفصل الثاني

في استحقار الانسان نفسه

-1 كل انسانٍ، من طبعه، يرغب في العلم، ولكن ماذا ينفع العلم من غير مخافة الله؟ .
ان الأميّ الوضيع، المتعبّد لله، لأفضلُ، حقاً، من الفيلسوف المتكبّر، الذي يرصد دوران الفلك، وهو غافلٌ عن نفسه.
من يحسن معرفة نفسه، يحتقر ذاته، ولا يلتذ بمديح الناس.
لو كنت أعرف كل ما في العالم، ولم تكن فيّ المحبة، فماذا يفيدني ذلك أمام الله، الذي سوف يدينني على أعمالي؟

-2 كفّ عن الرغبة المفرطة في العلم، فإنّ فيها كثيراً من التشتت والغرور.
إنّ أهل العلم يرومون أن يظهروا وأن يدعوا حكماء.
كثيرة الأمورُ التي قلما تفيدُ النفس معرفتها، وقد لا تفيدها البتة.
أنه لعلى جانب عظيم من الحماقة، من يهتم بغير ما يأول الى خلاصه.
كثرة الكلام لا تشبع النفس، بل العيشة الصالحة تثلج القلب، ونقاوة الضمير تنشئ ثقة بالله عظيمة.

-3 بمقدار ما تزداد توسعاً وتعمقاً في العلم، تكون دينونتك أشد قسوة، إن لم تزدد سيرتكم قداسة.
فلا يزهونك علم أو فن، بل خف بالحريّ لما أوتيت من معرفة.
إن خيّل اليك أنك واسع العلم، سريع الإدراك، فاعلم مع ذلك أن ما تجهل أكثر بكثير.
«لا تستكبر[4]»، بل بالحريّ أقرر بجهلك.
لم تريد أن تفضّل نفسك على غيرك، وكثيرون هم أعلم منك، وأفقه في شريعة الله؟
إن أردت أن تتعلم وتعرف شيئاً مفيداً، فارغب في أن تكون مجهولاً ومعدوداً كلا شيء.

-4 ان أسمى الدروس وأجزلها فائدة، أن يعرف الانسان نفسه معرفة حقة، ويزدري ذاته.
إنها لحكمة سامية، وكمال عظيم، أن لا يحسب الانسان نفسه شيئاً، وأن يحسن الظن دوماً بالآخرين ويحلّ قدرهم.
إن رأيت أحداً يخطأ جهراً - وأن خطأً جسيماً- فلا يحقّ لك، مع ذلك، أن تعدّ نفسك أفضل منه، لأنك لا تعلم كم تستطيع أن تثبت على الصّلاح.
كلنا ضعفاء، أما أنت، فلا تحسب أحداً أضعف منك.

*** ***

الفصل الثالث

في تعليم الحق

1- طوبى لمن يعلمه الحق بذاته، لا برموزٍ وألفاظٍ عابرة، بل كما هو في ذاته!
إن رأينا وحُكمنا كثيراً ما يخدعاننا، ولاً يريان إلا القليل.
ماذا يفيد الجدال العنيف في أمور خفية غامضة، لن نوبّخ، في الدينونة، على جهلنا لها؟
إنها لحماقة عظيمة، أن نهمل النافع الضروري، ونبالغ في الاقبال على الأمور الغريبة المضرّة: «لنا عيونٌ ولا نبصر[5] !»

2- ما لنا والاهتمام بالأجناس والأنواع ؟
إنّ من يكلمه الكلمة الأزلي، ينجو من تعدد الآراء.
من الكلمة وحده كل شيء، وعنه وحده يتكلم كل شيء : هو المبدأ، «وهو الذي يكلمنا[6]».
ما من أحدٍ، بدونه، يفهم أو يحكم بالصواب.
من كانت عنده كل الأشياء واحداً، وردّ كل شيء الى واحد، ورأى كل شيء في الواحد، يستطيع أن يكون ثابت القلب، وأن يستمر في الله بسلام.
اللهم، أيها الحق، اجعلني وإياك واحداً في محبة دائمة.
إني أسأم غالباً لكثرة القراءة والاستماع؛ ففيك أنت كل ما أريد واشتهي.
ليصمت جميع المعلمين، ولتسكت الخلائق كلها في حضرتك؛ وأنت وحدك كلمني.

3- بمقدار ما يخلو الانسان بنفسه، وتخلص طوّيته، يدرك أموراً أوفر وأسمى، من غير ما عناء، لأنه من العلاء ينال نور الفهم.
الروح الطاهر الخالص غير المتقلقل، لا تشتّته كثرة الأعمال، لأنه يعمل كل شيءٍ لمجد الله، ويجتهد أن يحجم، في ذاته، عن كل سعيٍ لمنفعة ذاته.
ما الذي يعوقك ويزعجك، أكثر من أميال قلبك غير المماتة؟
الرجاء الصالح العابد، يرتب أولاً في داخله ما يجب أن يعمل في الخارج، فلا تجرّه أعماله الى شهوات الميل الرديء، بل هو يخضعها لحكم العقل السّديد.
أي جهاد أشد من جهاد الانسان الدائب على قهر نفسه؟ فهذا ما يجب أن يكون شغلنا: أن نقهر ذواتنا، وأن نزداد قوة في كل يوم، ونحرز بعض التقدم في الصلاح.

4- كل كمالٍ في هذه الحياة، يلازمه شيءٌ من النقص، وكل معرفة لنا لا تخلو من بعض الغموض.
إن معرفتك لنفسك بالتواضع، لطريقٌ الى الله، آمن من البحث العميق في العلم.
لا ينبغي ذمُّ العلم، ولا أي معرفةٍ بسيطةٍ للأمور، لأن ذلك حسن في ذاته، ومرتب من قبل الله؛
إنما يجب دائماً أن يؤثر الضمير النقيّ، والسيرة الفاضلة.
على أنّ كثيرين، لكونهم يهتمون للعلم، أكثر من اهتمامهم لسيرة صالحة، يضلون غالباً، فلا يكادون يثمرون البتة، أو قلما يثمرون.

5- آه، لو كانوا يبذلون لاستئصال الرذائل وغرس الفضائل، ما يبذلون من النشاط لاثارة المناقشات، لما حدثت تلك الشرور والمعاثر الجسيمة في الشعب، ولا ذلك التراخي في الأديار.
من الثابت أننا، إذا حل يوم الدين، لن نسأل عما قرأنا بل عما فعلنا، ولا عن درجة فصاحتنا في الكلام، بل عن مقدار تقوانا في الحياة.
قل لي: أين هم الآن جميع أولئك السادة والمعلمين، الذي عرفتهم جيداً وهم أحياء زاهرون بالعلوم ؟
إن وظائفهم يشغلها الآن آخرون، ولا أدري هل هم يخطرون على بال هؤلاء.
لقد كانوا في حياتهم، يبدون كأنهم شيءٌ عظيم، أما الآن فليس من يأتي بذكرهم.

6- سرعان ما يزول مجد العالم !
ليت سيرتهم كانت على وفق علومهم! إذن لكانوا أحسنوا الدرس والمطالعة.
ما أكثرهم في العالم، أولئك الذين يهلكون بسبب العلم الباطل، وقلة اهتمامهم بعبادة الله!
فإنهم لايثارهم العظمة على التواضع، يضمحلون في أفكارهم.
العظيم حقاً، من كانت محبته عظيمة.
العظيم حقاً، من كان صغيراً عند نفسه، وحسب كل ذرى المجد كلا شيء.
الحكيم حقاً، «من عدّ الأرضيات كلها أقذاراً ليربح المسيح[7]».
والعالم العالم حقاً، من يعمل إرادة الله، ويهمل إرادة نفسه.

*** ***

الفصل الرابع

في التبصر في الأعمال

1- لا ينبغي لنا أن نصدّق كل قول، ولا أن نثق بكل هاجس، بل علينا أن نروز الأشياء بحسب الله، بتحفظ وطول أناة.
واحسرتاه على ضعفنا ! فإنا كثيراً ما نصدق أو نقول الشرّ في الآخرين، بأسهل مما نصدّق أو نقول الخير.
أما ذوو الكمال، فلا يطمئنون بسهولةٍ الى كل محدّث، لأنهم يعرفون ما في الضعف البشري، من جنوحٍ الى الشر، ومن سرعة زللٍ في الكلام.

2- إنها لحكمة عظيمة، أن لا يتسرّع الانسان في الأعمال، وأن لا يتمسك، بعنادٍ، بآرائه الخاصة.
ومن الحكمة أيضاً، ان لا نصدّق كل ما يقول الناس، وأن لا نعجل فنذيع على مسامع الآخرين، ما سمعناه أو صدّقناه.
إلتمس مشورة الرجل الحكيم، الصادق الضمير، وآثر أن يرشدك من هو خير منك، أولى من أن تتبع آراءك الذاتية.
السيرة الصالحة، تجعل الانسان اتضاعاً في ذاته، وخضوعاً لله، تزداد في كل شيءٍ حكمته وطمأنينته.

*** ***

الفصل الخامس

في مطالعة الكتب المقدسة

1- يجب أن تبتغى، في الكتب المقدّسة، الحقيقة، لا الفصاحة، وأن يقرأ الكتاب المقدّس كله، بالروح الذي أوحاه.
فلنطلب إذن بالأولى، في الأسفار المقدّسة، الفائدة لا براعة الكلام.
كذلك علينا أن نرتاح لقراءة الكتب التقوية البسيطة، ارتياحنا لقراءة الكتب السامية والبليغة.
لا يوقفك شأن المؤلف : أمن كبار الأدباء هو، أم من صغارهم؟ بل فليحملك على المطالعة حب الحقيقة الخالصة.
لا تسل عمن قال، بل انظر الى ما يقال .

2- الناس يزولون، أما «صدق الرب، فيدوم الى الأبد[8]».
ان الله يكلمنا بطرقٍ مختلفة، ومن غير محاباةٍ للوجوه.
كثيراً ما يكون الفضول عائقاً لنا، في مطالعة الكتب المقدسة، إذ نريد التفهم والجدال، حيث ينبغي العبور ببساطة.
إن شئت أن تجني نفعاً، فاقرأ بتواضعٍ وبساطةٍ وايمان، ولا تبتغ ابداً سمعة العلم.
ارتح الى السؤال، وأصغ صامتاً الى أقوال القديسين، ولا تسؤك أمثال الشيوخ، فإنه لم ينطق بها عبثاً.

*** ***

الفصل السادس

في الاميال المنحرفة

1- كلما اشتهى الانسان شيئاً على خلاف الترتيب، عاد في الحال قلقاً في نفسه.
المتكبّر والبخيل لا يستريحان أبداً، أما المسكين والمتواضع بالروح، فيعيشان في وفرة السلام.
من لم يمت بعد لنفسه موتاً كاملاً، يجرّب سريعاً، ويغلب في أمور زهيدةٍ تافهة.
من كان بعد ضعيف الروح، غير مستكملٍ التحرّر من الجسد، ومائلاً الى المحسومات، فإنه لا يستطيع، من غير صعوبة، أن يمتنع تماماً عن الشهوات الأرضية.
فلذلك كثيراً ما يغتمّ عند امتناعه عنها، وإن قاومه أحد، غضب بسهولة.

2- وإن نال بغيته، أعنته في الحال توبيخ ضميره، لأنه اتبع هواه، فلم ينله الهوى ما طلب من السلام.
فسلام القلب الحقيقي إذن، إنما هو في مقاومة الشهوات، لا في التعبّد لها.
وليس من سلام في قلب الإنسان الشهواني، ولا في الانسان المكبّ على الأمور الخارجية، بل في الانسان الروحي، المضطرم العبادة.

الفصل السابع

في الهرب من الامال الباطلة ومن التشامخ

1- إنه لفاقد اللب، من يجعل رجاءه في الناس، أو في غيرهم من الخلائق.
لا تستحي أن تخدم الآخرين حباً ليسوع المسيح، ولا أن تظهر فقيراً في هذا العالم.
لا تعتمد على نفسك، بل اجعل في الله رجاءك.
إعمل ما وفي وسعك، والله يعضد حسن نيّتك.
لا تشكل على علمك، أو على دهاء أحدٍ من البشر، بل بالحري على نعمة الله، الذي ينصر المتواضعين، ويذلُّ الواثقين بأنفسهم.

2- لا تفتخر بالغنى، إذا توفر لك، ولا بالأصدقاء، على أنهم مقتدرون، بل بالله الذي يمنح كل شيء، ويرغب، فوق كل شيء، أن يهب ذاته.
لا تترفع لقامتك أو لجمال جسمك، فإن مرضاً طفيفاً قد يفسده ويذويه.
لا تعجب بنفسك لمهارتك وذكائك، لئلا تسوء في عيني الله، الذي منه كل ما فيك من خيرٍ طبيعي.

3- لا تحسب نفسك أفضل من الآخرين، لئلا تعدّ شراً منهم لدى الله، «العالم بما في الانسان[9]».
لا تستكبر بأعمالك الصالحة، فإن أحكام الله تغاير أحكام الناس، وما يروق البشر، كثيراً ما يسوء في عينيه.

إن كان فيك بعض الصلاح، فأيقن أن في الآخرين ما هو أفضل، لكي تستمر على التواضع.
لا ضير عليك إن وضعت نفسك دون الجميع، لكنه يضرّك كثيراً أن تترّفع، وإن على واحدٍ فقط.
للمتواضع سلامٌ دائم، أما المتكبّر، فالحسد والغضب غالباً في قلبه.

*** ***

الفصل الثامن

في الحذر من الالفة المفرطة

-1 «لا تكشف قلبك لكل إنسان[10]»؛ بل عالج أمرك مع الحكيم المتقي لله.
كن في النادر مع الأحداث والغرباء.
لا تتملق الأغنياء، ولا ترتح الى الظهور أمام العظماء.
صاحب الوضعاء والسذج، والأتقياء وحميدي السيرة، وكلمهم بما فيه البنيان.
لا تؤالف امرأةً على الاطلاق؛ بل استودع الله، إجمالاً، جميع النساء الصالحات.
تق أن لا تؤالف سوى الله وملائكته، وتجنّب أن يعرفك الناس.

-2 المحبة واجبةٌ للجميع؛ أما المؤالفة، فلا تليق مع الجميع.
قد يتفق أحياناً أن شخصاً يشتهر بحسن السمعة، ما دام مجهولاً، فإذا حضر، ساء في عيون الناظرين.
قد نظن في بعض الأحيان، أنا نسرّ الآخرين بملازمتنا لهم، على حين نبدأ بالحري نسوء في عيونهم، لما يرون فينا من رداءة السيرة.

*** ***

الفصل التاسع

في الطاعة والخضوع

-1 إنه لأمرٌ عظيم جداً، أن يعيش الانسان في الطاعة، خاضعاً لرئيس، وغير مالكٍ زمام نفسه.
إن الخضوع لآمن، بكثير، من الرئاسة.
كثيرون هم تحت الطاعةً عن اضطرار، أولى مما عن محبة، فهولاء هم في عذاب، وبسهولة يتذمرون.
ولن يحصلوا على حرية الروح، ما لم يخضعوا، من كل قلوبهم، لأجل الله.
جل حيثما شئت : فإنك لن تجد الراحة، إلا في الخضوع، بتواضع، لتدبير الرئيس.
كثيرون ظنوا أن تبديل الأماكن يفيدهم، فغرّهم ظنهم.

-2 لا شكّ أن كل واحدٍ يحب العمل بحسب رأيه، ويميل بالحريّ الى الذين يرون رأيه.
ولكن، إن كان الله في ما بيننا، فمن الضروري، أحياناً، أن نتخلى حتى عن آرائنا الذاتية، لأجل السلام.
ومن تراه صار من العلم، بحيث يعرف كل شيء تمام المعرفة ؟
فلا تثق إذن برأيك بإفراط، بل اضع أيضاً بارتياح لرأي الآخرين.
إن كان رأيك صائباً، وتركته لأجل الله، واتبعت رأياً آخر، فإنك تجني من ذلك فائدة أعظم.

-3 كثيراً ما سمعت ان الاصغاء وقبول المشورة، آمن من اسدائها.
وقد يتفق أيضاً أن تكون آراء كل واحدٍ حسنة، ولكن رفض مجاراة الآخرين، عندما يقتضيها العقل أو الأحوال، لدليلٌ على الكبرياء

والعناد.

*** ***

الفصل العاشر

في تجنب الكلام الناقل

1- اجتنب، ما استطعت، جلبة الناس؛ فإن الأحاديث عن الشؤون العالمية تعوق كثيراً، وإن كانت عن نية سليمة.
سرعان ما تدّنسنا الأباطيل وتأسرنا !
أودُّ لو أني، مراتٍ كثيرة، حفظت الصمت ولم أكن بين الناس.
ولكن لم نرتاح جداً الى الكلام والتحدث بعضنا الى بعض، ونحن قلما نعود الى الصمت، من غير انثلام في الضمير ؟
إنا لنرتاح جداً الى الكلام، لأنّا، بتبادل الحديث، نبتغي التعزية بعضنا من بعض، ونرغب أن ننعش قلبنا، المتعب بمختلف الأفكار.
وأكثر ما نرتاح اليه في الحديث والتأمل، إنما هو الأمور التي نحبها أو نشتهيها بالأكثر، أو تلك التي نراها معاكسة لأميالنا.

2- ولكن- يا للأسف !- كثيراً ما يكون ذلك عبثاً وباطلاً.
فإن هذه التعزية الخارجية، إنما تلحق ضرراً جسيماً بتعزيات الله الداخلية.
فيجب إذن السهر والصلاة، لئلا يمرّ الزمن في البطالة.
إذا كان الكلام جائزاً ونافعاً، فتكلم بما هو للبنيان.
إن العادة الرديئة، والتهاون في أمر تقدّمنا، لمن أكبر الموانع لنا عن ضبط أفواهنا.
على أن المذاكرة التقوية في الأمور الروحية، تفيد كثيراً للتقدم الروحي، ولا سيما إذا اجتمع في الله قومٌ، قد تماثلوا في القلب والروح.

*** ***

الفصل الحادي عشر

في تحصيل السلام وفي الغيرة على التقدم

1- لولا رغبتنا في الاهتمام بأقوال الآخرين وأفعالهم، وبالأمور التي لا تعنينا، لكان في استطاعتنا أن نتمتع بسلامٍ وافر.
كيف يستطيع البقاء طويلاً في السلام، من يتدخل في مهام الآخرين، أو من يطلب فرص الاندفاع الى الخارج، ولا يختلي في نفسه إلا قليلاً أو نادراً ؟
طوبى للسذج! فإنهم يحصلون على سلامٍ وافر.

2- لم بلغ بعض القديسين درجة سامية من الكمال والمشاهدة؟
لأنهم اجتهدوا في إماتة أنفسهم، إماتةً كاملة، عن جميع الشهوات الأرضية، فاستطاعوا أن يتحدوا بالله من صميم قلوبهم، ويتفرغوا لذواتهم بحرية.
أما نحن، فشغلنا الشاغل في أهوائنا الذاتية، واهتمامنا المفرط في الأمور الزائلة.
أنه لمن النادر أن نقمع تماماً، ولو رذيلة واحدة، ثم إننا لا نضطرم غيرةً على تقدّمنا اليومي؛ ولذلك نبقى باردين، لا حرارة فينا.

3- لو كنا أمواتاً عن أنفسنا بالتمام، وأقلّ ارتباكاً في دواخلنا، إذن لاستطعنا أن نتذوّق حتى الأشياء الالهية، ونخبر شيئاً من المشاهدة

السماوية.
ان العائق الأعظم، بل الوحيد، هو أننا غير أحرار من الأهواء والشهوات، ولا نجتهد أن نسلك طريق القديسين الكامل .
فإذا عرضت لنا شدة طفيفة، فشلنا في الحال، وعمدنا الى التعزيات البشرية.

4- لو اجتهدنا أن نثبت كرجال بأسٍ في القتال، رأينا، بلا ريبٍ، معونة الرب، تنحدر علينا من السماء.
فإنه مستعدٌ لنصرة المجاهدين، والمتوكلين على نعمته، لأنه هو الذي يوفر لنا أسباب الجهاد، كيما ننتصر.
إن حضرنا تقدّمنا الروحي في الممارسات الخارجية فقط، فتقوانا صائرةٌ سريعاً الى الزوال.
ولكن، لنضع الفأس على أصل الشجرة، حتى إذا تطهّرنا من أهوائنا، نحصل على سلام الروح.

5- لو كنا، في كل سنة، نستأصل رذيلةً واحدة، لصرنا سريعاً رجالاً كاملين.
لكننا نشعر، غالباً، أن الأمر على عكس ذلك : أي اننا، في بدء حياتنا الرهبانية، قد كنا أفضل وأطهر مما نحن عليه الآن، بعد سنين كثيرة قضيناها في تلك العيشة.
لقد كان من الواجب أن تنمو حرارتنا وتقدّمنا كل يوم؛ أما الآن، فيحسب أمراً عظيماً أن يحافظ أحدنا على شيء من حرارته الأولى.
لو كنا، في البدء، نغصب أنفسنا قليلاً، إذن لكان بوسعنا، في ما بعد، أن نصنع كل شيء بسهولة وفرح.

6- أنه لأمرٌ شاق، الاقلاع عن العادات؛ وأشد مشقة منه، مخالفة الارادة الشخصية.
فإن لم تذلل الآن الصعوبات الصغيرة الطفيفة، فمتى تنتصر على ما هو أشد منها ؟
قاوم ميلك في بدئه، واقلع عن العادة الرديئة، لئلا تستدرجك، رويداً، الى صعوبة أشد.
أهِ ! لو كنت تدرك أي سلامٍ تجني لنفسك، وأي فرحٍ تجلب للآخرين، إن أحسنت سيرتك، لكنت، في ما أظن، أكثر اهتماماً بشأن تقدّمك الروحي.

*** ***

الفصل الثاني عشر

في منفعة الشدة

1- حسنٌ لنا أن تنتابنا، أحياناً، بعض الشدائد والمعاكسات، لأنها كثيراً ما تردّ الانسان الى نفسه، لكي يعرف أنه في المنفى، فلا يجعل، من بعد، رجاءه في شيء من العالم.
حسنٌ لنا أن يعاكسنا الناس أحياناً، وأن يظنوا فينا السوء والنقص - وان كانت أعمالنا ونيّاتنا صالحة - ؛ فكثيراً ما يعود علينا ذلك بالخير، لحفظ التواضع، والوقاية من المجد الباطل.
فإننا، إذا استحقرنا الناس في الخارج، ولم يحسنوا بنا الظن، فحينئذٍ نؤثر أن نتخذ الله شاهداً على دواخلنا.

2- فعلى الإنسان إذن، أن يوطد نفسه في الله، بحيث لا تعود به حاجةٌ لالتماس كثيرٍ من التعزيات البشرية.
ان الرجل الصالح الإرادة، إذا حصل في ضيق أو تجربة، أو عني بالأفكار الشريرة، فحينئذٍ يدرك شدة احتياجه الى الله، ويرى أنه، بدونه، لا يستطيع شيئاً من الصلاح.
وحينئذٍ أيضاً، يحزن ويئن ويتضرّع، لما أصابه من الشقاء.
«حينئذٍ يملّ طول الحياة[11]»، ويتمنى دنو أجله، لكي «ينحلّ فيكون مع المسيح[12]».
وحينئذٍ أيضاً، يدرك تمام الإدراك، انه لا يمكن أن تدوم في العالم طمأنينة كاملة، أو سلامٌ تام.

*** ***

الفصل الثالث عشر

في مقاومة التجارب

1- ما دمنا في هذه الحياة، لا يمكن أن نخلو من الضيق والتجربة.
ولذلك قد كتب في سفر أيوب : «تجربة هي حياة الانسان على الأرض[13]».
فعلى كل واحدٍ أن يجعل همه في مجابهة تجاربه، وأن يسهر ويصلي، لئلا يجد ابليس موضعاً لإغوائه، فإنه لا ينعس أبداً، بل «يحول ملتمساً من يفترسه[14]».
ما من أحد، أياً كان كماله وقداسته، إلا وتهاجمه التجارب أحياناً؛ فمن المحال أن نخلو منها تماماً .

2- على ان التجارب – وإن عنيفة مرهقة – كثيراً ما تكون جزيلة الفائدة للإنسان، لأنها تذلّله وتنقيه وتؤدبه.
فالقديسون جميعاً جازوا في المضايق والتجارب، فأفلحوا.
أما الذين لم يقووا على احتمال التجارب، فرذلوا وسقطوا.
ما من رهبنة، أياً كانت قداستها، ولا موضعٍ، أياً كانت خلوته، إلا وهنا تجارب وشدائد.

3- ما دام الإنسان في الحياة، فليس له تمام الأمن من التجارب، لأن مصدر تجاربنا هو فينا، إذ نحن في الشهوة مولودون.
فإن بارحتنا تجربة أو شدّة، حلت مكانها أخرى، وسيبقى لنا أبداً مضايق نعانيها، لأن خير سعادتنا قد خسرناه.
كثيرون يطلبون الهرب من التجارب، فيقعون فيها وقوعاً أشدّ.
بالهرب وحده لا نستطيع الغلبة، لكن الصبر والتواضع الحقيقي، يجعلاننا أقوى من جميع الأعداء.

4- من لم يحد عن الشر إلا في الخارج فقط، دون أن يقتلعه من أصوله، فقلما يتقدّم، بل سرعان ما تعاوده التجارب، فتزداد حاله سوءاً.
الغلبة بالتمهل والصبر وطول الأناة، أيسرُ عليك منها بالقسوة واللجاجة.
أكثر من طلب المشورة إبان التجربة، ولا تعامل بقسوةٍ من كان مجرباً، بل عزّه كما تودّ أن يصنع لك.

5- أول جميع التجارب الشريرة، تقلب النفس وقلة الثقة بالله، فكما أن السفينة التي بلا دفة، تتقاذفها الأمواج من كل جهة، كذلك الانسان المتراخي، الناكص عن قصده، يمتحن بتجارب مختلفة.
«النار تمتحن الحديد[15]»، والتجربة الرجل الصدّيق.
كثيراً ما تجهل مقدار قوّتنا، لكن التجربة تظهر ما نحن عليه.
بيد ان السهر واجبٌ خصوصاً في أول التجربة، لأن العدوّ يغلب بسهولة أكبر، إذا منعناه منعاً باتاً عن ولوج باب النفس، وبادرنا، حال قرعه له، نلاقيه خارج العتبة.
وقد قال أحدهم في ذلك : «قاوم الداء في أوله، لئلا يزمن بتأخر الدواء[16]».
ففي البدء يخطر على البال فكرٌ بسيط، ثم تصوّرٌ قوي، ثم اللذة، فالحركة الرديئة، فالرضى.
وهكذا يتغلغل العدوُّ الخبيث، تدريجاً، الى النفس كلها، إن لم يردّ من أول أمره.
وبقدر ما يتأخر المرء ويتوانى في المقاومة، يزداد كل يوم ضعفاً في نفسه، فيما عدوّه يزداد قوة عليه.

6- إن بعضاً يقاسون أشدّ التجارب في بدء اهتدائهم، وبعضاً في النهاية، وغيرهم لا تكاد المحن تفارقهم، حياتهم كلها.
وهناك أيضاً من يجرّبون برفق، على حسب الحكمة والعدل في ترتيب الله، الذي يروز أحوال البشر واستحقاقاتهم، ويسبق فيدبّر كل شيء لخلاص مختاريه.

7- ولذلك ينبغي أن لا نيأس عند التجربة، بل نتضرّع الى الله بحرارةٍ أعظم، ليرتضي ويساعدنا في كل ضيقة، فإنه، حقاً، على حدّ ما يقول بولس، «يجعل مع التجربة مخرجاً، لنستطيع احتمالها[17]».
«فلنتضع إذن تحت يد الله[18]» في كل تجربة وضيق، لأنه «يخلص ويرفع المتواضعين بالروح[19]».

8- في التجارب والمضايق يختبر كم تِقدّم الإنسان، وفيها يعظم استحقاقه، وتتضح فضيلته بجلاء أوفر.

ليس بعظيم أن يكون الانسان متعبّداً حاراَ، ما دام لا يشعر بعناء؛ لكنه إن ثبت على الصبر في أوان الشدّة، فله الأمل بتقدّم عظيم.
من الناس من يصانون من التجارب الكبيرة، وهم كثيراً ما يغلبون في التجارب الصغيرة اليومية، وذلك لكي يتضعوا، فلا يثقوا بأنفسهم في الأمور الخطيرة، حال كونهم يضعفون عن أمورٍ طفيفةٍ جداً .

*** ***

الفصل الرابع عشر

في اجتناب الدينونة الباطلة

1- حول عينيك الى نفسك، واحذر أن تدين أفعال الآخرين.
عبثاً يتعب الإنسان بدينونته الآخرين، وكثيراً ما يضلّ، وما أسهل ما يخطأ !
أما إذا دان نفسه وناقشها، فتعبه يكون أبداً مثمراً.
كثيراً ما نحكم في الأمور، بحسب قلبنا منها؛ وما أسهل ما نفقد الحكم الصوابي، بسبب حبنا لذواتنا !
لو كان الله، دائماً، الغاية الخالصة لأمانينا، لما كنا نضطرب بمثل هذه السهولة، إذا قاوم أحدٌ رأينا.

2- ولكن ما يحملنا على العمل، هو، في الغالب، دافعٌ خفيٌ في داخلنا، أو جاذبٌ يأتينا من الخارج أيضاً.
كثيرون يطلبون أنفسهم سراً في أعمالهم، وهم لا يعلمون.
لا بل يبدون موطدين في سلام حقيقي، ما دامت الأمور تجري وفق إرادتهم ورأيهم.
فإذا حدث أمرٌ على خلاف ماً يشتهون، اضطربوا في الحال واكتأبوا.
ان اختلاف الآراء والأفكار، هو الذي كثيراً ما يوّلد الخصومات بين الأصدقاء، وبين المواطنين، بل بين الرهبان وأهل العبادة.

3- العادة القديمة تترك بصعوبة، وما من أحد يرضى بالانقياد لما يتجاوز مدى نظره.
ان اعتمدت على عقلك ودهائك، أكثر من اعتمادك على قوة يسوع المسيح القاهرة، فقلما تبلغ الاستنارة – وان بلغتها، فبعد الأوان – لأن الله يريد أن نخضع له خضوعاً كاملاً، وأن نتعالى فوق كل عقلٍ باضطرام الحب.

*** ***

الفصل الخامس عشر

في الأعمال الصادرة عن المحبة

1- لا يجوز أبداً فعل شيءٍ من الشرّ، لأي علة كانت، ولا حباً لأيّ أحد من الناس.
على أنه يسوغ أحياناً، لأجل فائدة المحتاج، أن يرجأ العمل الصالح، أو يبدل بعملٍ أفضل ؛
إذ بذلك لا ينقض العمل الصالح، بل يبدّل بما هو خيرّ منه.
العمل الخارجي، بدون محبة، لا يفيد شيئاً، أما ما يعمل عن محبة، فمهما صغر وحقر، فإنه بجملته يصبح مثمراً ؛
لأن الله يقدر الباعث على العمل، أكثر من العمل نفسه.

2- أنه ليعمل كثيراً، من يحب كثيراً.
أنه ليعمل كثيراً، ذاك الذي يحسن عمله ؛

وأنه ليحسن العمل، ذاك الذي يقدم خير الجمهور، على إرادته الذاتية.
كثيراً ما يبدو لنا عمل محبة، ما هو بالحريّ وليد الشهوة؛ فإن أعمالنا قلما تخلو من الميل الطبيعي، والإرادة الشخصية، وأمل المكافأة، والطمع في المنفعة.

3- من كانت فيه المحبة الحقيقية الكاملة، لا يطلب نفسه في أمر البتة، بل رغبته الوحيدة، أن يتمجّد الله في كل شيء.
وهو لا يحسد أحداً، لأنه لا يحب أن يختص نفسه بفرحٍ ما، أو يجعل فرحه في ذاته؛ بل ما يتوق اليه، إنما هو التنعم في الله، فوق جميع الخيرات.
لا ينسب من الصلاح شيئاً لأحد، بل يعيد كل شيء الى أصله وينبوعه، الى الله الذي هو غاية القديسين جميعهم، وراحتهم ونعيمهم.
آه ! من كانت فيه شرارةٌ من المحبة الحقة، فإنه يشعر، دون ما ارتياب، أن جميع الأرضيات ملأئ من الباطل.

*** ***

الفصل السادس عشر

في احتمال نقائص الآخرين

1- ما لا يقو الإنسان على إصلاحه، في نفسه أو في غيره، فعليه أن يحتمله بصبر، ريثما يدبّر الله خلاف ذلك.
فكر أنّ هذا قد يكون خيراً لك، لامتحانك في الصبر، إذ ليس لاستحقاقاتنا، بدون الصبر، كبير قيمة.
ولكن عليك أن تتضرّع الى الله بشأن تلك العوائق، ليتنازل ويساعدك، فتستطيع أن تحتملها بوداعة.

2- إذا نصحت لأحدٍ مرةً أو مرتين، ولم ينتصح، فلا تخاصمه، بل فوّض كل شيء الى الله، لتتم إرادته، ويبدو مجده في جميع عباده، فإنه يعرف جيداً أن يحوّل الشر الى خير.
اجتهد أن تحتمل بصبر نقائص الآخرين وأوهانهم، أياًّ كانت؛ فإن فيك، أنت أيضاً، عيوباً كثيرة، يجب على الآخرين احتمالها.
ان كنت لا تقدر أن تجعل نفسك كما تريد، فكيف يمكنك أن تجعل الآخرين وفق مرامك؟
يجب أن يكون الآخرون بلا نقص؛ أما نحن، فلا نصلح عيوبنا الخاصة !

3- نريد أن يؤدب الآخرون بشدة، أما نحن، فنأبى التأديب !
يسوءنا ما للآخرين من حرية واسعة ؛ أما نحن، فنأبى أن يرفض لنا ما نطلب !
نريد أن يتقيّد الآخرون بالقوانين، أما نحن، فلا نحتمل أن يضيّق علينا بشيء البتة !
وهكذا يتضح جلياً، أننا قلما نكيل بالمكيال عينه، لأنفسنا وللقريب.
لو كان الجميع كاملين، إذن فأيّ شيء كنا نحتمل من قبل الآخرين، لأجل الله ؟

4- أما الآن، فقد دبّر الله الأمور على هذا النحو، لكي نتعلم أن «نحمل بعضنا أثقال بعض[20]»؛
إذ لا أحد بغير نقص، ولا أحد بغير ثقل ؛ ليس لأحد كفايةٌ بنفسه، ولا أحد في غنى عن حكمة الآخرين، بل ينبغي لنا أن نحتمل بعضنا بعضاً، ونعزي بعضنا بعضاً، وأن يساعد أحدنا الآخر، ويرشده وينصح له.
فمقدار فضيلة المرء، إنما يتضح بجلاء عند الشدّة،
لأن هذه الفرص لا توهن الإنسان، بل تظهره كما هو.

الفصل السابع عشر

في السيرة الرهبانية

1- عليك أن تتعلم قمع نفسك في أمور كثيرة، إن ابتغيت حفظ السلام والوئام مع الآخرين. ليس باليسير الإقامة في دير أو في جماعة رهبانية، والعيش هناك من غير لوم، والثبات على الوفاء حتى الموت.
طوبى لمن عاش هناك عيشةً صالحة، وختمها بنهايةٍ سعيدة !
إن شئت أن تثبت وتتقدّم كما ينبغي في هذه السيرة، فاحسب نفسك منفياً وغريباً على الأرض.
إن شئت أن تعيش العيشة الرهبانية، فعليك أن تصبح جاهلاً من أجل المسيح.

2- الثوب الرهبانيّ، وإكليل شعر الرأس، قلما يفيدان؛ لكن تغيير السيرة، وإماتة الأهواء إماتة كاملة، هما اللذان يجعلان الراهب راهباً حقاً.
من طلب شيئاً آخر سوى الله وخلاص نفسه، فلن يجد غير الضيق والوجع.
ومن لا يجتهد أن يكون أصغر الجميع وخاضعاً للجميع، فلا يستطيع البقاء طويلاً في السلام.

3- أنت ما جئت الى الدير إلا لكي تخدم، لا لكي تحكم.
واعلم انك للألم والعمل قد دعيت، لا للبطالة والثرثرة.
فهنا يمحّص الناس، تمحيص الذهب في الكور؛
هنا ما من أحدٍ يستطيع الثبات، إلا إذا رضي أن يخضع من كل قلبه، لأجل الله.

*** ***

الفصل الثامن عشر

في قدوة الآباء القديسين

1- اعتبر قدوة الآباء القديسين الحية، الذي تلألأ فيهم الكمال والسيرة الرهبانية الحقة، تر كم هو قليل ما نفعله نحن، حتى كأنه لا شيء.
آه ! ما حياتنا إذا قيست بحياتهم ؟
إن القديسين وأحباء المسيح، قد خدموا الرب في الجوع والعطش، في البرد والعرّي، في التعب والكد، في الأسهار والأصوام، في الصلوات والتأملات المقدّسة، في الاضطهادات والتعييرات الكثيرة.

2- آه ! ما أكثر وأشدّ المضايق، التي قاساها الرسل والشهداء، والمعترفون والعذارى، وسائر الذين أرادوا أن يقتفوا آثار المسيح !
« فإنهم قد أبغضوا نفوسهم في هذا العالم، ليحفظوها للحياة الأبدية[21]».
آه ! ما أضيق وأقشف العيشة التي عاشها الآباء القديسون في القفر ! ما أطول وأشدّ ما قاسوا من التجارب !
ما أكثر ما ضايقهم العدوّ ! ما أوفر وأحرّ ما قدّموا لله من الصلوات !
ما أشدّ ما كان إمساكهم ! ما أعظم ما كانت غيرتهم ونشاطهم للتقدّم الروحي !
ما أشدّ ما كان جهادهم في قهر الرذائل ! ما أخلص وأقوم ما كان توجيه نيتهم الى الله!
في النهار كانوا يشتغلون، وفي الليل يتفرغون للتهجد الطويل، وإن لم يكونوا ليكفوا عن الصلاة العقلية أثناء العمل.

3- لقد كانوا يقضون وقتهم كله في ما هو نافع؛ وكل ساعةٍ يتفرغون فيها لله، كانت تبدو لهم قصيرة؛ ولعذوبة المشاهدة، كانوا ينسون حتى ضرورة القوت الجسدي.
لقد زهدوا في جميع الثروات والرتب والكرامات، وفي الأصدقاء والأقارب، ولم يشتهوا امتلاك شيءٍ في العالم؛ وبالجهد كانوا يتناولون ضروريات المعيشة، بل كانوا يغتمّون لخدمة الجسد، حتى في ضروریاته.
لقد كانوا فقراء في الأرضيات، ولكن أغنياء جداً في النعمة والفضائل.
لقد كانوا، بالظاهر، في عوز، أما في الداخل، فنعمة الله وتعزيته كانتا تنعشانهم.

4- كانوا غرباء عن العالم، ولكن مقرّبين الى الله، وأصدقاء له مؤالفين.

كانوا في أعين أنفسهم كلا شيء، وفي نظر العالم محتقرين؛ أما في عيني الله، فكانوا كراماً ومحبوبين.
كانوا ثابتين في التواضع الحقيقي، عائشين في الطاعة الساذجة، سالكين في المحبة والصبر، فكانوا يتقدّمون كل يومٍ بالروح، وينالون حظوة عظيمة لدى الله.
لقد اعطوا كقدوة لجميع الرهبان، ومن الواجب أن تستحثنا سيرتهم على التقدّم في الكمال، أكثر مما أن يستدرجنا الى التراخي عدد الفاترين.

5- ما أعظم ما كانت حرارة جميع الرهبان، عند تأسيس رهبانيتهم المقدسة !
ما أعظم ما كان ميلهم الى الصلاة، وتنافسهم في الفضيلة ! ما أدق ما كان حفظهم للنظام ! كم ازدهر احترامهم وطاعتهم، في كل شيء لقانون معلمهم !
إن ما بقي من آثارهم يشهد الى الآن، أنهم كانوا، في الحقيقة، رجالاً قديسين كاملين، جاهدوا بيأس عظيم، فداسوا العالم بأرجلهم.
أما الآن، فيحسب عظيماً من لا يتعدّى القوانين، ومن يستطيع أن يحتمل، بصبر، النير الذي قد رضي به من قبل.

6- يا لفتورنا وتوانينا ! يا لسرعة انحطاطنا عن حرارتنا الأولى ! فقد أصبح العيش نفسه لنا سأماً، لكسلنا وفتورنا !
أما أنتَ، فبعد ما رأيت من قدوة ذوي الورع الكثيرة، فعسى أن لا ترقد فيك تماماً، الغيرة على التقدّم في الفضائل !

*** ***

الفصل التاسع عشر

في رياضات الراهب الصالح

1- لا بدّ للراهب الصالح، من أن تكون حياته غنية بجميع الفضائل، حتى يكون في داخله، على ما يظهر للناس في الخارج.
بل يجب أن يكون، في داخله، أكمل بكثير مما يرى عليه في الخارج، لأن رقيبنا هو الله، الذي من واجبنا، أينما كنا، أن نحترمه احتراماً عظيماً، ونسلك أمامه بطهارة كالملائكة.
علينا أن نجدد العزم كل يوم، وأن نستحث أنفسنا على النشاط، كما لو كان اليوم بدء اهتدائنا، ولنقل:
أيها الرب الاله، أعني في عزمي الصالح، وفي خدمتك المقدسة، وامنحني أن أبدأ اليوم كما ينبغي، لأن ما فعلته الى الآن ليس بشيء.

2- على حسب عزمنا يكون مدى تقدّمنا، فلا بدّ من عظيم الهمة لمن أراد حسن التقدّم.
وإن كان شديد العزم كثيراً ما يخفق، فكيف بواهي العزم أو بنادره ؟
غير أن هناك طرقاً مختلفة، نتراجع بها عن عزمنا؛ فإهمال طفيفٌ في رياضاتنا لا يكاد يمرُّ من غير ضرر.
بنعمة الله ينوط الصديقون عزمهم، أكثر مما بحكمتهم الخاصة، وهم على الله يتوكلون دائماً في كل ما يباشرون.
«فالقصد للانسان، أما التدبير فلله[22]» ، «وطريق الإنسان ليست في يده[23]».

3- إذا تركنا، في بعض الأحيان، شيئاً من الرياضات الاعتيادية، لأجل عمل برٍ أو لأجل منفعة الإخوة، فمن السهل أن نعوّض عنه في ما بعد.
أما إذا تساهلنا في تركه عن سأم نفسٍ أو تهاون، فذلك ذنب جسيم، سوف نرى وخيم عاقبته.
إنّا، وإن عملنا كل ما في وسعنا، لا نزال نخفق بسهولة، وفي أمورٍ كثيرة.
بيد أنه يجب علينا دوماً أن نقصد قصداً معيّناً، ولا سيما في الأمورِ التي تعوقنا بالأكثر.
علينا أن نفحص ونرّتب خارجنا وداخلنا على السواء، لأن في كليهما فائدة لتقدّمنا.

4- إن لم تستطع الاختلاء في نفسك على وجهٍ متواصل، فليكن ذلك، على القليل، بين حين وآخر، وعلى الأقل مرةً في اليوم، أي في الصباح أو المساء.
ففي الصباح اقصد مقاصدك، وفي المساء افحص سلوكك: ما كانت اليوم أقوالك وأفعالك وأفكارك ؟ فلعلك قد أسأت بها الى الله والقريب، مراراً كثيرة.

«تنطّق وكن رجلا[24]» إزاء المكايد الشيطانية.
إكبح الحنجرة، يسهل عليك كبح كل ميل جسدي.
لا تكن أبداً عاطلاً من كل عمل، بل دائماً مشتغلاً في قراءة أو كتابة، أو صلاةٍ أو تأمل، أو عملٍ آخر مفيدٍ للجمهور.
أما الرياضات الجسدية، فتجب مزاولتها بتمييز، وليس للجميع أن يمارسوها على السواء.

5- لا تظهر، الى الخارج، شعائر عبادةٍ ليست للجمهور؛ بل ما كان خصوصياً، فالآمن أن يتمم في الخفية.
ولكن إياك والتكاسل عن الرياضات الجمهورية، قصد الاقبال، بنشاطٍ أوفر، على عباداتك الفردية.
أما إذا أتممت، بدقةٍ وأمانة، كل ما هو واجبٌ ومفروضٌ عليك، ثم تبقّى لك شيء من الوقت، فاستسلم لما ترغب فيه نفسك من العبادة.
لا يمكن الجميع أن يمارسوا الرياضات عينها، بل منها ما هو أكثر ملاءمة لهذا، ومنها ما هو أكثر مناسبة لذاك.
بل يستحب تنويع الرياضات بحسب الأوقات : فمنها ما يفضل في الأعياد، ومنها ما يؤثر في أيام العمل؛ ومنها ما نحتاج اليه إبان التجربة، ومنها ما يلزمنا وقت السلام والراحة.
وما يلذ لنا التفكر به وقت الحزن، هو غير ما يروقنا حين نفرح في الرّب.

6- علينا، بمناسبة الأعياد الهامة، أن نجدّد رياضاتنا الصالحة، ونلتمس شفاعة القديسين، بحرارةٍ أعظم.
وعلينا، بين عيدٍ وآخر، أن نقصد مقاصدنا كما لو كنا راحلين، عما قريب، من هذا العالم، لنبلغ الى العيد الأبدي.
ومن ثم، علينا أن نستعدّ باهتمام، في أيام التعبد هذه، ونسلك بنشاطٍ أعظم، ونحافظ على جميع الفرائض بدقةٍ أشدّ، كأننا مزمعون أن نقبل، عما قليلٍ، من الله، جزاء تعبنا.

7- فإن مدّ في أجلنا، فلنعتقد أن استعدادنا غير كافٍ، وأننا بعد غير أهلٍ لذلك «المجد العظيم، الذي سيتجلى فينا[25]»، في الأجل الذي سبق الله فحدّده، ولنجتهد أن نحسن استعدادنا للخروج من هذا العالم.
يقول لوقا البشير: «طوبى للعبد الذي، إذا وافى سيده، وجده ساهراً ! في الحقيقة أقول لكم: إنه يقيمه على جميع أمواله[26]».

*** ***

الفصل العشرون

في حب العزلة والصمت

1- إلتمس وقتاً ملائماً، تتفرّغ فيه لنفسك، وأكثر من التفكر في إحسانات الله.
دع المستطرفات، واختر لك مطالعاتٍ، توليك انسحاق القلب لا اشتغال البال.
لو اجتنبت فضول الكلام، والتجول في البطالة، واستماع الأخبار والأحاديث، لوجدت وقتاً كافياً وملائماً، للعكوف على التأملات الصالحة.
إن أعاظم القديسين، كانوا يتجنبون معاشرة الناس، قدر استطاعتهم، ويؤثرون التعبد لله في الخلوة.

2- لقد قال أحد القدماء : «ما كنت قط بين الناس، إلا عدت إنساناً منتقصاً[27]».
ذلك ما نختبره غالباً، بعد المحادثات الطويلة.
ألصمت الكامل أيسر من عدم الإفراط في الكلام.
ألانزواء في البيت، أسهل من صيانة النفس، في الخارج، على ما ينبغي.
فمن رام أن يبلغ الى الحياة الداخلية الروحية، فعليه أن «يعتزل الجمع[28]» برفقة يسوع.
لا يظهر بأمان، إلا من يرتاح الى الخفية.
ولا يتكلم بأمان، إلا من يرتاح الى الصمت.
ولا يكون آمناً في الرئاسة، إلا من يرتاح الى الخضوع.
ولا يأمر بأمان، إلا من تعلم أن يحسن الطاعة.

-3 ولا يكون آمناً في الفرح، إلا من له، في نفسه، شهادة ضميره الصالح.
غير أن طمأنينة القدّيسين، كانت تملأها أبداً مخافة الله؛ ولم يكن سطوعهم بعظيم الفضائل والنعم، لينقص من حذرهم وتواضعهم.
أما طمأنينة الأشرار، فأصلها الكبرياء والاعتماد على الذات، وعاقبتها غرور النفس.
لا تعد نفسك بالطمأنينة في هذه الحياة، مهما خيّل اليك أنك راهبٌ صالح، أو ناسكٌ متعبّد.

-4 كثيراً ما وقع في أشدّ الأخطار، قومٌ أخيارٌ في نظر الناس، وذلك لفرط اعتمادهم على أنفسهم.
ومن ثم فخيرٌ للكثيرين أن لا يخلوا تماماً من التجارب، بل أن يهاجموا بتواتر، لئلا يفرطوا في الطمأنينة، فيترفعوا صلفاً، ويميلوا بإفراطٍ الى التعزيات الخارجية.
آه ! كم يصون الإنسان نقاوة ضميره، إن هو لم يلتمس قط فرحاً زائلاً، ولم يعكف على المشاغل العالمية !
آه ! ما أعظم ما يملك من السلام والراحة، من يقطع كل اهتمام باطل، ويتفرّغ للتفكير في الأمور الخلاصية الإلهية، ويضع في الله كل رجائه !

-5 لا يكون أهلاً للتعزية السماوية، إلا من يتدرّب، بنشاط، على الانسحاق المقدّس.
إن رمت انسحاقاً يبلغ الى الصميم، فادخل مخدعك، وأقصِ عنك ضوضاء العالم، كما كتب: «تندموا في مخادعكم[29]»
إنك لواجدٌ، في مخدعك، ما تفقده غالباً في الخارج.
إن لزمت مخدعك، وجدته عذباً؛ وإن أكثرت من هجره، أورثك السأم.
إن أقمت به، ولزمته حسناً، منذ بدء هدايتك، أصبح لك، في ما بعد، الصديق الحبيب، والعزاء الجزيل العذوبة.

-6 في الصمت والسكينة، تتقدّم النفس العابدة، وتتعلم مكنونات الكتب المقدسة.
هناك تحد مجاري دموع، تغتسل وتتنقّى فيها كل ليلة، لتزداد ألفة مع خالقها، بقدر ما تعيش بعيدة عن كل ضجةٍ دنيوية.
فمن اعتزل المعارف والأصدقاء، دنا اليه الله مع ملائكته القديسين.
خيرٌ للمرء أن يتخفى ويعنى بذاته، من أن يأتي الآيات، وهو غافلٌ عن نفسه.
حميدٌ في الرجل العابد، أن لا يكثر الخروج من مخدعه، وأن يتجنب الظهور بين الناس، ولا يرغب في النظر اليهم.

-7 ما بالك تروم النظر الى ما لا يسوغ لك اقتناؤه ؟ «فالعالم وشهوته يزولان[30]».
رغائب الحواس تدفعك الى التفسّح؛ ولكن إذا مرّت تلك الساعة، فماذا يبقى لك سوى عناء الضمير وتشتت القلب ؟
رُبّ ذهابٍ في الفرح، عقبه إيابٌ في الحزن، وسمرٍ حافلٍ بالسرور، تبلج عنه صبحٌ كئيب !
هكذا كل لذةٍ جسدية : تستغوي فتدخل، لكنها أخيراً تلدغ فتهلك.
ما عساك أن تراه في مكانٍ آخر، ولا تراه هنا ؟
ها هي ذي السماء والأرض وجميع العناصر، فمنها كوّنت جميع الأشياء.

-8 أين تستطيع أن ترى شيئاً يمكن أن يدوم طويلاً تحت الشمس ؟
قد تظن أنك ترتوي، ولكنك لن تنال مرامك.
لو رأيت جميع الأشياء حاضرةً أمامك، فهل ذلك إلا رؤيا باطلة ؟
إرفع عينيك الى الله في العلاء، وابتهل من أجل خطاياك وغفلاتك.
دع الأباطيل لذوي الأباطيل، أما أنت، فاعكف على ما أمرك به الله.
أغلق عليك بابك، وادع اليك يسوع حبيبك.
أمكث معه في مخدعك، فإنك غير واجدٍ مثل هذا السلام في مكانٍ آخر.
لو لم تستفض الى الخارج، وتستمع لشيء من لغط البشر، لبقيتَ في سلامٍ أوفر.
أما وقد لذّ لك استماع الأخبار، فلا بدّ أن تعاني بسببه اضطراب القلب.

*** ***

الفصل الحادي والعشرون

في انسحاق القلب

1- إن رمت بعض التقدّم، فاحفظ نفسك في مخافة الله؛ ولا ترغب في حرية مفرطة، بل اكبح جميع حواسك بقانونٍ حازم، ولا تستسلم للمرح والهوس.
أسلم نفسك لانسحاق القلب، فتجد التقوى.
إنّ ما يوليناه الانسحاق من كثرة الخيرات، نفقده عادةً، وسريعاً، بالتراخي.
من العجب أن يستطيع الإنسان، وهو في هذه الحياة، أن يفرح، يوماً، فرحاً كاملاً، إذا تأمّل في منفاه، وفكرّ في كثرة الأخطار، المعرّضة لها نفسه.

2- إننا لخفة قلبنا، وتوانينا عن إصلاح نقائصنا، لا نشعر بآلام نفسنا؛ بل كثيراً ما نضحك عن طيش، فيما يجدر بنا أن نبكي.
ما من حرية حقة، ولا فرح صادق، إلا في مخافة الله، وفي الضمير الصالح.
هنيئاً لمن أمكنه أن ينبذ كل تشتتٍ عائق، وأن يخلو الى نفسه، في انسحاق قلبٍ مقدّس!
هنيئاً لمن يعتزل كل ما من شأنه أن يدّنس ضميره أو يثقله !
جاهد ببأس، فالعادة بالعادة تغلب.
إن عرفت أن تترك الناس، يتركونك هم أيضاً تتفرّغ لشؤونك.

3- لا تحوّل اليك شؤون الآخرين، ولا تتدّخل في مهام الرؤساء.
لتكن عينك دائماً على نفسك قبل كل شيء، وانصح أولاً لنفسك، قبل أن تنصح لأحدٍ من أحبائك.
إن لم تكن حظيّا عند الناس، فلا تحزن لذلك؛ بل ما يجب أن يشق عليك، هو أنك لا تسلك في الصلاح والرصانة، كما يليق بخادم الله والراهب المتعبّد.
أنه لأنفع وآمن، في الغالب، أن لا تتوفر التعزيات للإنسان في هذه الحياة، ولا سيما التعزيات البشرية.
أما التعزيات الالهية، فإن حرمناها، أو لم نشعر بها إلا نادراً، فالذنب في ذلك علينا، لأنا لا نطلب انسحاق القلب، ولا ننبذ، مطلقاً، التعزيات الخارجية الباطلة.

4- إعلم انك غير اهلٍ للتعزية الالهية، بل مستوجبٌ، بالحريّ، كثرة الضّيقات.
متى حصل الانسان على الانسحاق التام، فالعالم كله، حينئذٍ، يضحي له مراً لا يطاق.
الرجل الصالح يجد أسباباً كافية للتوجع والبكاء.
فإنه، سواءٌ تأمل في نفسه، أم فكر بقريبه، يرى أن ما من أحدٍ يعيش على الأرض بغير شدّة.
وكلما أمعن في التفكير، إزداد توجعاً.
إن لنا، من خطايانا ونقائصنا، مسوّغاً كافياً، للتوجع والانسحاق الداخلي، لأننا منغمسون فيها انغماساً، يكاد لا يمكننا من النظر الى السماويات.

5- لو فكرت في موتك، أكثر من تفكيرك في طول العمر، لكنت، ولا شك، أعظم نشاطاً في إصلاح نفسك.
ولو وزنت، في قلبك، ما في جهنم أو المطهر، من عذابات مستقبلة، لكنت، في يقيني، ترتاح الى احتمال العناء والوجع، ولا تخاف شيئاً من الشدّة.
ولكن بما أن هذه الحقائق لا تنفذ الى قلبنا، بل نحن لا نزال نحب التمليق، فإنا لذلك نبقى باردين كثيري التواني.

6- إن تذمّر الجسد الشقي، لأقل سبب، كثيراً ما يكون عن فاقةٍ في الروح.
فصّل إذن الى الرب بتواضع، ليمنحك روح الانسحاق، وقل مع النبي : «أطعمني، يا ربّ، خبز الدموع، واسقني العبرات سجالاً[31]».

*** ***

الفصل الثاني والعشرون

في اعتبار الشفاء البشري

1- إن لم تتوّجه الى الله، فأنت شقيٌ أينما كنت وحيثما اتجهت.
ما بالك تضطرب، إذا لم تجرِ الأمور وفق إرادتك ومبتغاك ؟
من ذا الذي له كل شيء وفقَ إرادته ؟
لا أنا، ولا أنت، ولا أحدٌ من الناس على الأرض.
ما من أحدٍ في العالم – وإن ملكاً أو بابا – إلا وله شدائد ومضايق.
فمن هو أفضل الناس حالاً ؟
هو، ولا شك، من استطاع معاناة شيء لأجل الله.

2- يقول كثيرون من قليلي الادراك وضعفاء العقول : أنظر ما أرغد عيش هذا الرجل ! ما أغناه وما أعظمه ! ما أقدّره وما أرفع منزلته !
ولكن اعتبر الخيرات السماوية، تر ان تلك الزمنيات كلها ليست بشيء، لأنها أبداً غير راهنة، بل هي بالحري عبءٌ ثقيل، إلا يمكن امتلاكها من غير هموم ومخاوف.
ليست سعادة الإنسان في امتلاك الكثير من الخيرات الزمنية، بل حسبه منها القليل.
حقاً إنه لشقاءٌ العيش على الأرض.
بمقدار ما يريد الإنسان التقدّم في الحياة الروحية، تزداد الحياة الحاضرة مرارة لديه، لأنه، إذ ذاك، يحس إحساساً أدق، ويرى رؤية أجلى، ما في الطبيعة البشرية من نقص وفساد.
فالأكل والشرب، والسهر والرقاد، والراحة والتعب، والخضوع لسائر ضروريات الطبيعة، إن هي حقاً إلا شقاءٌ عظيم، وكربٌ للرجل العابد، الذي يودّ لو يكون حراً، طليقاً من كل خطيئة.

3- فإن رجل الحياة الداخلية، يستثقل جداً، في هذا العالم، ضروريات الجسد.
ولذلك فالنبي يسأل بحرارةٍ أن يعتق منها، قائلاً : «أنقذني من ضروریاتي، يا رب[32]».
ولكن، ألويل للجاهلين شقاءهم ! والويل، خصوصاً، للذين يحبّون هذه الحياة الشقية الفانية !
فإن البعض – على كونهم لا يكادون، بالعمل أو التسول، يحصلون حتى ضروريات معيشتهم – يحبّون هذه الحياة حباً جماً، بحيث إنهم، لو استطاعوا البقاء فيها على الدوام، لما اهتموا البتة بملكوت الله.

4- يا لهم من حمقى عدمت قلوبهم الايمان ! لقد غرقوا في الأرضيات، حتى لا يتذوقون سوى الجسديات.
ولكن، يا لشقائهم عند المنتهى، حين يرون، بحسرةٍ، كم كان ما أحبّوه دنيئاً وعدماً !
أما قدّيسو الله، وجميع أصدقاء المسيح الأوفياء، فإنهم لم يهتموا بمرضاة الجسد، ولا بزهو الحياة، بل كانوا بجميع آمالهم وأمانيهم، يحنون الى الخيرات الأبدية.
ولقد كانوا يسّمون، بكل رغائبهم، الى ما فوق، الى الأمور الباقية غير المنظورة، لئلا يجذبهم حب المنظورات الى الأمور السفلية.

5- لا تضع، يا أخي، ثقتك بالتقدّم نحو الروحيات؛ فالوقت لا يزال متوفراً لك، والفرصة مؤاتية.
لم تريد إرجاء مقصدك الى الغد ؟
قم وابتدئ من ساعتك، وقل : ألآن وقت العمل، ألآن وقت الجهاد، ألآن هو الوقت المناسب لإصلاح السيرة.
إذا انتابتك الشدائد والمضايق، فحينئذٍ أوان الاستحقاق.
«ينبغي لك أن تمرّ في النار والماء، قبل ان تبلغ الى مكان الراحة[33]».
إن لم تقهر نفسك، فلن تنتصر على الرذيلة.
ما دمنا متلبّسين بهذا الجسد الضعيف، لا يمكننا الخلو من الخطيئة، ولا العيش بلا سأم ووجع.
نودّ التخلص من كل شقاء؛ ولكنّ فقداننا البرارة، بالخطيئة، قد أفقدنا أيضاً سعادتنا الحقة.
فعلينا، من ثم، أن نعتصم بالصبر، وننتظر رحمة الله، «الى أن يعبر هذا الأثيم[34]»، ويبتلع المائت بالحياة[35]».

-6 يا للضعف البشري، الجانح أبداً الى الرذائل ! أليوم تعترف بخطاياك، وغداً تعود فتقترف الخطايا التي اعترفت بها.
ألآن تقصد أن تكون على حذر؛ وبعد ساعة، تسلك سلوك من لم يقصد شيئاً.
فكل حقٍ إذن، ينبغي لنا أن نتضع، ولا نتعاظم في شيء البتة، ونحن على هذه الحال من الضعف والتقلب.
فلقد نفقدَ سريعاً، بتوانينا، ما لم نوّفق أخيراً الى تحصيله، إلا بالجهد وبمؤازرة النعمة.

-7 فماذا يكون من أمرنا عند المنتهى، إن نحن بكرّنا هكذا في الفتور ؟
الويل لنا، إن أردنا الإخلاد الى الراحة، كما لو أصبحنا في سلام وطمأنينة، ونحن لم يظهر بعد في سيرتنا أثرٌ للقداسة الحقة !
ولعل الأجدر بنا، أن نعود فنروّض على الأخلاق الفضلى، كمبتدئين صالحي النية، عسى أن يكون لنا ثمة، للمستقبل، بعض الأمل بإصلاح سيرتنا، وبتقدّم روحي أعظم.

*** ***

الفصل الثالث والعشرون

في التأمل في الموت

-1 سينقضي أجلك سريعاً جداً على هذه الأرض. فانظر إذن ما هي حالك : أليوم في الوجود، وغداً ليس من أثر.
وإذا ما توارى الإنسان عن العيون، فسريعاً ما يزول أيضاً من الذهن.
يا للبلادة والغلظة في قلب الإنسان ! فإنه يقصر التفكير على الأمور الحاضرة، ولا يتبصّر بالحريّ في المستقبلة.
فما كان أحراك أن تسلك، في كل عملٍ وفكر، سلوك من كان موشكاً أن يموت اليوم !
لو كان ضميرك صالحاً، لما كنت تخاف الموت كثيراً .
تجنب الخطايا خير من محاولة الهرب من الموت .
إن كنت اليوم غير متأهب، فغداً كيف تكون مستعداً ؟
الغد يومٌ غير راهن؛ وما أدراك انك تحصل على غد ؟

-2 ماذا يفيدنا أن نعمّر طويلاً، ونحن لا نصلح ذواتنا إلا قليلاً جداً ؟
آه ! إنّ طول العمر لا يفيد دائماً الإصلاح، بل كثيراً ما يزيد الخطايا.
ليتنا أحسنّا السيرة، ولو يوماً واحداً، في هذا العالم !
كثيرون يعدّون سني اهتدائهم الى الله ؛ أما الثمارُ في إصلاح ذواتهم، فغالباً ما تكون قليلة.
إن كان الموت هائلاً، فالاستزادة من العمر قد تكون أشد خطراً.
طوبى لمن جعل ساعة موته دائماً نصب عينيه، وأعدّ نفسه كل يوم للموت !
إن رأيت، يوماً، إنساناً يموت، فاذكر أنك أنت أيضاً ستسلك تلك الطريق.

-3 إذا كان الصباح، فاحسب انك لن تبلغ المساء.
وعند المساء، لا تجسر أن تعدّ نفسك بلوغ الصباح.
فكن إذن على استعداد دائم، وعش بحيث لا يجدك الموت أبداً على غير أهبة.
كثيرون يموتون فجأة، وعلى غير ما انتظار، لأن «ابن البشر يأتي في ساعةٍ لا يحسب لها حساب[36]».
ومتى حانت تلك الساعة الأخيرة، جعلت تفكّر في حياتك السالفة تفكيراً مغايراً جداً؛ وإذ ذاك تتوّجع توجعاً شديداً على إفراطك في التهاون والتراخي.

-4 ما أسعد وما أحكم من يجتهد أن يكون الآن، في حياته، كما يشتهي أن يوجد عند مماته!
أما ما يولي الإنسان كبير ثقة بالحصول على ميتةٍ سعيدة، فإنما هو احتقار الدنيا احتقاراً كاملاً، واستعار الشوق الى التقدّم في الفضائل، وحب النظام، ومعاناة التوبة، والاسراع في الطاعة، وإنكار الذات، واحتمال الشدائد، أياً كانت، حباً للمسيح.
ما دمت في العافية، فأنت قادرٌ على كثيرٍ من أفعال الخير؛ فإذا وهنت، فلا ادري ما يسعك فعله.
قليلون يجنون من المرضى إصلاحاً لأنفسهم؛ وكذلك الذين يكثرون من أسفار الحج : فإنهم في النادر يتقدّسون.

5- لا تعتمد على الأصدقاء والأقارب، ولا ترجئ الى المستقبل أمر خلاصك؛ فإن الناس سينسونك بأسرع مما تظن.
خيرٌ لك أن تتدّبر أمورك منذ الآن – والوقت مؤاتٍ – فتبعث أمامك بشيء من الصلاح، من أن تتكل على إسعاف الآخرين.
إن أنت لم تهتم الآن لنفسك، فمن يهتم لك في المستقبل ؟
ألآن الوقت ثمينٌ جداً: «ألآن أيام الخلاص، ألآن وقتٌ مرضي[37]».
ولكن، يا للأسف ! إنك لا تستغله لفائدةٍ أعظم، حال كونك تستطيع أن تستحق به الحياة الى الأبد.
سيأتي زمنٌ تتمنى فيه يوماً واحداً – بل ساعةً واحدة – لإصلاح نفسك؛ ولا أدري هل تحصل على مبتغاك.

6- آه ! أيها الحبيب، ما أعظم المخاطر التي يمكنك التخلص منها، والمخاوف التي تستطيع اتقاءها، لو عشت الآن دوماً في مخافة الموت والتحذّر منه !
فاجتهد أن تعيش الآن عيشة، من شأنها أن توليك، في ساعة الموت، فرحاً لا خوفاً.
تعلم الآن أن تموت عن العالم، لكي تبتدئ حينئذٍ تحيا مع المسيح.
تعلم الآن أن تحتقر كل شيء، لتستطيع الذهاب حينئذٍ، بحريةٍ الى المسيح.
إقمع الآن جسدك بالتوبة، لتستطيع الحصول، حينئذٍ، على ثقة وطيدة.

7- آه ! أيها الغبيّ، علام تفكّر في طول العمر، وليس لك راهناً يومٌ واحد ؟
ما أكثر الذين خدعوا، فانتزعوا من أجسادهم على غير انتظار !
كم مرةٍ سمعت من يقول : فلانٌ قتل بالسيف، وفلانٌ قضى غرقاً؛ هذا سقط من علٍ فاندقت عنقه، وذاك قبض وهو يأكل، وآخر وجد حتفه وهو يلعب؛ الواحد هلك بالنار، والآخر بالسيف، هذا بالوباء، وذاك بفتك اللصوص. وهكذا، فالموت آخرة الجميع، «وحياة البشر كظلٍ تجوز سريعاً[38]».

8- من تراه يذكرك بعد الموت، ومن يصلي لأجلك ؟
فاعمل، أيها الحبيب، اعمل الآن كل ما يمكنك عمله، لأنك لا تعلم متى تموت، ولا تعلم أيضاً عاقبتك بعد الموت.
ما دام لك الوقت، فاذخر لك كنوزاً أبدية.
لا تفكر بغير خلاصك، ولا يكن همك إلا بشؤون الله.
«اصطنع لك الآن أصدقاء»، بإكرامك قدّيسي الله، واقتدائك بأفعالهم، حتى إذا غادرت هذه الحياة، «يقبلونك في المظال الأبدية[39]».

9- أسلك كمغترب على هذه الأرض، ومثل نزيلٍ لا يعنيه شيء من شؤون الدنيا.
إحفظ قلبك حراً مرفوعاً الى الله، إذ «ليس لك ههنا مدينة باقية[40]».
إرفع كل يومٍ، الى العلا، صلواتٍ وتنهدات مع دموع، حتى تؤهل روحك، بعد الموت، أن تعبر الى ربها عبوراً سعيداً. آمين.

*** ***

الفصل الرابع والعشرون

في الدينونة وعقوبات الخطأة

1- في كل شيء تأمل العاقبة، واذكر كيف تقف يوماً أمام الديان الصارم، الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يستعطف بالرّشى، ولا يقبل الأعذار، بل بموجب العدل يقضي.
أيها الخاطئ الشقيُّ الأحمق، بم تجيب الله، العالم بجميع شرورك، وأنت تخشى أحياناً وجه إنسان مغضب.
فلم لا تتدّبر الآن أمرك ليوم الدين، حين لا يمكن أحداً أن يدافع عن غيره، أو ينتصر له، بل كل واحد يكون، من نفسه، عبئاً كافياً على نفسه ؟
ألآن تعبك مثمر، وبكاؤك مرضي، وتنهدك مستجاب، وتوّجعك وفائيٌ ومطهر.

2- إنه لمطهرٌ عظيمٌ وخلاصيّ، مطهر الرجل الصبور، الذي، إن لحق به جور، يتوّجع لخبث فاعله، أكثر مما للظلم اللاحق به، ويصلي بارتياح لأجل معاكسيه.
ويسامح بالاساءات من كل قلبه، ولا يتأخر عن استغفار الآخرين، وهو الى الرحمة أسرع منه الى الغضب.
يكثر من قهر نفسه، ويجتهد في اخضاع الجسد للروح إخضاعاً تاماً.
ألتطهر من الخطايا، واستئصال الرذائل في هذه الحياة، خيرٌ من اذخارها والتكفير عنها في الآخرة.
إنا لنغرّ أنفسنا حقاً، بحبنا الجسد حباً مفرطاً.

3- ما عسى أن تلتهم تلك النار إلا خطاياك ؟ بمقدار ما تشفق الآن على نفسك، وتتبع أهواء الجسد، تزداد شدّةُ عقابك في ما بعد، ويزداد مقدار الوقود، الذي تذخره لتلك النار.
ما خطئ به الإنسان، فيه يكون أشدُّ عقابه:
هناك المتوانون يؤخزون بمناخس محماة، والنهمون يعذبون بشديد العطش والجوع.
هناك أهل الخلاعة ومحبو الذات، يغرقون في زفتٍ مشتعلٍ وكبريتٍ منتن، والحساد يعوون بسبب الوجع، مثل كلاب هائجة.

4- ما من رذيلةٍ، إلا ويكون لها عذابٌ خاص : هناك يمتلئُ المتكبرون خزياً، والبخلاء يضيّق عليهم بالفاقة القصوى.
هناك ساعةٌ واحدةٌ في العذاب، أشدّ من مئة سنة هنا في أشق أعمال التوبة.
هناك لا راحة ولا تعزية للهالكين؛ أما هنا، فقد يستراح أحياناً من التعب، ويتمتع بتعزيات الأصدقاء.
إهتم الآن وتوّجع لخطاياك، لتطمئن مع الطوباويين في يوم الدين.
« حينئذٍ يقوم الصدّيقون بجرأة عظيمة، في وجوه الذين ضايقوهم[41]»، وأذلوهم.
حينئذٍ يقوم للقضاء، من يخضع الآن بتواضعٍ لأحكام البشر.
حينئذٍ يكون للمسكين والمتواضع ثقة عظيمة؛ أما المتكبر، فالهلع يحدق به من كل صوب.

5- حينئذٍ يتضح أنه كان حكيماً في هذه الدنيا، من تعلم أن يكون جاهلاً ومحتقراً لأجل المسيح.
حينئذٍ كل ضيقٍ احتمل بصبرٍ يبدو لذيذاً، «وكل ظلم يسدُّ فمه[42]».
حينئذٍ يفرح كلُّ تقيّ، ويكتئب كل خالٍ من العبادة.
حينئذٍ يبتهج الجسد المقموع بالإماتة، أكثر مما لو غذي في الترف.
حينئذٍ يتلألأ الثوب الحقير، ويكمّد اللباس الناعم.
حينئذٍ يمتدح الكوخ الفقير، أكثر من القصر المغشى بالذهب.
حينئذٍ يكون ثبات الصبر، أجزل نفعاً من كل سلطانٍ في الدنيا.
حينئذٍ تعظم الطاعة البسيطة، أكثر من كل دهاءٍ عالَمي.

6- حينئذٍ يفرح الإنسان بالضمير النقيّ الصالح، أكثر من فرحه بالفلسفة العميقة.
حينئذٍ يرجح ازدراء الغنى، على كنوز الأرض بأسرها.
حينئذٍ تتعزّى لذكر صلاةٍ خاشعة، أكثر مما لذكر أكلةٍ طيبة.
حينئذٍ تفرح بلزومك الصمت، أكثر مما بالثرثرة الطويلة.
حينئذٍ تكون الأعمال المقدّسة، أجزل قيمة من كثرة الكلام المنمّق.
حينئذٍ تستطاب العيشة القشفة، والتوبة الشاقة، أكثر من كل لذةٍ أرضية.
تعلم الآن أن تحتمل آلاماً يسيرة، لتستطيع، حينئذٍ، أن تنجو من آلام تفوقها شدّة.
جرّب هنا، قبلاً، ما تستطيع احتماله في ما بعد.
إن كنت الآن لا تقوى على احتمال ألم طفيف جداً، فكيف يمكنك، حينئذٍ، أن تحتمل العذابات الأبدية ؟
وإن كان الآن أخف ألم يفقدك الصبر الى هذا الحدّ، فما عسى أن تكون لك جهنم حينئذٍ.
حقاً إنه لا يمكنك الحصول على كلا الفرحين : أي أن تنعم في هذه الدنيا، ثم تملك، بعد ذلك، مع المسيح.

7- هب أنك قد عشت عمرك كله، حتى هذا اليوم، في الكرامات والترف؛ فما عسى أن ينفعك ذلك كله، لو اتفق أن تموت الآن فجأة ؟
فكل شيء إذن باطل، ما خلا حبّ الله والتعبّد له وحده.
فمن أحبّ الله بكل قلبه، لا يخشى الموت ولا العذاب، ولا الدينونة ولا الجحيم، لأن الحب الكامل يضمن البلوغ الى الله.
أما من لا يزال يتلذذ بالخطيئة، فلا عجب أن يخشى الموت والدينونة.
على أنه من الحسن، إن كان الحبُّ لا يردعك بعد عن الشر، أن يردعك عنه على الأقل خوف جهنم.

أما من نبذ مخافة الرب، فلا يستطيع الثبات على الصلاح طويلاً، بل سرعان ما يسقط في حبائل إبليس.

*** ***

الفصل الخامس والعشرون

في النشاط لاصلاح سيرتنا كلها

1- كن يقظاً نشيطاً في خدمة الله، وتذكّر مراراً ما حملك على هجر العالم والمجيء الى الدير.
ألم تكن غايتك، أن تحيا لله، وتصبح إنساناً روحياً ؟
فاضطرم إذن رغبة في التقدّم، فإنك ستنال عما قريب ثواب أتعابك؛ وحينئذٍ، لن يكون من بعد خوف ولا وجعٌ في تخومك.
إنك تتعب الآن قليلاً، لكنك ستجد راحة عظيمة، بل فرحاً أبدياً.
إن بقيت أميناً ونشيطاً في العمل، فأيقن أن الله سيكون أميناً وسخياً في المكافأة.
ينبغي لك أن تتمسك بوطيد الرجاء في الحصول على سعف الظفر. ولكن اياك والاخلاد الى الطمأنينة، لئلا تفتر أو تتزّفع.

2- رجلٌ كان في حيرة، يتقلب كثيراً بين الخوف والرجاء ؛
فإذ كان ذات مرة جاثياً في الكنيسة، يصلي أمام أحد المذابح – وقد أثقله الحزن – جعل يردّد في نفسه : لو كنت أعلم هل أستمر على الثبات...
وللوقت، سمع في داخله هذا الجواب الإلهي : لو علمت ذلك، فما كنت تودّ أن تصنع؟ فاصنع الآن ما كنت تريد أن تصنعه حينئذٍ، فتعيش في طمأنينة كاملة.
ففي الحال تعزّى الرجل وتشدّد، وفوّض أمره لمشيئة الله، فزال عنه القلق والتردد ؛
وكفّ عن فضول التقصي في استطلاع مستقبله، وأكبّ بالحريّ يبحث عن «مشيئة الله المرضية الكاملة[43]»، ليبدأ وينجز كل عملٍ صالح.

3- قال النبّي : «توكل على الرب واصنع الخير؛ أسكن الأرض فترعى خيراتها[44]».
أمرٌ واحدٌ يصدُّ الكثيرين عن التقدم، وعن النشاط في إصلاح السيرة : كره المصاعب، أي عناء الجهاد.
فإنّ الذين يسبقون غيرهم في الفضائل، إنما هم خصوصاً أولئك الذين يجتهدون، بشجاعةٍ أعظم، في قهر ما هو أكثر إرهاقاً ومعاكسةً لهم.
فإنه حيثما يزداد قهر الإنسان لنفسه، وإماتتها بالروح، يزداد تقدّمه، واستحقاقه لنعمٍ أوفر.

4- ولكنّ ما يجب قهره وإماتته ليس متساوياً عند الجميع.
بيد أنّ الرجل النشيط الغيور – وإن كثرت أهواؤه – يكون أقدر على التقدم، من آخر حسن الأخلاق، ولكن أقل نشاطاً الى تحصيل الفضائل.
أمران خصوصاً يفيدان لإصلاح عظيمٍ في السيرة : ألإقلاع بعنفٍ عما تميل اليه الطبيعة الفاسدة، والعكوف بنشاط على تحصيل الفضيلة، التي يحتاج اليها بالأكثر.
إجتهد أيضاً أن تتجنب وتقهر بنوع خاص، الرذائل التي تسوؤك غالباً في الآخرين.

5- إغتنم، في كل شيء، فرصة لتقدمك، حتى إذا رأيت أو سمعت بأمثلةٍ صالحة، تضطرم رغبة في أن تقتدي بها.
ولكن، إذا رأيت ما يستحق اللوم، فاحذر أن تفعل مثله.
وإن كنت قد فعلته في الماضي، فاجتهد في إصلاحه بسرعة.
كما أن عينك تراقب الآخرين، كذلك الآخرون أيضاً يراقبونك.
ما ألذ وما أعذب رؤية إخوةٍ ورعين، مضطرمين في العبادة، ذوي أخلاق طيبة، يحافظون على القوانين !
ما آلم وما أثقل رؤية الذين يعيشون على غير نظام، ولا يمارسون الواجبات التي انتدبوا لها !

كم يضرّنا أن نهمل ما دعينا اليه، وأن نحوّل أفكارنا الى أمور لم يعهد الينا فيها !

6- تذكر ما قطعت عليه العزم، واجعل أمامك صورة المصلوب.
إذا تأملت في سيرة يسوع المسيح، وجب عليك أن تخجل، لأنك، الى الآن، لم تجتهد كثيراً في تصوير نفسك على مثاله، وقد مضى عليك زمنٌ طويل، مذ انتهجت طريق الله.
إن الراهب الذي يروّض نفسه على التأمل، بجدٍ وتقوى، في حياة الرب وآلامه القدوسة، ليجد بوفرةٍ، في تلك التأملات، ما هو نافعٌ وضروريٌ له، ولا حاجة به أن يطلب، خارجاً عن يسوع، شيئاً آخر أفضل منه.
آه ! لو دخل قلبنا يسوع المصلوب، فما أسرع ما كان يعلمنا العلم الكافي !

7- الراهب المضطرم النشاط، يقبل ويتمم، بطيبة نفس، كل ما يؤمر به.
أما الراهب المتهاون الفاتر، فنصيبه شدّة على شدّة، والضيق يكتنفه من كل جهة، لأنه خال من التعزية في داخله، ومحظورٌ عليه التماسها من الخارج.
الراهب الحائد عن قوانينه، معرّض لسقوط عظيم.
من طلب عيشة أكثر رخاءً وأقل عناءً، فهو أبداً في ضيق، إذ لا بدّ أن يسوءه هذا الشيء أو سواه.

8- كيف يعمل سائر الرهبان – وما أكثرهم ! – ألمضيّق عليهم تضييقاً شديداً بقوانين الديورة ؟
إنهم قلما يبرحون حجرهم، بل يعيشون في الخلوة، يأكلون كأفقر الناس، ويلبسون خشن الثياب؛ يشتغلون كثيراً، ويتكلمون قليلاً؛ يسهرون طويلاً، وينهضون باكراً؛ يطيلون في الصلوات، ويكثرون من القراءة، ويحافظون في كل شيء على القوانين.
أنظر الى الكرتوزيين والشسترسيين، والى سائر الرهبان والراهبات من مختلف الرهبانيات، كيف ينهضون كل ليلةٍ لتسبيح الرب.
فمن العار أن تجسر على التكاسل في مثل هذا الوقت المقدّس، الذي تبدأ فيه جماهير الرهبان بالإشادة لله.

9- آه ! لو لم يكن علينا من واجبٍ، سوى تسبيح الرب إلهنا بكل القلب والفم !
آه ! ليتك لم تكن بحاجةٍ الى الأكل والشرب والنوم، فتستطيع أن تسبّح الله على الدوام، وتنقطع الى الرياضات الروحية ! إذن لكنت أسعد، بكثير، مما أنت عليه الآن من تعبّدٍ للجسد وحاجاته المختلفة.
ليت تلك الحاجات لم تكن، فنقصر همنا على قوت النفس الروحي، الذي لا نتذوقه – واأسفاه ! – إلا في القليل النادر !

10- إذا أصبح الانسان من الكمال، بحيث لا يلتمس تعزيته من خليقةٍ البتة، فحينئذٍ يبدأ يذوق الله تماماً، وحينئذٍ أيضاً يكون راضياً جداً، كيفما جرت الأمور.
حينئذٍ لا يفرح بالكثير، ولا يحزن بالقليل، بل يسلم نفسه تسليماً كاملاً مفعماً بالثقة، في يدي الله، الذي يكون له كلا في كل شيء، والذي لا شيء يزول عنده أو يموت، بل كل شيء يحيا له، ويطيع إشارته من غير ما إبطاء.

11- أذكر دائماً المنتهى، وأن لا عودة لزمن ذهب ضياعاً.
إنك لن تحصّل الفضائل أبداً، من غير اهتمام ونشاط .
إذا أخذت في الفتور، أخذت حالك تسوء.

أما إن استسلمت لحرارة العبادة، فإنك تجد سلاماً عظيماً، وتشعر بأتعابك قد خفّت، بفضل نعمة الله، وحب الفضيلة.
الرجل الحار النشيط، مستعدٌ لكل شيء.
إن مقاومة الرذائل والأهواء، لأشد عناء من الكدّ في الأتعاب الجسدية.

«من لا يتجنب الصغائر، يزلق شيئاً فشيئاً نحو الكبائر[45]».
إنك لتفرح دوماً عند المساء، إذا قضيت نهارك في عمل مثمر.
إسهر على نفسك، حرّض نفسك، عظ نفسك؛ ومهما يكن من أمر الآخرين، فلا تهمل أنت أمور نفسك.
بقدر ما تقهر نفسك، تتقدّم. آمين.

*** ***

السفر الثاني

نصائح تقود الى الحياة الداخلية

« في الصليب الخلاص، في الصليب الحياة، في الصليب الحماية من الأعداء، في الصليب فيضان العذوبة العلوية، في الصليب قوة النفس، في الصليب فرح الروح، في الصليب تمام الفضيلة، في الصليب كمال القداسة.»
(2 اقتداء 12: 2)

*** ***

الفصل الأول

في الحياة الداخلية

1- « إن ملكوت الله في داخلكم[46]»، يقول الرّب.
«تُب الى الرب بكل قلبك[47]»، واترك هذا العالم الشقي، فتجد نفسك الراحة.
تعلم أن تحتقر الأمور الخارجية، وتنقطع الى الداخلية، فترى ملكوت الله يحل فيك.
فإن «ملكوت الله سلامٌ وفرحٌ في الروح القدس[48]»، والكفرة لا يمنحونه.
إن أنت أعددت للمسيح في داخلك مقاماً لائقاً، فإنه يأتي اليك ويريك تعزيته.
«جميع مجده وبهائه من الداخل[49]»، وهناك مسرّته.
يكثر الافتقاد لذي الحياة الداخلية : فيحادثه بعذوبة، ويعزيه بلطف، ويفيض فيه سلاماً عظيماً، ويعامله بألفة عجيبة جداً.

2- هيّا ! هيّا ! أيتها النفس الأمينة، أعدي قلبك لهذا العروس، لكي يرتضي أن يجيء اليك، ويسكن فيك.
فإنه هكذا يقول : «إن أحبني أحدٌ، يحفظ كلمتي، واليه نأتي، وعنده نجعل مقامنا[50]».
فأخل المكان إذن للمسيح، وارفض الدخول لكل من سواء.
إن حصلت على المسيح، فأنت غنيٌ، وهو حسبك.
هو عائلك الأمين، يهتم لك بجميع شؤونك، فلا تبقى بك حاجةٌ الى الاتكال على البشر.
فالناس يتغيّرون سريعاً، وبغتة يتخلون عنك؛ أما «المسيح، فيدوم الى الأبد[51]»، ويستمر ثابتاً بقربك حتى المنتهى.

3- لا ينبغي لك أن تعتمد كثيراً على إنسان ضعيف مائت – وإن نافعاً لك وعزيزاً عليك – ولا أن تغتم كثيراً، إذا قاومك أحياناً أو عاكسك.

من كان اليوم معك، فقد ينقلب غداً عليك؛ والعكس بالعكس، فإن الناس كثيرو التقلب كالريح.
ضع ثقتك كلها في الله، وليكن هو خوفك وحبك : هو يدافع عنك، ويفعل حسناً ما هو الأحسن لك.
«ليس لك ههنا مدينةٌ باقية[52]»؛ وحيثما كنت، فأنت سائح غريب، ولن تحصل أبداً على الراحة، ما لم تتحد بالمسيح اتحاداً صميماً.

4- ما بالك تجيل النظر في ما حولك، وليس هنا مكان راحتك ؟
في السماوات يجب أن تكون سكناك؛ أما الأرضيات جميعها، فينبغي ألا تنظر اليها إلا كعابر سبيل.
كل الأشياء الى الزوال، وأنت أيضاً ستزول معها.
حذار أن تتعلق بها لئلا تصطاد فتهلك.
لتكن أفكارك موّجهة الى العليّ، وتضرعاتك الى المسيح بلا انقطاع.
إن كنت لا تحسن التأمل في الأمور العميقة والسماوية، فاسترح في آلام المسيح، وأحبب السكنى في جراحه المقدّسة.
فإنك إن لجأت بتقوى الى جراح يسوع وسماته الكريمة، شعرت بقوةٍ عظيمة في المضايق، ولم تعد تبالي كثيراً بازدراء الناس، وهان عليك أن تحتمل كلام المغتابين.

5- فالمسيح أيضاً قد ازدراه الناس حين كان في العالم؛ وفي أقصى الشدّة، وما بين التعييرات، تخلى عنه معارفه وأصدقاؤه.
المسيح قد أراد أن يتألم ويزدرى، وأنت تجسر على التشكي من شيء ما ؟
المسيح كان له أضدادٌ وثلابون، وأنت تريد أن يكون لك الجميع أصدقاء ومحسنين .
بم يكلل صبرك، إن لم يعرض لك أدنى شدّة ؟
وإن لم ترد احتمال معاكسة ما، فكيف تكون صديق المسيح ؟
احتمل مع المسيح ومن أجل المسيح، إن شئت أن تملك مع المسيح.

6- لو ولجت مرة واحدة الى أقصى دواخل يسوع، وتذوقت شيئاً يسيراً من حبه المتأجج، إذن لما باليت البتة بما يريحك أو يزعجك، بل بالحريّ لفرحت باحتمال التعييرات، لأن حب المسيح يحمل الإنسان على احتقار نفسه.
من كان محباً ليسوع وللحقيقة، وكان حقاً رجل حياةٍ داخلية، طليقاً من الأميال المنحرفة، فإنه يستطيع أن يتجه بحرية الى الله، ويسمو بالروح فوق نفسه، ويستريح متنعماً.

7- من حكم في جميع الأشياء كما هي في ذاتها، لا كما يقال فيها، فذاك هو الحكيم حقاً، وعلمه من الله لا من الناس.
من عرف أن يحيا حياة داخلية، ولم يعر الأمور الخارجية كبير اهتمام، فإنه لا يتطلب الأمكنة، ولا ينتظر الأزمنة، ليمارس رياضاته التقوية.
إن رجل الحياة الداخلية يجمع حواسه وأفكاره بسرعة، لأنه لا ينصب أبداً بجملته على الأمور الخارجية.
لا يعوقه العمل الخارجي، ولا المهام التي تقتضيها الساعة، بل كما تجري الأمور يجاريها.
من كان في داخله حسن الاستعداد، سليم الطوية، فإنه لا يكترث للحميد أو القبيح من أعمال الناس.
يعاق الإنسان ويتشتت، بمقدار ما يجلب لنفسه من العوائق.

8- لو كنت على ما ينبغي من الاستقامة والنقاوة، لعاد عليك كل شيء بالخير والفلاح.
إن كان ثمة أمورٌ كثيرةٌ تسوءك وتقلقك، فما ذاك إلا لكونك لم تمت بعد عن نفسك موتاً تاماً، ولم تنفصل عن جميع الأرضيات.
لا شيء يأسر قلب الانسان ويدّنسه، مثل حب الخلائق الفاسد.
إن أبيت التعزية من الخارج، استطعت التأمل في السماويات، وتكاثرت لك البهجة الداخلية.

***** *****

السفر الثاني

في الخضوع بتواضع

1- لا تهتم كثيراً في من معك أو من عليك، بل في هذا اجعل همك واجتهادك : أن يكون الله معك في كل ما تعمل.

كن صالح الضمير فينصرك الله.
فإنّ من شاء الله أن ينصره، لا يقوى خبث أحدٍ على مضرّته .
إن عرفت أن تتألم وتصمت، فأيقن أنك سترى معونة الرّب.
فإنه يعرف متى وكيف ينقذك، وما عليك من ثم إلا أن تستسلم له.
إن لله النصرة والانقاذ من كل خزي.
كثيراً ما ينفعنا جداً، لحفظنا في تواضع أعظم، أن يعرف الآخرون عيوبنا ويبكتونا عليها.

-2 إذا اتضع الإنسان بسبب نقائصه، هان عليه تهدئة الآخرين، واسترضاء الساخطين عليه.
أله يحمي المتواضع وينقذه، يحب المتواضع ويعزيه.
للمتواضع ينعطف، وللمتواضع يجزل النعمة، وبعد خفضه يرفعه الى المجد.
للمتواضع يكشف أسراره، يدعوه اليه ويجذبه بعذوبة.
المتواضع، وإن لحق به الخزي، يستمر في سلام، لأنه بالله يعتصم لا بالدنيا.
لا تظن أنك أحرزت بعض التقدّم، إن لم تحسب نفسك دون الجميع.

*** ***

الفصل الثالث

في الانسان الصالح المسالم

-1 إحفظ نفسك أولاً في سلام، وحينئذٍ تستطيع أن تبث السلام في الآخرين.
الإنسان المسالم أكثر نفعاً من العلامة.
رجل الهوى يتأوّل الخير نفسه والشر يصدّقه بسهولة.
أما الإنسان الصالح المسالم، فيحوّل كل شيء الى الخير.
من كان موطداً في السلام، لا يسيء الظن بأحد؛ أما الذي في الكدر والقلق، فإنه مضطرب بمختلف الظنون.
فلا هو في راحة، ولا يدع الآخرين في راحة.
يتكلم غالباً عما لا ينبغي التكلم عنه، ويهمل ما كان الأجدر به أن يفعله.
يراقب ما يجب على الآخرين فعله، ويغفل ما يجب عليه هو أن يفعل.
لتكن غيرتك أولاً على نفسك، وحينئذٍ تحق لك الغيرة على قريبك.

-2 إنك لتجيد في تمويه أعمالك والاعتذار عنها، لكنك تأبى أن تقبل أعذار الأخرين.
ولقد تكون أكثر إنصافاً، لو شكوت نفسك وعذرت أخاك.
إن شئت أن يحتملك الآخرون، فاحتملهم أنت أيضاً.
أنظر ما أبعدك، حتى الآن، عن المحبة والتواضع الحقيقي، الذي لا يعرف أن يغضب أو يسخط، إلا على نفسه.
ليس بأمر عظيم العيش مع الصلاح والودعاء : فالجميع من طبعهم، يستحبّون ذلك، والجميع يرتاحون الى السلام، فيؤثرون من يوافقهم في الآراء ؛
أما استطاعة العيش بسلام، مع قومٍ عنفٍ أردباء، دأبهم المعاكسة والخروج على القانون، فذلك نعمةٌ عظيمة، وعمل مروءةٍ جدير بثناء جزيل.

-3 من الناس من هم في سلامٍ، مع أنفسهم ومع الآخرين.
ومنهم من ليسوا في سلامٍ، ولا يدعون غيرهم في سلام ؛
فهم ثقلاء على الآخرين، وأكثر ثقلاً على أنفسهم.
من الناس أيضاً من يحفظون أنفسهم في سلام، ويسعون في إعادة السلام للآخرين.
على أن سلامنا كله في هذه الحياة الشقية، إنما هو قائمٌ بالاحتمال والتواضع، لا بعدم الشعور بالمعاكسات.

فمن كان أكثر صبراً، كان أوفر سلاماً، إذ هو هو السائدُ على نفسه، هو سيّد العالم، وصديق المسيح، ووارث السماء.

*** ***

الفصل الرابع

في طهارة النفس وخلوص النية

1- بجناحين يرتفع الإنسان عن الأرضيات : بالخلوص والطهارة.
فالخلوص واجبٌ في النية، والطهارة في العاطفة.
الخلوص يقصد الله، والطهارة تدركه وتتذوّقه.
ليس من عملٍ صالح يعوقك، إن كنت، في داخلك، حراً من الأميال المنحرفة.
إن كنت لا تقصد ولا تطلب سوى مرضاة الله ونفع القريب، فإنك تتمتع بالحرية الداخلية.
لو كان قلبك مستقيماً، لأضحت لك كل خليقةٍ مرآة حياة، وكتاب تعليم مقدّس.
إذ ما من خليقةٍ، مهما صغرت وحقرت، إلا وتمثل جودة الله.

2- لو كنت في داخلك صالحاً طاهراً، لرأيت كل شيء وأدركته من غير ما عائق؛ فإن القلب الطاهر يخترق السماء والجحيم.
كل يقضي في ظواهر الأمور، بحسب ما انطوت عليه سريرته.
إن كان فرحٌ في الدنيا، فهو، بلا مراء، نصيبُ الرجل الطاهر القلب.
وإن كان، في موضعٍ ما، شدّةٌ أو ضيق، فليس أعرف بهما من الضمير الشرير.
كما أن الحديد يفقد في النار صدأه، ويصبح كله متوهجاً، كذلك الإنسان التائب الى الله توبة كاملة، يخلع عنه الفتور، ويتحوّل الى إنسان جديد.

3- إذا أخذ الإنسان في الفتور، أصبح يخاف من أقل عناء، ويرتاح لاستمداد التعزية الخارجية.
أما إذا بدأ يقمع نفسه قمعاً كاملاً، ويسير بشجاعةٍ في سبل الله، فحينئذٍ يستخف ما كان يجد من قبل ثقيلاً.

*** ***

الفصل الخامس

في تبصر الانسان نفسه

1- لا يمكننا الوثوق كثيراً بأنفسنا، إذ كثيراً ما تنقصنا النعمة والبصيرة.
ضئيل النور الذي فينا، وسرعان ما نفقده بتعاوننا.
وفي الغالب أيضاً، لا ندرك كم نحن عميانٌ في دواخلنا.
كثيراً ما نسيءُ العمل، ثم نعتذر عنه بما هو شرٌّ منه.
إن الأهواء هي التي تحركنا أحياناً، ونحن نحسبها غيرة.
نلوم الآخرين على هفواتٍ صغيرة، ونحن نتجاوز عن ذنوبٍ فينا أفظع منها.
إن ما نحتمله من الآخرين، سرعان ما نستعظمه ونتأثر له؛ أما ما يحتمله الآخرون منا – وما أكثره! – فلا نأبه له.

من وزن أعماله بدقةٍ وانصاف، لم يبق له ما يحكمُ به بقسوةٍ على الآخرين.

2- رجل الحياة الداخلية، يقدّم الاهتمام بنفسه على كل اهتمام آخر؛ ومن اهتم اهتماماً جدياً بشؤون نفسه، هان عليه الصمت عن شؤون الآخرين.
إنك لن تصبح أبداً رجل عبادة وحياةٍ داخلية، ما لم تصمت عن شؤون الآخرين، وتنعم النظر في نفسك.
إن تفرّغت لنفسك ولله تفرغاً تاماً، فقلما تتأثر لما تراه في الخارج.
أين أنت حين تغيب عن نفسك ؟ وإذا استقريت كل شيء وغفلت عن نفسك، فما المنفعة؟
ان ابتغيت السلام والاتحاد الحقيقي بالله، فعليك أن تنبذ كل شيء وراء ظهرك، ولا تضع نصب عينيك سوى نفسك.

3- إنك لتتقدّم كثيراً، إن حفظت نفسك خالياً من كل اهتمام زمني.
لكنك تتقهقر جداً، إن أكبرت شيئاً من الزمنيات.
لا تحتسب عظيماً، أو سامياً أو شهياً، أو جديراً بالقبول، إلا الله وحده، أو ما كان من الله.
وكل تعزية تأتيك من إحدى الخلائق، فاحتسبها باطلة.
فالنفس المحبة لله، تحتقر كل ما هو دون الله.
ليس سوى الله أزليٌّ عظيم، مالئٌ كل شيء؛ وهو حده تعزية النفس، وفرح القلب الحقيقي.

*** ***

الفصل السادس

في فرح الضمير الصالح

1- «فخر الرجل الصالح، شهادة ضميره الصالح[53]» كن صالح الضمير، تتمتع بفرح دائم.
ألضمير الصالح يستطيع احتمال شدائد كثيرةٍ جداً، وفي وسطها لا يبرحه الفرح الجزيل.
أما الضمير الشرير، فمتخوفٌ مضطربٌ على الدوام.
ما أعذب راحتك، إن كان قلبك لا يبكتك! لا تفرح إلا إذا أحسنت الصنيع.
ليس للأشرار فرحٌ حقيقي؛ وهم لا يشعرون أبداً بالسلام الداخلي، لأنه «لا سلام للكفرة، يقول الرب[54]».
فإن قالوا : «نحن في سلام، ولا تحل بنا الشرور[55]»، ومن يجسر أن يضرّنا؟ - فلا تصدّقهم، لأن غضب الله يثور بغتة فتتلاشى أعمالهم، وتهلك تدابيرهم[56]».

2- ألافتخار بالضيق ليس صعباً على المحب، لأن افتخاراً كهذا إنما هو «افتخار بصليب الرب[57]».
قصيرٌ المجد الذي يتبادله البشر في ما بنيهم، ومجد العالم لا يخلو أبداً من الكآبة.
مجد ذوي الصلاح في ضمائرهم، لا في أفواه الناس.
مسرّة الصدّيقين من الله وفي الله، وفرحهم من الحقيقة.
من رام المجد الحقيقي الأبدي، لا يأبه للزمنيّ.
ومن طلب المجد الزمني، أو لم يحتقره بكل قلبه، فقد أظهر قلة حبه للسماويّ.
إنه لفي طمأنينة قلبٍ عظيمة، من لا يبالي بالمديح ولا المذمة.

3- نقيُّ الضمير يقنع ويتدع بسهولة.
إنك لا تزداد قداسة إن مدحت، ولا حقارةً إن ذممت.
أنت ما أنت، ولا يمكن أن تحسب أعظم مما أنت عليه في حكم الله.
إن اعتبرت ما أنت عليه في داخلك، فلا تبالي بما يقول فيك الناس.

«ألانسان الى الوجه ينظر، أما الله فإلى القلب[58]».
ألإنسان يلتفت الى الأعمال، أما الله فيزن النيّات.
حسن الصنيع دوماً مع استصغار الذات، هو علامة النفس المتواضعة.
رفض التعزيات من كل خليقة، دليلٌ على طهارةٍ عظيمة وثقة داخلية.

4- من لا يطلب لنفسه شهادة من الخارج، يوضع أنه قد استسلم لله استسلاماً كاملاً ؛
إذ «ليس من وّصى بنفسه هو المزكى، بل من وّصى به الله[59]»، على ما قال بولس المغبوط.
فالسلوك مع الله في الداخل، والتحرّر من كل ميلٍ في الخارج، تلك هي حال الإنسان الداخلي.

*** ***

الفصل السابع

في محبة يسوع فوق كل شيء

1- طوبى لمن يدرك ما هو حبُّ يسوع، واحتقار الذات من أجل يسوع !
عليك أن تهجر كل حبيب من أجل هذا الحبيب، لأن يسوع يريد أن يحب وحده فوق كل شيء.
حبّ الخليقة خداعٌ لا يدوم، أما حب يسوع فوفيٌ ثابت.
من علق بخليقة واهيةٍ سقط معها؛ ومن اعتنق يسوع يثبت الى الأبد.
أحبب وصادق من لا يخذلك إذا ارتدّ عنك الجميع، ولا يدعك تهلك عند المنتهى.
لا بدّ لك أن تنفصل يوماً عن الجميع، شئت أم أبيت.

2- كن في حياتك ومماتك بقرب يسوع، وسلم نفسك الى أمانته، فإنه وحده قادرٌ أن ينصرك إذا تخلى عنك الجميع.
من طبع حبيبك أن لا يرضى له بشريك، بل يريد أن يكون قلبك ملكاً له وحده، بجلس فيه كملك على عرشه الخاص.
لو عرفت أن تخلي نفسه من كل خليقة، لارتاح يسوع الى مساكنتك.
إن ما تضعه في الناس خارجاً عن يسوع، يكاد كله يذهب ضياعاً.
لا تعتمد ولا تتوكأ على قصبةٍ تعبث بها الريح، «فإن كل بشرٍ عشب، وكل مجده يسقط كزهر العشب[60]».

3- إن أنت قصرت النظر على ظواهر الناس، خدعت سريعاً.
فإن طلبت لك في الآخرين تعزية وربحاً، فلست بواجدٍ، في الغالب، سوى الخسران.
وإن طلبت يسوع في كل شيء، فإنك واجدٌ يسوع بلا مراء.
أما إذا طلبت نفسك، فإنك واجدها أيضاً، ولكن لهلاكك.
فالإنسان، إن لم يطلب يسوع، يكون أعظم إضراراً بنفسه، من جميع أضداده ومن العالم كله.

*** ***

الفصل الثامن

في صداقة يسوع ومؤالفته

-1 إذا كان يسوع حاضراً، فكل شيء مستحب، ولا شيء يبدو عسيراً؛ فإذا تغيب يسوع، فكل شيء يكون ثقيلاً.
إن لم يتكلم يسوع في الداخل، فالتعزية تافهة؛
فإن نطق بكلمة واحدة، شعر الإنسان بتعزيةٍ عظيمة.

ألم تقم مريم المجدلية، في الحال، من الموضع الذي كانت تبكي فيه، حينما قالت لها مرتا: «ألمعلم حاضرٌ وهو يدعوك[61]» ؟
ما أسعد الساعة، التي يدعوك فيها يسوع من الدموع الى فرح الروح !
ما أجفّك وأشد يبوستك بدون يسوع !
ويا لغباوتك وبطلان رأيك، إن اشتهيت شيئاً آخر غير يسوع !
أليس ذلك خسارةً لكَ، أعظم مما أن تفقد العالم بأسره ؟

-2 ماذا يستطيع العالم أن يعطيك بدون يسوع ؟
ألعيش بدون يسوع جحيم لا تطاق؛ أما العيش مع يسوع، فنعيمٌ عذب.
إن كان يسوع معك، فلا عدوّ يستطيع مضرّتك.
من وجد يسوع، فقد وجد كنزاً ثميناً، بل خيراً يفوق كل خير.
ومن خسر يسوع، فخسارته عظيمة، بل أعظمُ، بكثير، مما لو خسر العالم بأسره.
إنه لفقيرٌ جداً من عاش بدون يسوع، وغنيٌّ كل الغنى من عاش هانئاً في صحبة يسوع.

-3 علمٌ عظيمٌ معاشرة يسوع، وحكمةٌ ساميةٌ معرفة الإقامة معه.
كن متواضعاً مسالماً، يقم يسوع معك.
كن تقياً ومطمئناً، فيمكث يسوع معك.
سرعان ما تنفر يسوع وتخسر نعمته، إن شئت الانصراف الى الأمور الخارجية.
وإن أنت نفرته وفقدته، فإلى من تلجأ حينئذٍ ؟ ومن تلتمس لك صديقاً ؟
لا يمكنك العيش سعيداً بدون صديق؛ وإن لم يكن يسوع صديقاً لك فوق الجميع، فإنك تكون في كآبةٍ ووحشةٍ عظيمة.
فمن الغباوة إذن، أن تجعل ثقتك أو مسرّتك في أحدٍ غيره.
والأجدر بك أن تؤثر عداوة العالم بأسره، على اسخاط يسوع.
فليكن إذن يسوع وحده حبيبك الخاص، من بين أحبائك جميعاً.

-4 ليحبّ الجميع من أجل يسوع؛ أما يسوع، فمن أجل ذاته.
فإن يسوع المسيح وحده جديرٌ بهذا الحب الخاص، لأنه وحده صالحٌ أمينٌ دون جميع الأصدقاء.
فيه ومن أجله أحبب الأصدقاء والأعداء؛ ولأجلهم جميعاً تضرع اليه، لكي يعرفوه جميعهم ويحبوه.
لا تشته البتة أن تخص بمدحٍ أو محبة، فإن ذلك لله وحده، وليس له من نظير.
لا ترغبن أن تشغل قلب أحدٍ، وأنت لا يشغلنك حب أحد، بل فليكن يسوع فيك وفي كل إنسان صالح.

-5 كن طاهر القلب، حراً، خالياً من كل تعلق بالخلائق.
إن شئت أن تكون حراً، وتتذوق ما أطيب الرّب، فعليك أن تتجرد من كل شيء، وتحمل الى الله قلباً طاهراً.
ولكن، إن لم تبادر نعمته وتجتذبك، فإنك لن تستطيع أن تتجرّد عن جميع الأشياء وتطرحها، وتتحد أنت وحدك به وحده.
فالإنسان متى أتته نعمة الله، أصبح قادراً على كل شيء؛ فإذا بارحته، أصبح فقيراً ضعيفاً، كأنه لم يترك إلا للضربات.

فعليه، حتى في هذه الحال، أن لا يفشل أو يقنط، بل أن يستسلم بطمأنينة لمشيئة الله، ويتحمل، لمجد يسوع المسيح، كل ما ينزل به، لأنه بعد الشتاء يأتي الصيف وبعد الليل يعود النهار، وبعد العاصفة هدوءٌ عظيم.

*** ***

الفصل التاسع

في حرمان كل تعزية

1- ليس بالصعب احتقار التعزية البشرية، إن وجدت الالهية ؛
بل العظيم، والعظيم جداً، أن يطيق الانسان حرمان كلتا التعزيتين : البشرية والالهية، وأن يصبر على وحشة القلب بطيبة نفس، إكراماً لله، وأن لا يطلب ذاته في شيء البتة، ولا يلتفت الى استحقاقاته الخاصة.
هل من عظيم في ان تكون متهللاً عابداً حين إقبال النعمة ؟ - إنها لساعةٌ يتمناها الجميع.
عذبٌ المسير على من حملته نعمة الله.
وأي عجب في أن لا يشعر بحمله، من حمله القدير، وقاده المرشد الأعظم ؟

2- إنا لنرتاح الى شيء يعزينا؛ والانسان قلما يتجرّد من نفسه بغير صعوبة.
إن القديس الشهيد لورنتيوس، في ما جرى له مع أسقفه، قد تغلب على العالم، لأنه أعرض عن كل ما يبدو مستلذاً في العالم، واحتمل بوداعة، حباً للمسيح، أن يقصى عنه سكتس كاهن الله الأعظم، الذي كان هو يحبه حباً جماً ؛
فغلب حب البشر بحب الخالق، وآثر مرضاة الله على التعزية البشرية.
فهكذا تعلم أنت أيضاً، أن تتخلى، حباً لله، عن صديقٍ قريبٍ اليك وعزيزٍ عليك، ولا تغتم إن هجرك الصديق، بل اعلم أنه لا بدّ لنا جميعاً أن ننفصل أخيراً بعضنا عن بعض.

3- على الإنسان أن يجاهد كثيراً وطويلاً في داخله، قبل أن يتعلم كيف ينتصر على نفسه تمام الانتصار، ويوّجه الى الله جميع عواطفه.
ان اعتمد الانسان على نفسه، جنح بسهولةٍ الى التعزيات البشرية.
أما محبُّ المسيح الحقيقي، ألساعي وراء الفضائل بنشاط، فلا يتهافت على التعزيات، ولا يطلب مثل تلك العذوبات الحسية، بل بالحري الجهادات الصعبة، وتحمل المتاعب الشديدة، من أجل المسيح.

4- فإذا منحكم الله تعزية روحية، فاقبلها بشكر؛ ولكن اعلم انها عطيةٌ من الله، لا حقٌ لك.
لا تترّفع، ولا تبطر، ولا يأخذك العجب الباطل، بل كن بالحريّ، بسبب العطية، أكثر تواضعاً وحذراً وخوفاً في جميع أعمالك، لأن تلك الساعة ستجوز، وتعقبها التجربة.
إذا رفعت عنك التعزية، فلا تنقط في الحال، بل انتظر الافتقاد السماوي بتواضعٍ وصبر، لأن الله قادرٌ أن يعود فيمنحك تعزية أعظم.
وما ذلك بالجديد ولا بالغريب، عند الذين خبروا طريق الله، فإن أعاظم القديسين، والأنبياء الأقدمين، كثيراً ما عرفوا مثل هذا التقلب.

5- لذلك قال أحدهم – والنعمة حاضرةٌ لديه - : « أنا قلت في رغدي : لن اتزعزع الى الأبد[62]».
ولكنه، عند انصراف النعمة، أردف معبّراً عما شعر في داخله : «حوّلت وجهك عني، فصرت مرتاعاً[63]» ؛
على أنه، في ارتياعه هذا، لا يقنط أبداً، بل يبتهل الى الرب بإلحاح أعظم، قائلاً : «اليك أيها الرب أصرخ، إليك يا الهي أتضرّع[64]» ؛
فجنى أخيراً ثمرة صلاته، وشهد أن قد استجيب له فقال : «استمع الرب ورحمني، ألرب كان لي ناصراً[65]» ؛
ولكن في أي شيء ؟ - فيقول : «لقد حولت ندبي الى فرح، ونطقتني بالسرور[66]».
فإن كان أعاظم القديسين قد عوملوا بمثل ذلك، فعلينا ألا نقنط نحن الضعفاء المساكين، إن كنا حيناً في الحرارة وحيناً في البرودة، لأن الروح يجيءُ ويذهب بحسب مرضاة مشيئته.
ولذلك قال أيوب المغبوط :« تفتقده كل صباح، وفي الحال تمتحنه[67]».

6- فبأي شيء إذن أنوط رجائي، أم على أي شيء أتوكل، إلا على رحمة الله العظمية، وعلى رجاء النعمة السماوية ؟
فإنه سواءٌ عشت بين قوم صالحين، أم عاشرت إخوة أتقياء أو أصدقاء أوفياء، أم قرأت كتباً مقدّسة أو أبحاثاً بديعة، أم سمعت ترانيم عذبة وأناشيد، فقلما ينفعني كل ذلك، وقلما أتذوقه، إن كنت في وحشةٍ من نعمتك، متروكاً في مسكنتي الخاصة.
فليس لي حينئذٍ دواءٌ أنجع من الصبر، والاستسلام لمشيئة الله.

7- إني لم أجد قط أحداً قد أصبح من العبادة والتقوى، بحيث لا تنقطع عنه النعمة أحياناً، أو لا يشعر بنقص في الحرارة.
ما من قديس تسامى في الانخطاف والاستنارة، إلا وقد جرّب من قبل أو من بعد.
ليس أهلاً لمشاهدة الله السامية، من لم يبتل ببعض المضايق من أجل الله.

فإن التعزية اللاحقة، إنما علامتها، عادةً، تجربة سابقة.
إذ المبتلون بالتجارب، هم الذين قد وعدوا بالتعزية السماوية : فلقد قال الرب : «من غلب فإني أوتيه أن يأكل من شجرة الحياة[68]».

8- وإنما تعطى التعزية الإلهية، لكي يزداد الانسان قوة على احتمال الشدائد؛ ثم تعقبها التجربة، لئلا يترفع لصلاحه.
إن ابليس لا ينام، والجسد لم يمت حتى الآن؛ فلا تكف عن التأهب للجهاد، لأن الأعداء عن يمينك وشمالك، وهم أبداً لا يهدأون.

*** ***

الفصل العاشر

في الشكر على نعمة الله

1- لم تطلب الراحة، وأنت مولودٌ للعناء ؟
أعدد نفسك للصبر أكثر مما للتعزيات، ولحمل الصليب أكثر مما للفرح.
إذ من، من أهل العالم، لا يرتاح الى قبول التعزية والفرح الروحي، لو أمكنه التمتع بها على الدوام ؟
فالتعزيات الروحية، تفوق جميع تنعمات العالم وملذات الجسد.
لأن جميع تنعمات العالم إما باطلةٌ وإما مخزية.
أما اللذات الروحية، فهي وحدها عذبةٌ شريفة، وليدة الفضائل، يفيضها الله في النفوس الطاهرة.
بيد أنه ما من أحدٍ يستطيع التمتع دوماً بتلك التعزيات الالهية، وفق مرامه، لأن انقطاع التجربة لا يدوم طويلاً.

2- أما ما يقاوم كثيراً الافتقاد العلوي، فهو حرية الروح الزائفة، والاعتماد المفرط على الذات.
إن الله يحسن الصنيع بمنحه نعمة التعزية؛ ولكن بئس ما يفعل الانسان، إن هو لم ينسب كل شيء، بشكر، الى الله.
وإن كانت مواهب النعمة لا تجري فينا، فلأنا ننكر إحسان واهبها، ولا نعيد كل شيء الى ينبوعه الأصلي.
فإن النعمة واجبةٌ دوماً لمن يحسن الشكر عليها؛ أما المترفع، فينزع منه ما يمنح عادة للمتواضع.

3- أنا لا أريد تعزية تسلبني الانسحاق، ولا أرغب في تأمل يقودني الى التشامخ.
إذ ليس كل سام مقدّساً، ولا كل عذب صالحاً، ولا كل رغبةٍ طاهرة، ولا كل عزيزٍ مرضياً لدى الله.
ولكني أرتاح الى قبول نعمة، تجعلني دائماً أكثر تواضعاً ومخافة، وأكثر استعداداً لانكار ذاتي.
من علمته موهبة النعمة، وأدّبه سياط حرمانها، لا يجسر أن ينسب الى نفسه شيئاً من الصلاح، بل بالحريّ يعترف أنه بائسٌ عريان.
أعط ما لله، وانسب الى نفسك ما هو لك. ومعنى ذلك : أد لله شكراً على النعمة، أما الذنب فانسبه الى نفسك وحدها، وأيقن ان ما تستوجبه، إنما هو العقاب العادل على ذنبك.

4- ضع نفسك أبداً في المحل الأدنى، تعط الأسمى، لأن الأسمى لا يقوم بغير الأدنى.
فإنّ أعاظم القديسين لدى الله، هم أصغرهم لدى أنفسهم؛ وعلى مقدار مجدهم، يزدادون تواضعاً في أنفسهم.
لقد ملأهم الحق والمجد السماوي، فهم لا يطمعون في المجد الباطل.
إنهم مؤسسون وموّطدون في الله، فلا يمكنهم أن يتشامخوا بوجه البتة.
وهم يعزون الى الله كل ما نالوا من الخير، فلا يطلبون المجد بعضهم من بعض، وإنما يبتغون المجد الذي من الله فقط، ويتوقون، فوق كل شيء، أن يمجّد الله فيهم وفي جميع القديسين، وهذا ما يقصدون اليه على الدوام.

5- فكن إذن شكوراً على القليل، فتضحي أهلاً لنيل الكثير.
وليكن القليل عندك كالكثير، والحقير الزري كمنحة خاصة.
إذا نظرت الى قدر المعطي، فما من عطية تبدو لك صغيرة أو حقيرة، لأن ما يعطيه الاله الأسمى لا يكون صغيراً.
يجب أن تشكر له ما يعطيك، وإن عقاباً وضربات، لأن كل ما يسمح أن يحل بنا، إنما يفعله دوماً لأجل خلاصنا.
فمن رام أن يحفظ نعمة الله، فليكن شكوراً إذا منح النعمة، صبوراً إذا سلبها.

وليصل لتردّ اليه، وليكن حذراً متواضعاً لئلا يفقدها.

*** ***

الفصل الحادي عشر

في قلة المحبين لصليب يسوع

1- إن ليسوع الآن تباعاً كثيرين، يرغبون في ملكوته السماوي، أما حاملو صليبه فقليلون.
كثيرون يبتغون تعزيته، أما مبتغو مضايقه فقليلون.
كثيرون يشاركونه في المائدة، أما شركاؤه في التقشف فقليلون.
الجميع يرغبون في أن يفرحوا معه، أما الذين يريدون احتمال شيء من أجله فقليلون.
كثيرون يتبعون يسوع الى كسر الخبز، أما تابعوه الى شرب كأس الآلام فقليلون.
كثيرون يكرّمون معجزاته، أما الذين يتبعونه في عار الصليب فقليلون.
كثيرون يحبون يسوع، ما دامت المحن لا تنتابهم.
كثيرون يسبحونه ويباركونه، ما داموا يحصلون على بعض تعزياته ؛
فإن توارى يسوع وتركهم قليلاً، سقطوا في التذمر أو في فشل مفرط.

2- أما الذين يحبون يسوع لأجل يسوع، لا لأجل تعزيتهم الذاتية، فإنهم يباركونه في كل مضايقهم وكرب قلوبهم، كما في أعظم التعزيات.
ولو شاء أن لا يعطيهم التعزية أبداً، فهم، مع ذلك، يسبّحونه دائماً، ودائماً يبتغون شكره.

3- آه ! ما أقوى حب يسوع، إذا كان خالصاً لا يشوبه شيءٌ من الحب الذاتي، أو المصلحة الشخصية.
أليس من الواجب أن يدعوا جميعهم أجراء، أولئك الذين يسمون أبداً وراء التعزيات ؟
ألا يثبتون أنهم يحبون أنفسهم أكثر من حبهم للمسيح، أولئك الذين يفكرون دوماً في مصالحهم ومرابحهم الشخصية ؟
أين تجد إنساناً يرضى أن يخدم الله مجاناً ؟

4- أنه لمن النادر وجود رجلٍ بلغ، من الحياة الروحية، درجة التجرّد من كل شيء.
لأن المسكين حقاً بالروح، ألمتجرّد من كل خليقة، من يجده ؟ - «من بعيدٍ ومن أقصى الأقاصي ثمنه[69]».
«لو بذل الإنسان جميع ماله[70]»، فليس ذلك بعد شيئاً؛ ولو قام بأعمال توبة شاقة، فذلك ضئيلٌ أيضاً؛ ولو حصل كل العلوم، فلا يزال بعيداً؛ ولو كان ذا فضيلة كبرى وعبادة مضطرمة الحرارة، فلا يزال ينقصه الشيء الكثير، أي الشيء الأوحد، الذي هو في شديد الحاجة اليه.
وما هو هذا الشيء ؟ - أن يترك ذاته بعد تركه كل شيء، ويتجرّد من نفسه تمام التجرّد، ولا يستبقي شيئاً من الحب الذاتي ؛
وإذا عمل كل ما يعرفه واجباً عليه، أن لا يحسب نفسه قد عمل شيئاً.

5- ولا يستعظمن ما قد يمكن استعظامه، بل فليعترف، بصدقٍ، أنه عبدٌ بطال، كما يقول الحق: «إذا فعلتم جميع ما أمرتم به، فقولوا : إنا عبيدٌ بطالون[71]».
وحينئذٍ يستطيع، حقاً، أن يكون مسكيناً ومتجرداً بالروح، وأن يقول مع النبي : «إني وحيدٌ وبائسٌ[72]».
على أنه ما من أحدٍ أغنى، وما من أحدٍ أقدر، وما من أحدٍ أكثر حرية، ممن عرف أن يترك نفسه وكل شيء، ويضع نفسه في المحل الأدنى.

*** ***

الفصل الثاني عشر

في طريق الصليب المقدس الملكية

1- إنه لصعبٌ على الكثيرين هذا الكلام : «أنكر نفسك واحمل صليبك واتبع يسوع[73]».
ولكنه سيكون أصعب جداً سماع هذه الكلمات الأخيرة : «اليكم عني يا ملاعين الى النار الأبدية![74]».
فالذين يرتاحون الآن الى سماع وصية الصليب واتباعها، لن يخافوا حينئذٍ أن يسمعوا حكم الهلاك الأبدي.
«وإن علامة الصليب هذه، ستكون في السماء حينما يأتي الرب للدينونة[75]».
حينئذٍ جميع عبيد الصليب، الذين تشبهوا في حياتهم بالمصلوب، يدنون الى المسيح الدّيان، بثقةٍ عظيمة.

2- فلم تخاف إذن من حمل الصليب، الذي به يذهب الى الملكوت ؟
في الصليب الخلاص، في الصليب الحياة، في الصليب الحماية من الأعداء، في الصليب فيضان العذوبة العلوية، في الصليب قوة النفس، في الصليب فرح الروح، في الصليب تمام الفضيلة، في الصليب كمال القداسة.
لا خلاص للنفس، ولا أمل في الحياة الأبدية، إلا في الصليب.
فاحمل إذن صليبك واتبع يسوع، تبلغ الى الحياة الأبدية.
لقد سبقك هو «حاملاً صليبه[76]»، ومات لأجلك على الصليب، لكي تحمل أنت أيضاً صليبك، وتتوق الى الموت على الصليب.
فإنك «إن متّ معه، فستحيا أيضاً معه[77]»؛ وإن شاركته في العذاب، فستشاركه في المجد أيضاً.

3- ها في الصليب قوام كل شيء، وفي الموت أساس كل شيء، وليس من طريق آخر الى الحياة والسلام الداخلي الحق، سوى طريق الصليب المقدّس، والإماتة اليومية.
إذهب حيثما شئت، واطلب كل ما أردت، فإنك لن تجد في العلو طريقاً أسمى، ولا في الانخفاض طريقاً آمن من طريق الصليب المقدّس.
دبّر ورتب كل شيءٍ وفق إرادتك ورأيك، ولكنك لن تجد أبداً شيئاً آخر، سوى أنه لا بدّ لك من التألم في شيء ما، شئت أم أبيت. وهكذا ستجد الصليب على الدوام.
فإما أن تشعر بالأوجاع في جسدك، وإما أن تعاني ضيق الروح في نفسك.

4- تارة يخذلك الله، وطوراً يزعجك القريب؛ وما هو أعظم من كليهما، أنك كثيراً ما تكون، أنت نفسك، ثقلاً على نفسك.
ومع ذلك، فما من دواء ولا تعزية لتخليصك أو التفريج عنك؛ بل عليك أن تصبر الى ما شاء الله.
فإن الله يريد تدريبك على احتمال الضيق بدون تعزية، لتخضع له خضوعاً تاماً، وتعود من الضيق أكثر تواضعاً.
ما من أحد يشعر حتى صميم قلبه، بآلام المسيح، مثل من أوتي أن يحتمل آلاماً تشبهها.
فالصليب مهيأ أبداً، وهو ينتظرك في كل مكان.
لا تستطيع التملص منه أينما هربت، لأنك حيثما ذهبت فأنت تحمل معك نفسك، وتجد دائماً نفسك.
أنظر الى ما فوق وانظر الى ما أسفل، أنظر الى ما هو خارج عنك وانظر الى ما في داخلك، تجد الصليب فيها كلها.
فعليك بالصبر في كل مكان، إن شئت الحصول على السلام الداخلي، واستحقاق الإكليل الخالد.

5- إن حملت الصليب طوعاً، حملك هو، وسار بك الى الغاية المشتهاة، حيث انتهاء الألم – وإن لم يكن ذلك في هذه الحياة ؛ وإن حملته على كراهية، فقد حملت حملاً يزيد في أثقالك؛ ومع ذلك، فلا بدّ لك من حمله.
إن اطرحت صليباً، وجدت بلا شك صليباً آخر، وقد يكون أثقل منه.

6- أتظن، أنت، انك تتملص مما لم يستطع قط بشرٌ أن يفلت منه ؟
من من القديسين خلا، في حياته، من صليبٍ ومضايق ؟
فإنه ولا ربنا يسوع المسيح، قد خلا ساعة واحدةً في حياته كلها من معاناة الآلام.
فلقد قال : « كان ينبغي للمسيح أن يتألم ويقوم من بين الأموات، ثم يدخل هكذا الى مجده[78]».

فكيف تطلب أنت طريقاً أخرى، غير هذه الطريق الملكية، طريق الصليب المقدّس ؟

7- حياة المسيح كانت كلها صليباً واستشهاداً، وأنت تطلب لنفسك الراحة والفرح ؟
إنك لفي ضلالٍ لفي ضلال، إن طلبت شيئاً آخر سوى مقاساة المضايق، لأن هذه الحياة المائتة، مفعمة كلها بالشقاء ومكتنفة بالصلبان ؟
وبمقدار ما يسمو الإنسان في التقدّم الروحي، يجد في الغالب صلباناً أثقل، لأن عذاب منفاه يتزايد بسبب حبّه.

8- غير أن الرجل المبتلى بمثل هذه المحن الكثيرة، لا يكون بغير تعزيةٍ تخففها، لأنه يشعر بتزايد الثمار العظيمة، الناتجة من احتمال الصليب.
فإنه عندما يخضع للصليب طوعاً، ينقلب كل ثقل الشدائد ثقة بالتعزية الإلهية.
وبمقدار ما يسحق جسده بالبلوى، تزداد روحه قوةً بالنعمة الداخلية.
ولقد يشدّده أحياناً حب المضايق والشدائد، لرغبته في التشبّه بالمسيح المصلوب، بحيث لا يريد البقاء بلا أوجاعٍ ومضايق، لتيقنه أنه يضحي أكثر قبولاً لدى الله، بمقدار ما تكثر وتشتد المحن التي يستطيع احتمالها لأجله.
على أن ذلك لا يتمّ بقدرة الإنسان، بل بنعمة المسيح، التي لها من القوة والفعل في الجسد الضعيف، ما يجعله يقبل، بحرارة الروح، على ما كان يتجنب دائماً، فيحبه بعد إذ كان يكرهه من طبعه.

9- ليس من طبع الإنسان حمل الصليب وحب الصليب، وقمع الجسد واستعباده، والهرب من الكرامات، واحتمال الاهانات برضى، واحتقار الذات، وتمني الاحتقار من الآخرين، واحتمال الشدائد والمضار، وعدم ابتغاء شيء من النجاح في هذه الدنيا.
فإن نظرت الى نفسك، فأنت لا تستطيع بذاتك شيئاً من ذلك، لكنك ان اتكلت على الرب، تعطى القوة من السماء، فيخضع لسلطانك العالم والجسد.
بل إنك لا تخاف حتى عدوّك ابليس، إن كنت متسلحاً بالايمان، ومتسماً بصليب المسيح.

10- فمثل عبد للمسيح صالح أمين، أعدد نفسك لأن تحمل ببسالة صليب ربك، الذي صلب حباً لك.
أعدد نفسك لاحتمال شدائد كثيرة، وضيقات شتى، في هذه الحياة الشقية، فذلك نصيبك أينما اختبأت.
ذلك ما لا بدّ منه؛ ولا دواء للنجاة من المضايق والشرور والأوجاع، إلا اعتصامك بالصبر.
اشرب بشوق كأس الرب، ان اشتهيت أن تكون صديقاً له، وأن يكون لك نصيبٌ معه.
فوض الى الله أمر التعزيات، وليتصرف فيها بما يكون أكثر مرضاةً له.
أما أنت، فأعدد نفسك لاحتمال المضايق، وعدّها كأعظم التعزيات، لأن «آلام هذا الدهر، لا تتناسب والمجد الآتي[79]» فتستحقه لك، ولو استطعت أن تحتملها كلها أنت وحدك.

11- فإذا أصبحت، من الكمال، بحيث تضحي المضايق لديك عذبة مستطابة لأجل المسيح، فحينئذٍ، إحسب نفسك سعيداً، إذ قد وجدت النعيم على الأرض.
ما دمت تستثقل الآلام وتطلب التملص منها، فأنت في شقاء؛ وأينما ذهبت، تبعتك المضايق التي تهرب منها.

12- إن أعددت نفسك لما لا بدّ منه – أعني التألم والموت – فسرعان ما تطيب نفساً وتجد السلام.
فإنك، ولو «اختطفت مع بولس الى السماء الثالثة[80]»، لست لذلك في مأمن من كل بلية، «فإني سأريه – يقول يسوع – كم ينبغي له أن يتألم من أجل اسمي[81]».
فما لك إذن سوى التألم، إن شئت أن تحب يسوع وتخدمه على الدوام.

13- يا ليتك كنت أهلاً لأن تحتمل بعض الشدّة، لأجل اسم يسوعّ إذن فما أعظم ما كنت تذخر لنفسك من المجد! وما أعظم ما كان ينشأ عن ذلك، من الفرح لجميع قدّيسي الله، ومن البنيان للقريب !
الجميع يوصون بالصبر، فيما الذين يرضون بالاحتمال قليلون.
إنه ليحق لك بصواب، أن تحتمل، عن نفسٍ طيبة، يسيراً من الآلام لأجل المسيح، فيما الكثيرون يحتملون أعظم من ذلك لأجل العالم.

14- إعلم يقيناً أن حياتك كلها ينبغي أن تكون موتاً، وأنه بمقدار ما يموت الإنسان عن نفسه، يبتدئ يحيا لله أكثر فأكثر.
ما من أحد أهلٌ لإدراك السماويات، إن لم يخضع نفسه لاحتمال الشدائد من أجل المسيح.
لا شيء، في هذا العالم، أكثر مرضاةً لله، ولا أعظم فائدة لخلاصك، من التألم بطيبة نفس لأجل المسيح.
ولو خيّرت، لوجب عليك أن تؤثر احتمال الشدائد حباً للمسيح، على التمتع بوفرة التعزيات، إذ تكون بذلك أكثر مشابهة للمسيح، وأشدّ

مماثلة لجميع القديسين.
فإن استحقاقنا وتقدّمنا لا يقومان بكثرة العذوبات والتعزيات، بل بالأولى، باحتمال الشدائد والمضايق العظيمة.

15- لو كان ثمة شيءٌ أفضل وأنفع لخلاص البشر، من التألم، لكان المسيحُ، بلا شك، أرشدنا اليه بالقول والمثال.
لكنه يحرّض صريحاً على حمل الصليب، التلاميذ الذين تبعوه، وجميع الراغبين في اتباعه، قائلاً :«من أراد أن يتبعني، فلينكر ذاته، ويحمل صليبه ويتبعني[82]».
فبعد استقصائنا في المطالعة والبحث، لنستنتج، أخيراً، أنه «بمضايق كثيرة، ينبغي لنا أن ندخل ملكوت الله[83]».

*** ***

السفر الثالث

في التعزية الالهية

« طوبى للنفس التي تسمع الرب يتكلم فيها، وتقبل من فمه كلام التعزية!»
(3 افتداء 1:1)

*** ***

الفصل الأول

في مناجاة المسيح للنفس المؤمنة

1- التلميذ : «أسمع ما يتكلم في الرب الآله[84]».
المسيح : طوبى للنفس التي تسمع الرب يتكلم فيها، وتقبل من فمه كلام التعزية!
طوبى للآذان التي تقبل همس الإلهام الإلهي، ولا تأبه البتة لمهامسات هذا العالم!
أجل، طوبى للآذان المصغية، لا الى صوتٍ يطنّ في الخارج، بل الى الحق الذي يعلم في الداخل!
طوبى للعيون المغمضة عن الأمور الخارجية، الشاخصة الى الداخلية!
طوبى للذين يلجون الأمور الداخلية، ويجتهدون، بالتدّرب اليوميّ، أن يستعدوا أكثر فأكثر، لإدراك الأسرار السماوية!
طوبى للذين يتوقون الى التفرغ لله، فيقصون عنهم كل عوائق هذا الدهر!

التلميذ : تأملي، يا نفس، في هذه الأقوال، واغلقي أبواب حواسك، لتستطيعي أن تسمعي ما يتكلم فيك الرب إلهك.

2- المسيح : هذا ما يقول حبيبك: «إني أنا خلاصك[85]» وسلامك وحياتك.
أقيمي بقربي، تجدي السلام؛ أتركي جميع الزائلات واطلبي الأبديات.
وهل الزمنيات كلها سوى غرور ؟ وماذا تفيدك الخلائق جميعها، إن هجرك الخالق ؟
فاعتزلي إذن كل شيء، وكوني مرضية أمينة لخالقك، لتستطيعي الحصول على السعادة الحقيقية.

*** ***

الفصل الثاني

في ان الحق يتكلم في داخلنا بدون دوي كلام

1- التلميذ : «تكلم، يا ربّ، فإن عبدك يسمع[86]». «عبدك أنا، فهّمني فأعرف شهاداتك[87]».
«أمل قلبي الى كلام فيك؛ لتقطر كالندى مقالتك[88]».
لقد قال بنو إسرائيل قديماً لموسى : «كلمنا أنت، فنسمع؛ ولا يكلمنا الرب، لئلا نموت[89]».
لست كذلك، يا ربّ، لست كذلك أطلب؛ بل بالحري أبتهل مع صموئيل النبي، بتواضع واشتياق : «تكلم يا رب فإن عبدك يسمع[90]».
لا يكلمني موسى أو أحدٌ من الأنبياء، بل بالحريّ، كلمني أنت أيها الرب الاله، ملهِم جميع الأنبياء ومنيرهم، لأنك أنت وحدك قادرٌ، بدونهم، أن تفقهني تفقيهاً كاملاً؛ أما هم، فبدونك لا يفيدونني شيئاً.

2- هم ينطقون بألفاظٍ رنانة، أما الروح فلا يستطيعون منحه.
هم يجيدون الكلام، لكنهم لا يضرمون القلب إن أنت بقيت صامتاً.
هم يسلمون الحرف، لكنك أنت تكشف المعنى.
هم ينطقون بالأسرار، لكنك أنت تفضّ أختام فهمها.
هم يعلنون الوصايا، لكنك أنت تساعد على حفظها.
هم يرشدون الى الطريق، لكنك أنت المشدّد للمسير فيها.
هم يعملون في الخارج فقط، لكنك أنت تفقه القلوب وتنوّرها.
هم يسقون في الخارج، لكنك أنت تولي الخصب.
هم يجهرون بالكلام، لكنك أنت تهب الفهم للسماع.

3- فلا يكلمني إذن موسى، بل أنت أيها الربّ إلهي، الحق الأزلي، لئلا أموت وأصبح بغير ثمرة، إن لم أسمع النصح إلا في الخارج فقط، من غير أن أضطرم في الداخل؛ ولئلا تصبح لي سبب دينونة، تلك الكلمة التي سمعتها ولم أعمل بها، وعرفتها ولم أحببها، وآمنت بها ولم أحفظها.
«تكلم إذن يا ربّ، فإن عبدك يسمع[91]»، «لأن كلام الحياة الأبدية هو عندك[92]».
كلمني لتعزية نفسي قليلاً، ولإصلاح حياتي كلها؛ وكلمني، خصوصاً، لأجل تسبيحك وتمجيدك وإكرامك على الدوام.

*** ***

الفصل الثالث

في ان من الواجب

استماع كلام الله بتواضع، وفي ان كثيرين لا يقدرونه

1- المسيح : اسمع كلامي، يا بني، كلامي الجزيل العذوبة، فإنه يفوق علم جميع فلاسفة هذا الدهر وحكمائه.
«كلامي روحٌ وحياة[93]»، فلا يسوغ الحكم فيه بحسب العقل البشري.

ولا يسوغ أن يحوّل للعجب الباطل، بل يجب استماعه بصمت، وقبوله بتواضعٍ وحبٍ عظيم.

2- التلميذ : لقد قلت : «طوبى لمن تفقهه يا ربّ، وتعلمه شريعتك، لتريحه من أيام السوء[94]»، فلا يستوحش على الأرض.

3- المسيح : أنا علمت الأنبياء منذ البدء – يقول الربّ – ولا أزال حتى الآن أكلم الجميع؛ لكن كثيرين قساةٌ يتصامّون عن صوتي.
كثيرون يؤثرون الاستماع للعالم، على الاستماع لله، وينقادون لشهوات الجسد، بسهولةٍ أعظم مما لمرضاة الله.
العالم يعدُ بخيراتٍ زمنيةٍ تافهة، ويخدّم بنشاطٍ عظيم؛ وأنا أعد بالخيرات العظيمة الأبدية، وقلوب البشر تبقى جامدة!
من ذا الذي يهتم بخدمتي وطاعتي في كل شيء، بمثل ما يهتم في خدمة العالم وأربابه؟
«إخزي يا صيدون – يقول البحر-[95]». وإن سألت عن السبب فاسمع ما هو :
لأجل مكسب يسير، يقطع الناس مسافاتٍ شاسعة، أما لأجل الحياة الأبدية، فكثيرون لا يكادون يرفعون رجلهم عن الأرض، ليخطو خطوة واحدة.
يتطلبون المكسب الخسيس؛ ولأجل فلسٍ واحد، يختصمون أحياناً بما يوجب العار؛ وهم لا يخافون من التعب ليل نهار، لأجل شيء باطل ووعدٍ زهيد.
أما الخير الذي لا بديل له، والثواب الذي لا يقدّر؛ أما الكرامة السامية، والمجد الذي لا نهاية له، فيا للعار !.. إنهم يتكاسلون ولو عن احتمال يسير من التعب في سبيله.

4- فاخز اذن أيها العبد الكسول المتذمر، لأن أولئك هم أشدّ سعياً الى الهلاك، منك الى الحياة.
إنهم يرتاحون الى الباطل، أكثر مما ترتاح أنت الى الحق.
هم كثيراً ما تخيب آمالهم؛ أما أنا فمواعيدي لا تخدع أحداً، ولا تخّيب من توكل عليّ.
ما وعدت به فسأعطيه، وما قلت فسأتمّه، أللهم ان بقي الإنسان، حتى المنتهى، أميناً في محبتي.
أنا مثيب الصالحين، والمؤيد القوي لجميع الأتقياء.

5- أكتب كلماتي في قلبك، وتأمل فيها بنشاط، فإنك ستحتاج اليها كثيراً وقت التجربة.
ما لا تدركه عند القراءة، فسوف تعلمه يوم الافتقاد.
فإني على وجهين أفتقد، عادةً، مختاريّ : بالمحنة والتعزية؛ وكل يوم أتلو عليهم درسين: بالواحد أوبخهم على نقائصهم، وبالآخر أستحثهم على النمو في الفضائل.
«فمن كانت عنده أقوالي ونبذها، فإن له من يدينه في اليوم الأخير[96]».

صلاة لالتماس نعمة العبادة

6- التلميذ : أيها الربّ إلهي، أنت كل خيري. ومن أنا فأجسر على مخاطبتك؟
عبدك أنا، عبدٌ ذليلٌ بائسٌ جداً، دويدةٌ منتبذة.
إني أفقر وأذلّ، بكثير، مما أعلم وأجرؤ أن أقول.

ولكن اذكر، يا رب، أنني لست بشيء، ولا أملك شيئاً ولا أقدر على شيء.
أنت وحدك صالحٌ، عادلٌ، قدوس، أنت القدير على كل شيء، تهب كل شيء، وتملأ كل شيء، ما عدا الخاطئ : فإنك تتركه خاوياً.
«أذكر مراحمك[97]» واملأ قلبي من نعمتك، فإنك لا ترضى أن تكون مصنوعاتك فارغة.

7- كيف أستطيع احتمال نفسي في هذه الحياة الشقية، إن لم تقوّني أنت برحمتك ونعمتك؟
« لا تحول وجهك عني[98]»، ولا تبطئ عن افتقادي، ولا تنزع مني تعزيتك، لئلا تصبح «نفسي أمامك كأرض مجدبة[99]».

يا رب «علمني أن أعمل مشيئتك[100]»، علمني أن أسلك أمامك بالتواضع، وكما ينبغي، لأنك انت حكمتي، يا من يعرفني حق المعرفة، ولقد عرفتني قبل أن يخلق العالم، وقبل ان أولد أنا في العالم.

*** ***

الفصل الرابع

في انه يجب السلوك أمام الله بالحق والتواضع

1- المسيح : يا بنيّ، أسلك أمامي بالحق، وبسلامة قلبك التمسني على الدوام.
من يسلك أمامي بالحق، يصن من هجمات الشر، والحق ينجيه من المضلين، ومن اغتيابات الأثمة.
فإن حررك الحق، أصبحت في الحقيقة حراً، لا تهمك أقوال الناس الباطلة.

2- التلميذ : ربّ، حق كلامك، فأسألك أن يصنع لي بحسب ما تقول : ليعلمني حقك ويصنّي، وليحفظني الى نهايةٍ خلاصية.
ليحرّرني من كل ميلٍ شريرٍ وحبٍ منحرف، فأسلك معك بحرية قلب عظيمة.

3- المسيح : أنا أعلمك – يقول الحق – ما هو مستقيمٌ ومرضيٌ أمامي.
أذكر خطاياك في كثيرٍ من الكراهية والغمّ، ولا تحسبنّ أبداً أنك شيءٌ عظيم، من أجل أعمالك الصالحة.
فما أنت، في الحقيقة، إلا خاطئٌ معرّضٌ لأهواء كثيرة، ومقتنص في حبائلها.
إنك، من ذاتك، تنزع دائماً الى العدم؛ فتزلُّ سريعاً، وتغلب سريعاً، وتضطرب سريعاً، وتنحلُّ عزائمك سريعاً.
ليس لك شيءُ يمكنك أن تفتخر به؛ ولكن عندك أشياء كثيرةً توجب عليك احتقار نفسك، لأنك أضعف بكثير، مما يمكنك أن تدرك.

4- فلا تستعظمن إذن شيئاً من كل ما تفعل. ولا تحسبنّ شيئاً عظيماً، ولا كريماً، ولا عجيباً، ولا جديراً بالذكر، ولا سامياً، ولا حميداً أو شهياً حقاً، إلا ما هو أبدي.
لتكن مرضاتك، قبل كل شيء، في الحق الأزلي، ولتسؤ أبداً في عينيك حقارتك القصوى.
لا تخش ولا تذمّ ولا تتجنب شيئاً، بمثل ما تخشى وتذمّ وتتجنب رذائلك وخطاياك، إذ من الواجب أن تغمّك هذه، أكثر من أي خسارة.
من الناس من لا يسلكون أمامي بإخلاص، بل ينقادون لشيء من الفضول والصلف، فيريدون معرفة أسراري، وإدراك أعماق الله، وهم عن نفوسهم وشؤون خلاصهم غافلون.
فهؤلاء، لكبريائهم وفضولهم، كثيراً ما يجرّبون ويقعون في خطايا فظيعة، لأني أنا أقاومهم.

5- إخش أحكام الله، وارهب غضب القدير. لا تستقص أعمال العلي، بل افحص، بدقةٍ، عن آثامك : كم اقترفت من الشرور، وكم أهملت من الصالحات.
من الناس من يجعلون كل عبادتهم في الكتب، ومنهم في الصور، وغيرهم في الشعائر الخارجية والرموز.
والبعض يحملونني في أفواههم، ولكن قلما يحملونني في قلوبهم.
غير ان هناك آخرين، قد استنار عقلهم وطهرت أميالهم، فهم يتوقون دوماً الى الأبديات، ويستثقلون سماع التحدث عن الأرضيات، ولا يقومون بمقتضيات الطبيعة إلا مكرهين؛ فهؤلاء يفهمون ما يتكلم روح الحق فيهم : لأنه يعلمهم ازدراء الأرضيات، وحب السماويات، وإهمال العالم، والتشوّق الى السماء ليل نهار.

*** ***

الفصل الخامس

في مفاعيل الحب الالهي العجيبة

1- التلميذ : أباركك، أيها الآب السماوي، أبو ربي يسوع المسيح، لأنك تنازلت فذكرتني أنا البائس. «يا أبا المراحم وإله كل تعزية[101]»، شكراً لك لأنك تنعشني أحياناً بتعزيتك، أنا الذي لا يستحق شئياً من التعزية.
أباركك على الدوام وأمجدك، مع ابنك الوحيد والروح القدس المعزّي، الى دهر الدهور.
آه! أيها الرب الإله، محبّي القدوس، إن أحشائي جميعها تتهلل حينما تأتي أنت الى قلبي.
«أنت مجدي[102]»، «أنت بهجة قلبي[103]»، «أنت رجائي وملجأي في يوم ضيقي[104]».

2- لكنني، إذ لا أزال ضعيفاً في الحب، غير كامل في الفضيلة، فأنا في حاجةٍ الى أن تقوّيني وتعزّيني.
فأكثر من افتقادي، وأدبني بتعاليمك القدّوسة.
أعتقني من الأهواء الشريرة، واشف قلبي من كل ميلٍ منحرف، حتى إذا شفيت وتطهرت جيداً في داخلي، أصبح أهلاً لمحبتك، قوياً للاحتمال، حازماً للثبات.

3- إن الحب لشيءٌ عظيمٌ جداً، وهو خيرٌ كل الخير، لأنه وحده يخفف كل ثقيل، ويحمل، على السواء، كل تقلبات الحياة.
إنه يحمل العبء بغير تعب، ويصيرُ كل مرٍ حلواً لذيذاً.
حب يسوع كريم يرفع الى عظائم الفعال، ويحث على الرغبة دوماً في الأكمل.
الحب يتوق الى العلاء، ويأبى أن يعيقه شيءٌ من أمور الدنيا.
الحب يودّ أن يكون حراً، منزهاً عن كل هوى عالمي، لئلا تتعطل بصيرته، فيصطاد بحبائل يسرٍ زمني، أو يفشل عند العسر.
لا شيء أعذب من الحب؛ لا شيء أقوى ولا أسمى، ولا أوسع ولا أطيب، ولا أتمّ ولا أفضل، لا في السماء ولا على الأرض؛ لأن الحب وليد الله، ولا يستطيع أن يستريح إلا في الله، فوق جميع الخلائق.

4- المحبّ يطير ويعدو ويمرح، هو طليقٌ لا يقيّده شيء ؛
يبذل الكل لأجل الكل، ويملك الكل في الكل، لأنه يستريح، فوق كل شيء، في الخير الواحد الأسمى، الذي عنه يصدر ويفيض كل خير.
الحب لا يستثقل شيئاً، ولا يبالي بتعب؛ يتوق الى أكثر مما يستطيع، ولا يعتذر بعدم الإمكان، لأنه يعدّ كل شيء ممكناً وجائزاً له ؛
فيستطيع كل شيء، ويباشر ويتمّ أعمالاً كثيرة، يفشل فيها ويتقاعد عنها من كان خالياً من الحب.

5- الحب ساهرٌ، وان رقد لا ينام؛ إن تعب لم يهن، وإن ضيق عليه لم يتضايق، وإن روع لا يرتاع؛ بل كلهيبٍ مضطرم، وكشعلة متقدة، يشبّ الى العلاء، وينفذ بلا عائق.
من كان محباً، فقد عرف ما تجهر به هذه الكلمة؛ فإنه لصراخٌ عظيمٌ في أذني الله، إضطرام الشوق في النفس القائلة : إلهي وحبي ! أنت كلك لي، وأنا كلي لك!

6- اشرح قلبي بحبك، فأتعلم أن أذوق، بفم قلبي الداخلي، ما أعذب الحب والذوبان والعوم في الحب.
ليستول علي الحب، فأرتفع فوق نفسي لفرط الحرارة والذهول.
هب لي أن أنشد نشيد الحب، وأن أتبعك، يا حبيبي، الى العلاء؛ ليغش على نفسي في تسبيحك، متهللة من الحبّ!
إجعلني أحبك أكثر من نفسي، ولا أحبُّ نفسي إلا من أجلك، وأحب فيك جميع الذين يحبونك حقاً، كما تأمر شريعة الحب المشرقة منك!

7- المسيح : الحب نشيطٌ، مخلص؛ حنونٌ، عذبٌ وديع؛ قويٌ، صبور؛ أمينٌ، حكيم؛ طويل الاناة، باسلٌ، لا يطلب ذاته أبداً.
فإنه حالما يطلب الانسان نفسه، يسقط من الحب.
الحب متحرّزٌ، متواضعٌ، مستقيم؛ غير متراخٍ ولا طائش؛ ولا متشاغل بالأمور الباطلة؛ قنوعٌ، عفيف؛ ثابتٌ، مطمئن؛ متصوّن في جميع الحواس.
الحب خاضع مطيعٌ للرؤساء، حقيرٌ ممتهنٌ في عيني نفسه، متقٍ لله شاكرٌ له، واثقٌ به ومتكلٌ أبداً عليه، حتى إذا لم يتذوق عذوبته، إذ لا يحيا أحدٌ في الحب من غير ألم.

8- من لم يكن مستعداً لاحتمال كل شيء، ولامتثال إرادة الحبيب، فليس بأهلٍ أن يدعى محباً.
فالمحب عليه أن يعتنق، بفرح، كل صعبٍ ومرٍ، من أجل الحبيب، وألا يتخلى عنه في المحن التي تنتابه.

*** ***

الفصل السادس

في امتحان المحب الحقيقي

1- **المسيح :** يا بنيّ، إنك لست حتى الآن بمحبٍ قويٍ حكيم.
التلميذ : ولم يا ربّ ؟
المسيح : لأنك لمحنةٍ طفيفة، ترتد عما بدأت به، وتطلب التعزية بنهم مفرط.
المحبّ القوي يبقى ثابتاً في المحن، ولا يثق بوساوس العدو الخداعة؛ وكما يسرّ بي في الرخاء، كذلك لا يستاء مني في الشدائد.

2- المحبّ الحكيم لا ينظر الى عطية الحبيب، بمقدار ما ينظر الى حب المعطي، لأنه يلتفت الى عاطفة المعطي، أكثر مما الى قيمة العطية، ويرفع الحبيب فوق جميع العطايا.
المحب الكريم لا يستريح في العطية، بل فيّ أنا فوق كل عطية.
فلا تحسبن كل شيءٍ قد ضاع، إن شعرت أحياناً، نحوي ونحو قديسي، بمحبة أضعف مما تريد.

فإن ما تشعر به أحياناً من صادق المحبة العذبة، ما هو إلا مفعول النعمة الحاضرة، وتذوق سابقٌ للوطن السماوي؛ فينبغي إلا تعتمده كثيراً، لأنه يجيءُ ويذهب.
أما مجاهدة الحركات الشريرة، الطارئة في النفس، واحتقار هواجس الشيطان، فدليل على فضيلة واستحقاق عظيمين.

3- فلا تقلقنك التصورات الغريبة، أياً كان أصلها وموضوعها.
حافظ بجزم على قصدك، ولتثبت نيتك موجهة الى الله باستقامة.

ليس من الوهم أن تخطف أحياناً في انجذابٍ بغتة، ثم تعود في الحال الى سخافات قلبك المعتادة.
فهذه السخافات إنما أنت محتملها المكره، لا مسببها، وما دامت تسؤك وأنت تقاومها، فإنها لك سبب ثوابٍ لا هلاك.

4- إعلم أن عدوك القديم، يسعى بكل جهده، أن يعيق رغبتك في الخير، وأن يصرفك عن كل رياضة تقوية، أي عن تكريم القديسين، وعن التأمل بتقوى في آلامي، وعن تذكر خطاياك النافع، وعن السهر على قلبك، والعزم الثابت على التقدّم في الفضيلة.
إنه يوسوس لك بشتى الأفكار الشريرة، ليسئمك ويروّعك، ويصرفك عن الصلاة والقراءة المقدسة.
يسوءه الاعتراف المقرون بالتواضع؛ ولو امكنه، لحملك على ترك التناول.

فلا تصدّقنه، ولا تأبهن له، وإن هو أكثر لك من نصب أشراك الخداع.
فإن وسوس لك بالأفكار الشريرة الدنسة، فردّها عليه وقل له : إذهب أيها الروح النجس، واخز أيها الشقي ! إنك لنجسٌ جداً، إذ تلقي في أذني مثل هذه الوساوس.

إليك عني يا شرّ الخادعين! فليس لك فيّ نصيبٌ البتة، لكن يسوع يكون معي كمحارب عزيز؛ أما أنت فتقف في الخزي.
إني أوثر الموت واحتمال كل عذاب، على الرضى بهواجسك.
«أصمت واخرس[105]»! فإني لن أصغي اليك من بعد، وإن عنيتني بعناء أكثر.
«الرب نوري وخلاصي فممن أخاف[106]»؟ «إذا اصطف علي عسكرٌ فلا يخاف قلبي[107]»، «الرب معيني وفاديّ[108]».

5- جاهد كجندي باسل؛ وإن سقطت أحياناً عن ضعف، فاستعد قواك أعظم مما كانت، متوكلاً على نعمة، من قبلي، أوفر، واحذر كثيراً العجب الباطل والكبرياء.
فإنه بسببها يضل كثيرون، ويقعون أحياناً في عمى يكاد يستحيل علاجه.
فليكن لك عبرةً للحذر والاستمرار على التواضع، انهيار أولئك المتكبرين، المعتمدين على أنفسهم في غباوة.

*** ***

الفصل السابع

في اخفاء النعمة تحت حرز التواضع

1- المسيح : يا بنيّ، إنه لأفيد وآمن لك، أن تكتم نعمة العبادة، وأن لا تزهى بها، ولا تكثر من التحدث عنها، ولا تبالغ في تعظيمها؛ بل بالحريّ أن تحتقر ذاتك، وتخاف خوف من أوتي النعمة عن غير ما استحقاق.
لا يسوغ التشبث، بإفراطٍ، بهذه العواطف، فإنها قد تتحوّل سريعاً الى عكسها.
فكر، إبان النعمة، كم أنت، عادةً، مسكينٌ وبائسٌ بدونها.
إن تقدمك في الحياة الروحية، لا يقوم فقط بحصولك على نعمة التعزية، بل بالصبر على فقدانها بتواضع واستسلام وجلد، بحيث لا تتوانى حينئذٍ عن ممارسة الصلاة، ولا ترضى بإسقاط شيء من سائر واجباتك المألوفة، بل تفعل بانشراح ماً في وسعك، على أفضل ما تستطيع وتدرك، ولا تهمل نفسك إهمالاً تاماً، لما تشعر به من اليبوسة وضيق النفس.

2- فإن كثيرين، إن لم تجر الأمور وفق مرامهم يجزعون، من ساعتهم، أو يتراخون.
غير «أن طريق الإنسان ليس دوماً في سلطانه[109]» بل لله أن يمنح تعزيته متى شاء، وبقدر ما يشاء، ولمن يشاء، بحسب مرضاته ليس إلا.
إن البعض من قليلي التحفظ قد هلكوا بنعمة العبادة، لأنهم أرادوا أن يعملوا أكثر مما يقدرون، فلم يقيسوا مقدار ضعفهم، بل اتبعوا، بالأولى، ميل القلب لا حكم العقل ؛
ومن حيث إنهم ادعوا فوق ما يرضى به الله، فقد خسروا تلك النعمة سريعاً.
لقد جعلوا عشهم في السماء! وها هم قد أضحوا معوزين أذلاء، حتى يتعلموا، في الضعة والفقر، أن لا يطيروا بأجنحتهم، «بل يعتصموا تحت أجنحتي[110]».
فمن كان بعد حديث العهد، قليل الخبرة في سبل الله، فقد يضلّ وينحطم بسهولة، إن هو لم ينقد لرأي ذوي الفطنة.

3- فإن آثر اتباع آرائه الذاتية، على الإذعان للآخرين من ذوي الخبرة، فعاقبته تكون وبالاً عليه، إلا إذا رضيّ بالرجوع عن أفكاره الشخصية.
الحكماء عند أنفسهم، قلما ينقادون للآخرين بتواضع.
قليلٌ من العلم ويسيرٌ من الفهم مع التواضع، خيرٌ من كنوز علمٍ عظيمةٍ مع العجب الباطل.
خيرٌ لك أن تملك القليل، من أن تملك من الكثير ما يحملك علىً التكبر.
ليس من الرصانة أن يستسلم المرء بكل قواه للمرح، ناسياً فقره الماضي، ومخافة الله العفيفة، تلك التي تخشى فقدان ما وهبت من النعمة.
وليس من الفضيلة أيضاً، أن يستسلم المرء ليأس مفرط، إبان الضيق أو لدى أي مشقة، فيصبح، في أفكاره وعواطفه، أقل ثقة بي مما ينبغي.

4- ومن أراد التمادي في الطمأنينة إبان السلم، وجد نفسه في الغالب فشلاً شديد الهلع إبان الحرب.
لو عرفت أن تبقى دائماً متواضعاً صغيراً في عيني نفسك، وأن تحسن ضبط روحك وتوجيهه، لما كنت تسقط سريعاً في الخطر والمعصية.
من أصالة الرأي، إن كنت في اضطرام الروح، أن تفكر في ما تصير اليه عند انحجاب النور.
فإذا حدث لك ذلك، فاذكر ان النور قد يعود ثانية، وأني انما حجبته زمناً، لتحذيرك وتمجيدي.

5- إن مثل هذا الامتحان لأفيد لك، في الغالب، مما لو جرت الأمور دوماً وفق إرادتك.
لأن الاستحقاقات لا تقدّر بكثرة الرؤى والتعزيات، ولا بالبراعة في الكتب المقدسة، ولا بسمو المرتبة، بل برسوخ الإنسان في

التواضع الحقيقي، وامتلائه من محبة الله : هل يبتغي دوماً، وفي كل شيء، إكرام الله بخلوص نية ؟ وهل يحسب نفسه كلا شيء، ويحتقر ذاته حقاً؟ هل هو أكثر فرحاً بأن يحتقره الآخرون ويذلوه، مما أن يكرّموه ؟

*** ***

الفصل الثامن

في احتقار الانسان نفسه في عيني الله

1- التلميذ : «أتكلم الى سيدي، وأنا ترابٌ ورماد[111] !»
وإن حسبتني فوق ذلك، فها أنت تنتصب في وجهي، وآثامي تشهد علي بالحق، ولا أستطيع الإنكار.
ولكن، إن تذللت وتلاشيت، وتجرّدت من كل تقدير لنفسي، وعدت تراباً كما أنا في الواقع، عطفت علي نعمتك، واقترب نورك من قلبي، وغار واضمحل الى الأبد، في وهدة عدمي، كل تقديرٍ لنفسي، مهما كان يسيراً.
هناك تريني ذاتي : أي شيء أنا؟ ماذا كنت والى أينَ بلغت؟ فإني عدمٌ ولم أعلم.
إن تركت وشأني، فإني عدمٌ ومجرّد وهن؛ فإذا نظرت اليّ فجأة، أتشدد في الحال، وامتلئ فرحاً جديداً.
ومن العجيب جداً أنك تنهضني بمثل هذه السرعة، وتضمني اليك بمثل هذا الحنو، أنا المائل أبداً، بثقلي الذاتي، الى الأرضيات.

2- إن حبك هو الذي يفعل ذلك، إذ يبتدرني مجاناً، فيسدّ حاجاتي الكثيرة، ويقيني من الأخطار العظيمة، وينقذني من شرورٍ لا عدد لها حقاً.
عندما أسأت المحبة لنفسي،خسرت نفسي؛ وعندما طلبتك وأحببتك أنت وحدك بخلوص، وجدتك ووجدت نفسي معاً، وبسبب الحب زدت توغلاً في عدمي.
لأنك أنت أيها الجزيل العذوبة، تعاملني بما يفوق كل استحقاق، وكل ما أرجو أو أطلب.

3- تباركت يا إلهي، لأنك، وإن كنت أنا غير أهلٍ لشيءٍ من خيراتك، فكرمك وجودتك غير المتناهية، لا ينقطعان مع ذلك عن الإحسان، حتى الى الذين كفروا بنعمتك، وارتدوا عنك مبتعدين.
إهدنا اليك، فنصبح شكورين، متواضعين ورعين، لأنك أنت خلاصنا وقوّتنا وعزنا.

*** ***

الفصل التاسع

في انه يجب توجيه كل شيء الى الله توجبهه الى الغاية القصوى

1- المسيح : يا بني، إن شئت حقاً أن تكون سعيداً، فينبغي أن أكون أنا غايتك العظمى والقصوى.
فبهذه النية تظهر أميالك، المنعطفة في الأغلب انعطافاً فاسداً الى نفسك والى الخلائق.
فإنك إن طلبت نفسك في شيء ما، وهنت حالاً في نفسك ويبست.
فانسب لي إذن كل شيء نسبته الى أصله، لأني أنا قد وهبت كل شيء.
وهكذا احسب كل شيء صادراً عن الخير الأعظم، وأن من الواجب إذن إعادة جميع الأشياء اليّ، إعادتها الى أصلها.

2- مني أنا، كما من ينبوع حي، يستقي الحقير والعظيم، والفقير والغني، ماءً حياً؛ والذين يتطوعون لخدمتي بطيبة نفس، ينالون نعمة بدل نعمة.
أما من أراد الافتخار خارجاً عني، أو التمتع بخيرٍ خاص، فلن يثبت في الفرح الحقيقي، ولن ينشرح قلبه، بل يعاق ويضايق على وجوه شتى.
فعليك إذن أن لا تدّعي شيئاً من الصلاح لنفسك، ولا تنسب فضلاً لأحدٍ من الناس؛ بل أرجع كل شيء الى الله، الذي بدونه لا يملك الإنسان شيئاً.
أنا أعطيت كل شيء، وأنا أريد أن أسترجع كل شيء، وإني لأقتضي الشكر بتدقيق عظيم.

3- ذاك هو الحق، وبه يهزم المجد الباطل. وحيثما دخلت النعمة السماوية والمحبة الحقة، فلن يكون حسدٌ، ولا انقباض قلبٍ، ولا حبٌ ذاتي.
فإن محبة الله تغلب كل شيء، وتبسط جميع قوى النفس.
لو كنت سديد الرأي، لفرحت بي وحدي، وما رجوت أحداً سواي أنا وحدي، إذ «لا صالح إلا الله وحده[112]»، الذي به يليق التسبيح فوق كل شيء، والبركة في كل شيء.

*** ***

الفصل العاشر

في ان خدمة الله عذبة بعد ازدراء الدنيا

1- التلميذ : ها إني أعود الآن، يا ربّ، فأتكلم ولا أصمت؛ أقول على مسامع إلهي وسيدي وملكي الذي في العلى:
ما أعظم وفرة عذوبتك، يا ربّ، التي ادخرتها للذين يخافونك[113]!» فما عساك أن تكون لمحبيك؟ ما عساك أن تكون للذين يخدمونك بكل قلوبهم؟
إنها لمعجزة البيان حقاً، عذوبة المشاهدة التي تجود بها على محبيك.
إنك بهذا خصوصاً قد أظهرت لي عذوبة محبتك : أنك صنعتني إذ لم أكن؛ وحينما ضللت بعيداً عنك، أعدتني الى عبادتك، وأمرتني بمحبتك.

2- فيا ينبوع الحب الدائم، ماذا عساني أن أقول فيك ؟
كيف يمكنني أن أنساك، وقد تنازلت وذكرتني، حتى بعد ما ذويت وفنيت؟
لقد صنعت رحمة الى عبدك فوق كل أمل، وجدت عليه بنعمتك وصداقتك فوق كل استحقاق.
فبم أكافئك عن هذه النعمة العظيمة؟ إنك لم تمنح الجميع أن يعتزلوا كل شيءٍ ويزهدوا في العالم، لينتحلوا العيشة الرهبانية.
أمن العظيم أن أخدمك، وخدمتك واجبةٌ على كل خليقة ؟
ليست خدمتي لك هي ما يجب أن أستعظم؛ بل ما يجب استعظامه وما يدعو الى العجب، إنما هو بالحريّ، أن تتنازل وتقبلني عبداً لك، أنا البائس غير المستحق، وتضمني الى عبيدك الأحباء.

3- ها إن كل ما أملك وكل ما أخدمك به هو لك.
لا بل الأمر على عكس ذلك : فإنك أنت تخدمني أكثر مما أخدمك أنا.
لقد خلقت السماء والأرض لخدمة الإنسان، وها هما ماثلتان بين يديك، تصنعان كل يومٍ ما أمرتهما به.
وذلك قليل أيضاً: فلقد رتبت الملائكة أنفسهم لخدمة الإنسان.
أما ما يفوق ذلك كله، فهو أنك، أنت نفسك، قد تنازلت لخدمة الإنسان، ووعدته أن تعطيه ذاتك.

4- فبم أكافئك عن جميع هذه الآلاف من الخيراتِ؟ ليتني أستطيع أن أخدمك جميع أيام حياتي!

ليتني كنت أهلاً لأن أخدمك، ولو يوماً واحداً، كما يليق!
إنك لجديرٌ، حقاً، بكل عبادةٍ وإكرام وتسبيح الى الأبد.
أنت مولاي حقاً، وأنا عبدك المسكين، وعلَيّ أن أخدمك بكل قواي، ولا أمل أبداً من تسبيحك.
تلك هي إرادتي، تلك هي بغيتي، فتنازل وأتمّ كل ما ينقصني.

5- إنه لشرفٌ جزيلٌ ومجدٌ عظيم، القيام بخدمتك، واحتقار كل شيء لأجلك.
وإنهم ليحصلون على نعمةٍ عظيمة، أولئك الذين يتطوعون لخدمتك المقدّسة.
إنهم ليجدون تعزية الروح القدس الجزيلة العذوبة، أولئك الذين يطرحون كل لذةٍ جسديةٍ حباً لك.
إنهم ليفوزون بحرية روح عظيمة، أولئك الذين، من أجل اسمك، ينهجون الطريق الضيّق، ويهملون كل اهتمام دنيوي.

6- ما أطيب وألذ العبودية لله، إذ بها يصير الإنسان حراً وقديساً حقاً !
يا لقداسة الخضوع في الحياة الرهبانية! فإنه يصيّر الإنسان عديل الملائكة، مرضياً لدى الله، رهيباً للأبالسة، جديراً بالمديح لدى جميع المؤمنين.
يا لها عبودية، خليقةً بأن يبتغيها الإنسان أبداً ويعتنقها ! إذ بها يستحق الخير الأسمى، ويقتنى الفرح الدائم، الذي لا نهاية له.

*** ***

الفصل الحادي عشر

في أنه يجب فحص رغائب القلب وضبطها

1- المسيح : يا بنيّ، عليك أن تتعلم بعد أموراً كثيرة، لم تتقن الى الأن تعلمها.
2- التلميذ : وما هي، يا ربّ ؟
3- المسيح : هي أن تجعل رغبتك موافقة لمرضاتي تمام الموافقة، وأن لا تكون محباً لذاتك، بل غيوراً على اتباع ارادتي.
كثيراً ما تضطرم فيك الرغائب وتدفعك بشدة، ولكن انظر ما الذي يحركك : هل هو إكرامي، أم بالحري مصلحتك الشخصية ؟
فإن كنت أنا الباعث لها، تكن أنت راضياً تمام الرضى كيفما دبّرت الأمور؛ أما إن اندسّ فيها شيءٌ من طلب الذات، فذاك هو ما يعوقك ويرهقك.

4- فاحذر أن تطمئن كثيراً الى ما يخطر لك من رغبات، قبل ان تلتمس فيها مشورتي، لئلا تندم في ما بعد، أو يسوءك ما كان قد أعجبك أولاً واشتهيته كأنه الأفضل.
لا ينبغي أن تتبع، في الحال، كل ميلٍ يتراءى لك صالحاً، ولا أن تتجنب، لأول وهلة، كل ميلٍ معاكس.
من المفيد، أحياناً، أن تكبح نفسك، حتى في المقاصد والرغبات الصالحة، لئلا توقعك لجاجتها في تشتت الفكر، أو تسبب أنت عثاراً للآخرين، بخروجك عن النظام، أو تقلق وتفشل في الحال، بسبب معاكستهم لك.

5- ويجب أحياناً استعمال الشدة، ومخالفة الأهواء الحسية بحزم، وعدم الالتفات الى ما يريد الجسد أو لا يريد، بل الاجتهاد في إخضاعه للروح – وان مرغماً.
وتجب المواظبة على قمعه واستعباده، حتى يصبح مستعداً لكل شيء، ويتعلم أن يقنع بالقليل، ويلتذ بالبسيط، ولا يتذمر من شيء لا يلائمه.

*** ***

الفصل الثاني عشر

في التدرب على الصبر وفي مصارعة الشهوات

1- التلميذ : أيها الرب الهي، إني، على ما أرى، في غاية الاحتياج الى الصبر، لأن نوائب هذه الحياة كثيرة.
فكيفما تدّبرت الأمر لأكون في سلام، فحياتي لا يمكن أن تخلو من قتال وألم.

2- المسيح : أجل، يا بني؛ ولكني أريد منك أن لا تطلب سلاماً خالياً من التجارب، لا يشعر فيه بالمعاكسات؛ بل أن تحسب نفسك قد وجدت السلام، حتى إذا عنيت بمختلف المضايق، وابتليت بكثرة المحن.
فإن تقل إنه لا يمكنك احتمال هذه المحن الكثيرة، فكيف تحتمل إذن نار المطهر؟
فمن الشرّين يجب دوماً اختيار الأصغر.
فلكي تستطيع أن تنجو، في المستقبل، من العقوبات الأبدية، اجتهد أن تحتمل بأناةٍ، حباً لله، البلايا الحاضرة.
أو تظن أن أهل هذا الدهر لا يتألمون البتة، أو قلما يتألمون ؟
إنك لن تجد ذلك، ولو سألت عنه الذين هم في غاية الترف.

3- تقول : ولكنهم يتنعمّون بملذاتٍ كثيرة، وهم يتبعون مشيئاتهم الخاصة، فقلما يشعرون بثقل مضايقهم.

4- ليكن ذلك، وهب أن لهم كل ما يريدون، فكم يدوم لهم ذلك يا ترى ؟
ها إن أغنياء هذا الدهر «يبيدون كالدخان[114]»، ولا يبقى ذكرٌ لأفراحهم المنقضية.
بل ولا في مدة حياتهم نفسها، تكون راحتهم من غير مرارةٍ وضجرٍ وخوف.
فهم كثيراً ما يلقون عذاب الغم، من الأشياء عينها، التي يطلبون فيها اللذة.
وذلك عدلٌ انهم، إذ يطلبون اللذات وينقادون لها على خلاف الترتيب، لا يتمتعون بها من غير خزي ومرارة.
آه ! ما أقصر جميع اللذات وما أعظم خداعها ! ما أبعدها عن الصواب وما أشد قبحها!
على أن المنهمكين فيها لا يدركون ذلك، بسبب سكرهم وعماهم؛ بل هم، كالحيوانات العجم، يلقون موت النفس، لأجل لذة يسيرة في هذه الحياة الفانية.
فأنت إذن يا بني، «لا تكن تابعاً لشهواتك، بل عاص هواك[115]»ـ «تلذذ فيعطيك سؤل قلبك[116]».

5- فإن شئت حقاً أن تتمتع باللذة، وتنال مني تعزية أوفر، فاعلم ان في احتقار جميع الأرضيات، وفي الانقطاع عن جميع اللذات الدنيوية، تكون بركتك، وتعطى تعزية غزيرة.
وبمقدار ما تتجرّد من كل تعزيةٍ تأتي من الخلائق، تجد في تعزياتٍ أعذب وأقوى.
ولكنك لن تبلغ اليها من غير أن تقاسي، أولاً، بعض الغم وعناء الجهاد.
ستعوقك العادة المتأصلة، لكنها تغلب بعادةٍ أفضل منها.
سيتذمر الجسد، ولكنه يكبح بحرارة الروح.
ستغريك الحيّة القديمة وتعنتك، لكنها تهزم بالصلاة؛ والشغل المفيد، خصوصاً، يوصد دونها أعظم مدخل.

*** ***

الفصل الثالث عشر

في طاعة المرؤوس المتواضع على مثال يسوع المسيح

1- المسيح : يا بنيّ، من حاول التملص من الطاعة، تملص من فعل النعمة؛ ومن طلب الخصوصيات، فقِدِ العموميات.

من لا يخضع لرئيسه عن اختيار وطيبة نفس، فقد دلّ أن جسده لا يطيعه بعد طاعة كاملة، بل كثيراً ما يتمرّد ويتذمر.
فإن شئت قمع جسدك، فتعلم أن تخضع بسرعة لرئيسك.
إن العدو يغلب بسرعةٍ أعظم، ما دام في الخارج، ولم يجتح بعد الإنسان في الداخل.
ما من عدو أشد مضايقة لك وإضراراً بنفسك، منك أنت لذاتك، إن لم تكن على حسن وفاقٍ مع الروح.
فعليك، حتماً، أن تحتقر ذاتك احتقاراً صادقاً، إن شئت أن تتغلب على اللحم والدم.
لكنك، إذ لا تزال تحب نفسك بإفراط، فأنت تخشى أن تفوّض أمرك تماماً الى إرادة الآخرين.

2- وما هو العظيم في ان تخضع نفسك لإنسان من أجل الله، وأنت ترابٌ وعدم، في حين أني أنا القدير العلي، الذي خلق كل الأشياء من العدم، قد خضعت للإنسان متواضعاً من أجلك؟
لقد صرت أوضع الجميع وأحقرهم، لكي تغلب أنت كبرياءك بتواضعي.
تعلم أن تطيع أيها الغبار؛ تعلم أن تتضع أيها التراب والطين، وأن تنحني تحت أقدام الجميع.
تعلم أن تكسر إرادتك، وأن تخضع لكل ما تؤمر به.

3- إحتدم على ذاتك، ولا تدع فيك مكاناً للانتفاخ؛ بل أبد من الخضوع والتصاغر، ما يتيح للجميع أن يمشوا عليك، ويدوسوك مثل حمإ الأسواق.
فما لك تشكو، أيها الإنسان الباطل الرأي ؟ بم تستطيع، أيها الخاطىء الرّجس، أن ترد على معيّريك، وأنت كثيراً ما قد أهنت الله، وكثيراً ما استحققت جهنم ؟
لكن عيني قد أشفقت عليك، لان نفسك كانت كريمة أمامي، لكي تعرف أنت محبتي، وتكون أبداً شكوراً لاحساناتي، مستسلماً للخضوع والتواضع الحقيقيين، ومحتملاً بصبرٍ ما يلحقك من الهوان.

*** ***

الفصل الرابع عشر

في وجوب التأمل في أحكام الله الغامضة

لئلا تستكبر في الصلاح

1- التلميذ : إنك ترعد عليّ بأحكامك يا رب، وترعش جميع عظامي خوفاً ورعدة، فترتاع نفسي ارتياعاً شديداً.
أقف مشدوهاً وأتأمل في «أن السموات غير نقية في عينيك[117]».
إن كنت قد وجدت الشر في الملائكة ولم تشفق عليهم، فما عسى أن يكون نصيبي ؟
«لقد تساقطت الكواكب من السماء[118]»، فأنا التراب ماذ أتوقع ؟
إن الذين كانت أعمالهم تظهر جديرة بالمديح، قد سقطوا الى الأسافل، والذين كانوا يأكلون خبز الملائكة، قد رأيتهم يتلذذون بخرنوب الخنازير !

2- فلا قداسة إذن، إن نزعت يدك يا ربّ، ولا تنفع الحكمة أن كففت عن التدبير، ولا فائدة في القوة إن انقطعت عن الحفظ، ولا مأمن للعفة إن لم تكن أنت حاميها؛ ولا ينفع الإنسان سهره على نفسه، إن لم تسهر أنت عليه بحراستك القدّوسة.
فإن تركتنا، نغرق ونهلك؛ ولكن إن افتقدتنا، ننتعش ونحيا.
إنا متزعزعون، ولكنّا بك نتوّطد؛ وفاترون، ولكننا بك نضطرم.

3- آه ! كم يجب علي أن أتضع وأتحاقر في نفسي، وأن أحسب كلا شيء ما قد يتراءى فيّ من الصلاح !
آه ! بأي تذللٍ يجب أن أخضع لأحكامك يا ربّ، التي لا يسر غورها، والتي لا أجد فيها نفسي سوى عدمٍ أي عدم !
يا ثقلا لا يقدّر، ويا لجة لا تعبر، لا أجد فيها من ذاتي سوى العدم، كل العدم !
فأين مختبأ الافتخار ؟ أين التوكل على الفضيلة ؟

إن كل عجبٍ باطل، قد ابتلع في لجج أحكامك عليّ.

4- ما هو كل بشرٍ في عينيك ؟
«أيفتخر الطين على جابله[119]» ؟
كيف يستطيع أن يترفع بالفخفخة، من كان قلبه خاضعاً لله في الحق ؟
إن من أخضعه الحق لذاته، لا يستطيع العالم كله أن يحمله على الترّفع؛ ومن وّطد كل رجائه في الله، فمديح الناس جميعاً لا يزعزعه.
فإن أولئك المتكلمين جميعاًُ، هم أنفسهم ليسوا بشيء، إذ هم يضمحلون مع صوت كلامهم؛ أما «صدق الرب فيدوم الى الأبد[120]».

*** ***

الفصل الخامس عشر

كيف يجب أن نسلك ونتكلم في كل أمر مشتهى

1- المسيح : يا بنيّ، هكذا قل في كل شيء : ربّ، إن حسن لديك، فليكن الأمر على هذا النحو.
ربّ، إن كان في ذلك كرامتك، فليتم باسمك.
ربّ، إن رأيت أن ذلك يصلح لي، وعلمت أنه يفيدني، فهب لي إذ ذاك أن أستعمله لاكرامك.
ولكن إن كنت تعلم أنه مضرّ بي، وغير مفيدٍ لخلاص نفسي، فانزع مني مثل تلك الرغبة.
إذ ما كل رغبةٍ هي من الروح القدس، وإن تراءت للإنسان مستقيمة صالحة.
إنه لصعبٌ عليك أن تحكم، حقاً، هل هو روحٌ صالحٌ أم شرير، ما يدفعك الى الرغبة في هذا الشيء أو ذاك، أم هو أيضاً روحك الذاتيّ يحركك اليه.
فإن كثيرين قد خدعوا عند النهاية، وقد كانوا في البدء يظنون أنهم منقادون للروح الصالح.

2- فكل ما يخطر على بالك من أمر مشتهى، فبمخافة الله وتواضع القلب، يجب دائماً أن تبتغيه وتطلبه؛ ويجب، خصوصاً أن تفوض الى كل شيء باستسلام تام، وأن تقول :
ربّ أنت تعلم ما هو الأفضل؛ فليكن هذا او ذاك، بحسب ما تشاء.
أعطني ما تشاء، وبقدر ما تشاء، ومتى تشاء.
عاملني كما تعلم، وبما يكون أكثر مرضاةً وتمجيداً لك.
ضعني حيثما تشاء، وتصرّف في بحريةٍ في كل شيء.
إني في يدك، فدوّرني وقلبني الى كل جهة.
ها أنا ذا عبدك المستعد لكل شيء، إذ لا أريد أن أحيا لذاتي، بل لك؛ ويا حبذا لو تسنى لي ذلك كما يليق وعلى جهٍ كامل !

صلاة يلتمس بها تتميم إرادة الله

3- التلميذ : يا يسوع العطوف جداً، هب لي نعمتك «لتكون معي وتجدّ معي[121]»، وتثبت معي حتى المنتهى.
أعطني أن أبتغي وأريد، دوماً، ما هو احبُّ اليك واكثر مرضاةً لك.
لتكن مشيئتك مشيئتي، ولتتبع إرادتي، دوماً، إرادتك، ولتوافقها أتمّ الموافقة.
ليكن لي وإياك إرادةٌ واحدةٌ ورفضٌ واحد، فلا أستطيع أن أريد أو أرفض، إلا ما تريده أنت أو ترفضه.

4- هب لي أن أموت عن كل ما في العالم، وأن أحبّ الاحتقار وخمول الصيت في هذا الدهر، من أجلك.
أعطني أن أستريح فيك فوق كل أمرٍ مشتهى، وأن أجد فيك سلام القلب.

أنت سلام القلب الحقيقي، أنت الراحة الوحيدة، وكل ما سواك مشقة وقلق؛ «ففي هذا السلام عينيه – أي فيك وحدك، أيها الخير الأعظم الأزلي – أنام وأستريح[122]»، آمين.

*** ***

الفصل السادس عشر

في ان التعزية الحقيقية إنما يجب التماسها في الله وحده

1- التلميذ : كل ما يمكنني ابتغاؤه أو التفكير به، لأجل تعزيتي، لا أترقبه هنا بل في الآخرة.
لأنه، ولو كان لي وحدي جميع تعزيات العالم، وأمكنني التمتع بجميع لذاته، فمن الثابت أنها لن تدوم طويلاً.
ومن ثمة فلن تستطيعي يا نفسي، أن تجدي التعزية التامة والانشراح الكامل؛ إلا في الله معزي المساكين ومجير البائسين.
إنتظري قليلاً يا نفسي، إنتظري الموعد الإلهي، فتحصلي على جميع الخيرات، بوفرةٍ، في السماء.
إن أفرطت في طلب الخيرات الحاضرة، على خلاف الترتيب، خسرت الخيرات السماوية الأبدية.
فلتكن الزمنيات لاستعمالك، والأبديات موضوع أشواقك.
لا يستطيع إشباعك خيرٌ زمني، لأنك لم تخلقي للتمتع بمثل هذه الخيرات.

2- إنك، ولو حصلت على جميع الخيرات المخلوقة، لا يمكنك أن تكوني في سعادة وغبطة، لأن غبطتك وسعادتك كلها، إنما هي في الله خالق كل شيء؛ وهي ليست كما يظنها ويمتدحها محبو العالم الأغبياء، بل كما يتوقعها عباد المسيح الصالحون، وكما يتذوقها سلفاً، في بعض الأحيان، الروحانيون ذوو القلوب النقية، الذين «سيرتهم في السماوات[123]».
كل تعزية بشرية، باطلة وقصيرة.
أما التعزية السعيدة الحقة، فهي التي ينالها الإنسان في داخله من قبل الحق.
الرجل العابد يحمل معه في كل مكان يسوع معزيه، ويقول له : كن معي، أيها الرب يسوع، في كل مكان وكل زمان.
لتكن هذه تعزيتي: أن أرتاح الى الحرمان من كل تعزية بشرية.
وإن نقصتني تعزيتك، فلتكن لي مشيئتك وامتحانك العادل كأعظم تعزية.
«فإنك لست على الدوام تسخط، ولا الى الأبد تحقد[124]».

*** ***

الفصل السابع عشر

في وجوب القاء همنا كله على الله

1- المسيح : يا بنيّ، دعني أصنع بك ما أريد، فإني عالمٌ بما يوافقك.
أنت تفكر كإنسان، وكثيراً ما تحكم في الأمور، بحسب ما يسوّل لك الميل البشري.

2- التلميذ : ربّ، حقٌّ ما تقول : إن عنايتك بي، لأعظم من كل اهتمام يمكنني أن أبديه لنفسي.
ومن لا يلق عليك كل همّه، فهو على شفا سقوط هائل.
ربّ، حسبي أن تبقى إرادتي مستقيمة وموّطدة فيكِ، ثم اصنع بي ما حسن لديك.

لأن كل ما تصنعه بي، لا يمكن أن يكون إلا خيراً.
فإن شئت أن أكون في الظلام، فكن مباركاً؛ وإن شئت أن أكون في النور، فكن أيضاً مباركاً !
إن تنازلت وعزيتني، فكن مباركاً؛ وإن شئت أن أعاني الضيق، فكن أيضاً على الدوام مباركاً !

3- المسيح : يا بنيّ، هذا ما يجب أن يكون موقفك، إن ابتغيت أن تسلك معي.
عليك أن تستعد للألم استعدادك للفرح، وأن ترضى بالفقر والفاقة، رضاك بالسعة والغنى.

4- التلميذ : ربّ، إني، بنفسٍ طيبة، أحتمل لأجلك كل ما تريد أن ينزل بي.
إني أريد أن أقبل من يدك، دون ما تمييز، الخير والشر، الحلو والمر، ما يفرّح وما يحزن، وأن أشكرك على كل ما يحدث لي.
إحفظني من كلِ خطيئة، فلا اخاف الموت ولا الجحيم.
حسبي أن لا «تقصيني الى الأبد»، «ولا تمحوني من سفر الحياة»، ومهما حلّ بي من ضيق بعد ذلك، فلن يضرّني.

*** ***

الفصل الثامن عشر

في احتمال المشقات الزمنية بانـاة على مثال المسيح

1- المسيح : يا بنيّ، أنا نزلت من السماء لأجل خلاصك، وحملت شقاءك لا عن اضطرار، بل مدفوعاً بالمحبة، لكي تتعلم الصبر وتحتمل الشقاء الزمني، من غير تذمر.
فإني، من ساعة ميلادي، حتى مماتي على الصليب، لم أخل من مكابدة الأوجاع.
لقد كنت في فاقة شديدةٍ من الخيرات الزمنية، وكثيراً ما سمعت على شتى التذمرات، تحمّلت، بحلم، الخزي والعار؛ كوفئت على الإحسان بالكنود، وعلى المعجزات بالتجاديف، وعلى التعليم بالتوبيخات.

2- التلميذ : ربِ، بما أنك قد كنت صبوراً في حياتك، وبذلك خصوصاً قد أتممت أمر أبيك، فمن العدل أن أعتصم بالصبر وفق مشئيتك، أن الخاطئ التاعس جداً، وأن أحمل، لأجل خلاصي، ثقل هذه الحياة الفانية، ما دمت أنت تريد ذلك.
فإن الحياة الحاضرة، مهما بدت باهظة، قد أصبحت الآن، بنعمتك، ذات استحقاقات وافرة؛ وبمثالك وآثار قديسيك، قد صارت للضعفاء أخف حملاً وأوفر ضياءً.
بل أضحت أغزر تعزية، بكثير، مما كانت عليه قبلاً في الشريعة القديمة، إذ كان باب السماء لا يزال مغلقاً، والطريق الى السماء أشدّ ظلاماً، والمهتمون بملكوت السماوات قليلين جداً.
حتى إن الصديقين أنفسهم حينذاك، ألمعدين للخلاص، لم يكن في استطاعتهم، قبل آلامك وجزية موتك المقدّس، أن يدخلوا الملكوت السماوي.

3- آه ! كم يجب لك عليّ من الشكر، لكونك تنازلت فهديتني، أنا وجميع المؤمنين، الى الطريق القويم الصالح، المفضي الى ملكوتك الأبدي !
فحياتك هي طريقنا، وبالصبر المقدّس نسعى اليك أنت إكليلنا.
فلو لم تسر أمامنا وترشدنا، فمن كان يهتم باتباعك ؟
أوهّ كم من الناس كانوا يتخلفون بعيداً عنك، لو لم تكن أمثلتك السنية نصب عيونهم!
ها نحن لا نزال فاترين الى الآن، حتى بعد ما سمعنا بآياتك وتعاليمك الكثيرة. فما كان مصيرنا لو لم نحصل على مثل هذا النور، الذي يرشدنا الى اتباعك ؟

*** ***

الفصل التاسع عشر

في احتمال الاهانات، وفي من هو الصبور حقاً

1- المسيح : ماذا الذي تقول، يا بني؟ كفّ عن التشكي، لدى تأملك في آلامي وآلام سائر القديسين.
«إنك لم تقاوم بعد حتى الدم[125]».
وما تتحمله أنت، قليل بالنسبة الى ما تحمله أولئك الذين قاسوا شتى المضايق : فلقد جرّبوا بشدة، وعانوا المشقات العظيمة، وامتحنوا وابتلوا على وجوهٍ كثيرة.
فعليك أن تعيد الى ذهنك شدائد الآخرين العظيمة، ليسهل عليك احتمال شدائدك اليسيرة.
فإن تراءت لك غير يسيرة، فاحذر أن يكون ذلك أيضاً من قلة صبرك.
وعلى كلٍ، فسواءٌ كانت يسيرة أم عظيمة، فاجتهد أن تحتملها جميعاً بالصبر.

2- بمقدار ما تسحن إعداد نفسك للاحتمال، تزداد حكمةً في سيرتك، ويتضاعف ثوابك؛ بل إن حملك ليخف عليك، إن استعددت له بالحزم والتمرّن من غير كسل.
ولا تقل : إني لا أستطيع احتمال هذه الشدائد من فلان، ولا احتمالها على هذا النحو : فقد جلب عليّ ضرراً عظيماً، وهو يعيرني بأمور لم أكن لأفكر بها؛ أما من غيره فأحتمل بنفس طيبة، وكما أستصوب الاحتمال.
فمثل هذه، إنما هي أفكار غبيّ، لا يلتفت الى فضيلة الصبر ولا الى من سوف يكللها، بل ينظر بالحريّ الى الإهانات، والى الأشخاص الذين ألحقوها به.

3- ليس بالصبور الحقيقي، من أبى أن يحتمل إلا بمقدار ما يشاء وممن يشاء ؛
أما الصبور الحقيقيّ، فلا يلتفت الى من هو الإنسان الذي يضايقه : أرئيسٌ هو أم عديلٌ أم مرؤوس؟ أرجلٌ صالحٌ قديس، أم شريرٌ نذل ؟
لكنه – أيّاً كانت الخلائق التي تعاكسه، وأيّاً كانت شدة هذه المعاكسات وكثرتها – يتقبّل كل شيء، شاكراً، من يد الله، دون ما تمييز، محتسباً ذلك رئجاً عظيماً، لأن كل ضيقٍ – مهما كان يسيراً – إن احتمل لأجل الله، لا يمكن أن يذهب عنده بغير أجر.

4- فكن إذن متجرداً للقتال، إن شئت أن تفوز بالظفر.
فإنك، بغير جهاد، لا تستطيع البلوغ الى إكليل الصبر.
إن أبيت الاحتمال، رفضت الإكليل.
فإن رمت إحراز الإكليل، فجاهد ببأسٍ واحتمل بجلد.
لا يبلغ الى الراحة بغير عناء، ولا يحرز النصر بغير قتال.

5- التلميذ : ربّ، ليصبح مستطاعاً لي بالنعمة، ما يتراءى لي مستحيلاً بالطبيعة.
أنت تعلم أني قليل الجلد، سريع الفشل، عند قيام أدنى شدّة.
فليصبح لي مستحباً شهياً، من أجل اسمك، كل ابتلاءٍ بالضيق؛ فإنه من المفيد جداً لخلاص نفسي، أن أتألم وأضايق من أجلك.

*** ***

الفصل العشرون

في اعتراف الانسان بوهنه الذاتي، وفي شقاء هذه الحياة

1- التلميذ : «أعترف بإثمي، وأشهد على نفسي[126]»، أعترف لك يا رب بوهني.
إنه، في الغالب، لأمرٌ يسير، ما يهدّ عزمي ويحزنني.
أقصد العمل بجِزم، ثم أتضايق جِداً لأصغر محنة.

أمرٌ حقيرٌ جداً ينشئ لي، أحياناً، تجربة شديدة؛ وحينما أطن نفسي في بعض الأمان، لا أشعر، أحياناً، إلا وريحٌ خفيفة قد أوشكت أن تصرعني.

2- فانظر، يا رب، الى مذلتي، والى وهني الواضح لديك من كل جهة.
«ارحمني وأنقذني من الوحل لئلا أغرق[127]»، فأستمر غائصاً فيه الى المنتهى.
إن ما يعذبني كثيراً ويحزنني أمامك، إنما هو سرعة زلقي، وشدّة وهني في مقاومة الأهوا.
وإن أنا لم أستسلم لها استسلاماً تاماً، فملاحقها لي تزعجني وتبهظني؛ ويسئمني أشدّ السأم أن أعيش هكذا في كفاح دائم.
من هذا يتبيّن لي وهني: أن الخيالات السمجة، هي دوماً أسرع جداً الى اجتياحي مما الى مبارحتي.

3- فيا أيها القدير، إله إسرائيل، الغيور على النفوس الأمينة، ليتك تنظر الى عناء عبدك وآلامه، وتساعده في كل ما يتوّجه اليه !
شدّدني بقدرتك السماوية، لئلا يتسلط عليّ الإنسان العتيق، أي الجسد الشقيّ، الذي لم يخضع بعد تماماً للروح، والذي يجب عليّ مكافحته ما دام في نفسٌ في هذه الحياة الشقيّة.
أوه ! ما هذه الحياة ؟ فالضيق والشقاء لا يبرحانها، وكل ما فيها مكتنفٌ بالحبائل والأعداء !
فإن زالت شدّةٌ أو تجربة، حلت مكانها أخرى؛ بل قد تكون المعركة الأولى لا تزال دائرة، وإذا بمعارك كثيرة غيرها تنشب، وعن غير توّقع.

4- فكيف يمكن أن تحب حياةٌ فيها مثل هذه المرارات، وهي عرضةٌ لمثل هذه الكوارث والشقاوات ؟
بل كيف يمكن أن تسمى حياةً، وهي تنشئ الموت والأوبئة الكثيرة ؟
ومع ذلك، فكثيرون يحبونها ويطلبون التنعم فيها.
كثيراً ما يذمّ العالم لخداعه وبطلانه ؛ ومع ذلك لا يترك بسهولة، لأن شهوات الجسد متسلطة الى الغاية.
غير أنّ من الأشياء ما يحمل على حب العالم، ومنها على ازدرائه.
أما ما يحمل على حب العالم، فهو «شهوة الجسد وشهوة العين وصلف الحياة[128]»؛ وأما ما يولد كره العالم والسأم منه، فهو ما ينشأ عن ذلك، بعدلٍ من العذاب والشقاء.

5- ولكن – ويا للأسف ! – إن اللذة الرديئة تغلب العقل المنهمك في الدنيا، فيحسب «العيش تحت الأشواك[129]» نعيماً، لأنه لم يرَ ولم يتذوّق عذوبة الله، ولا حلاوة الفضيلة الداخلية.
أما الذين يزدرون العالم تمام الازدراء، ويجتهدون في ان يحيوا لله تحت قانون مقدّس، فهم لا يجهلون العذوبة الإلهية، التي وعد بها الزهاد الحقيقيون، ويرون جلياً ما أعظم ضلال العالم وأكثر غوايته.

*** ***

الفصل الحادي والعشرون

في وجوب الاستراحة في الله فوق جميع الخيرات والمواهب

1- التلميذ : يا نفس، استريحي دائماً في الرب فوق كل شيء وفي كل شيء، فإنه هو راحة القديسين الأبدية.
يا يسوع العذب الحبيب جداً، هب لي أن أستريح فيك فوق كل خليقة.
فوق كل عافيةٍ وجمال، فوق كل مجدٍ وكرامة ؛
فوق كل اقتدارٍ ووجاهة، فوق كل علم ودهاء ؛
فوق كل ثروةٍ وفن، فوق كل سرورٍ وابتهاج ؛
فوق كل سمعةٍ ومديح، فوق كل عذوبة وتعزية ؛
فوق كل أملٍ وموعد، فوق كل استحقاقٍ ورغبة ؛
فوق كل ما يمكنك أن تمنح وتفيض من المواهب والعطايا، فوق كل فرحٍ وتهلل، يمكن العقل إدراكه والشعور به ؛
أخيراً فوق الملائكة ورؤساء الملائكة، وفوق جميع جيش السماء ؛
فوق جميع المنظورات وغير المنظورات، فوق كل ما ليس إياك يا إلهي.

2- لأنك أنت، أيها الرب إلهي، صالحٌ فوق كل شيء ؛
أنت وحدك العلي، أنت وحدك القدير.
أنت وحدك الغني المكتفي، أنت وحدك الجزيل العذوبة والتعزية.
أنت وحدك الكثير الجمال والمحبة، أنت وحدك الكريم المجيد فوق كل شيء.
فيك اجتمعت الخيرات كلها كاملة منذ الأزل، ولا تزال ولن تزال.
ولذلك فكل شيء سواك، تعطينيه أو تعلنه لي عنك أو تعدُني به، فهو قليلٌ وغي كافٍ، إن لم أرك وأتمتع بك تمتعاً كاملاً.
فقلبي لا يقدر أن يستريح حقاً أو يسرّ تماماً، إلا إذا استراح فيك متسامياً فوق كل عطيةٍ وكل خليقة.

3- أيها المسيح يسوع، عروسي المحبوب جداً، أيها المحب الجزيل الطهر، وسيد الخليقة كلها، «من لي بأجنحة الحرية الحقة، فأطير وأستريح فيك[130] !»

آه ! متى يتاح لي أن أتفرّغ لك تفرّغاً كاملاً، «فانظر ما أطيبك، أيها الرب إلهي[131]!»
متى أختلي فيك بالتمام، حتى لا أعود أشعر بنفسي بسبب الحب، بل بك أنت وحدك، على وجهٍ يفوق كل حسٍ وحدّ، على وجهٍ لا يعرفه الجميع؟
أما الآن فكثيراً ما أئنّ، وفي الوجع أحمل شقائي ؛
لأن شروراً كثيرة تنتابني في وادي الشقاء هذا، وكثيراً ما تقلقني وتحزنني، وتلقي الظلمة في نفسي.
وغالباً ما تعوقني، وتشتتني، وتتملقني، وتعرقل سيري عن البلوغ اليك بحرية، لئلا أتنعم بتلك المعانقات العذبة، التي تتنعم بها دوماً أرواح المغبوطين.
فتحنن على زفراتي، وعلى كثرة وحشتي في هذه الأرض.

4- يا يسوع «ضياء المجد الأزلي[132]»، وتعزية النفس المنفيّة، إن فمي بلا صوتٍ أمامك، وصمتي هو الذي يكلمك.
إلى متى يبطئ سيدي عن المجيء ؟
ليأت اليّ ويفرّج عني، أنا عبده المسكين ! ليمدد يده وينقذني من الضيق أنا الشقيّ!
هلم! هلم! فبدونك لا يوم سرور بل ولا ساعة، لأنك أنت سروري، وبدونك مائدتي فارغة.
تاعسٌ أنا، ومثل سجينٍ مثقلٍ بالقيود، الى أن تنعشني بنور حضورك، وتمنحني الحرية، وتظهر لي بوجهٍ عطوف.

5- ليطلب الآخرون ما حسن عندهم بدلاً منك؛ أما أنا، فلا يحسن ولن يحسن عندي سواك أنت يا إلهي، رجائي وخلاصي الأبدي.
إني لن أصمت ولن أنقطع عن الابتهال، حتى تعود الى نعمتك، وتكلمني أنت في داخلي.

6- المسيح : «ها أنا ذا! ها قد أقبلت اليك، لأنك دعوتني[133]».
إن دموعك ورغبة نفسك، وتواضعك وانسحاق قلبك، قد استمالتني واقتادتني اليك.

التلميذ : فقلت : دعوتك، رب، واشتهيت أن أتمتع بك، وإني لمستعدٌ أن أنبذ كل شيء لأجلك.
فإنك أنت قد ابتدرتني أولاً وحرّضتني على طلبك.

فكن مباركاً أيها الربّ، «لأنك صنعت هذا الخير مع عبدك، بحسب كثرة رحمتك[134]!»
فما لعبدك أن يقول بعد امامك، إلا ان يتضع في حضرتك جداً، متذكراً على الدوام آثامه وحقارته ؟
فإنه لا مثيل لك في كل آيات السماء والأرض.

إن «أعمالك حسنةٌ جداً[135]»، «وأحكامك حق[136]» «وبعنايتك تدّبر كل شيء[137]».
فلك التسبيح والمجد يا حكمة الآب! ليسّبحك ويبارك فمي ونفسي، والخلائق كلها معاً!

*** ***

الفصل الثاني والعشرون

في تذكر احسانات الله الكثيرة

1- التلميذ : «إفتح يا ربّ قلبي لشريعتك[138]»، وعلمني أن أسلك في رسومك.
هب لي أن أفهم مشيئتك، وأن أتذكر، باحترامٍ عظيمٍ واعتبار جدي، جميع إحساناتك، العامة منها والخاصة، علني أستطيع أن أشكرك عليها الشكر اللائق!
على أنني أعلم وأقرّ بعجزي عن تأدية الشكر الواجب، وإن لأقل أفضالك.
أنا دون جميع الخيرات التي جدت بها عليّ؛ وإذ أتأمل جودك، يغشى على روحي بسبب عظمتك.

2- كل ما لنا، في النفس والجسد، وكل ما نملك، في الداخل أو في الخارج، من طبيعي أو فائق الطبيعة، إنما هو من إحسانك، ويشهد أنك أنت المحسن الحنون الصالح، الذي منه نلنا جميع الخيرات.
وإن نال الواحد اكثر والآخر أقل، فكل شيء، مع ذلك، هو منك، وبدونك لا ينال شيءٌ مهما كان زهيداً.
فالذي نال اكثر، لا يستطيع أن يفتخر باستحقاقه، ولا أن يترّفع على الآخرين، أو يعيّر من كان دونه، لأن الأعظم والأفضل، هو من لم ينسب خيراً لنفسه، بل كان أكثر تواضعاً وعبادةً في شكره.
ومن احتسب نفسه أحقر الجميع وأقلهم استحقاقاً، فهو أكثرهم أهلية لنيل إحسانات أعظم.

3- أما الذي نال أقلّ، فعليه أن لا يحزن ولا يتذمر، ولا يحسد من هو أغنى منه؛ بل بالحريّ أن ينظر اليك، ويسبّح جودك أعظم تسبيح، لأنك تفيض مواهبك مجاناً، بسخاءٍ وارتياح عظيمين، ومن غير محاباةٍ للوجوه.
كل شيءٍ هو منك؛ ولذلك ففي كل شيءٍ يحق لك التسبيح.
أنت تعلم ما يصلح أن يعطى لكل واحد، وليس لنا نحن أن نعرف لم الواحد نال أقل والآخر أكثر؛ بل تلك المعرفة تخصك أنت، وقد حدّد عندك استحقاق كل أحد.

4- لذلك أيها الرب الإله، إني أعتدُّ إحساناً عظيماً، أنني غير حاصلٍ على كثيرٍ من المواهب، التي تستجلب في الخارج مديح الناس وإعجابهم.
فالإنسان، إذا تأمل في فقره وحقارة شخصه، عليه ليس فقط ان لا يكتئب أو يحزن أو يسترخي، بل ان يتعزّى، بالحريّ، ويفرح جداً، لأنك أنت، أللهمّ، قد اخترت لنفسك المساكين والأذلاء ومحتقري هذا العالم، خلاناً لك وألفاء.
والشاهد بذلك رسلك أنفسهم، الذين «أهمتهم رؤساء على جميع الأرض[139]».
فإنهم سلكوا في العام من غير ملامة، فكانوا من التواضع والبساطة، والبعد عن كل مكرٍ وغش، بحيث «يفرحون حتى باحتمال الإهانات من أجل اسمك[140]»، ويعتنقون، بشغف عظيم، ما يستكرهه العالم.

5- فعلى محبّك الذي عرّف إحساناتك، أن لا يفرح بشيءٍ آخر، فرحه بأن تتمّ فيه مشيئتك، ومرضاة تدبيرك الأزلي.
فبذلك وحده يجب أن يكتفي ويتعزّى، بحيث يرضى ، بارتياح، أن يكون هو الأصغر، كما يتمنى غيره أن يكون الأعظم، وأن يكون مطمئناً راضياً في المرتبة الأخيرة، كما في المرتبة الأولى، وان يرتاح الى الازدراء والهوان، وخمول الاسم والصيت، ارتياح الآخرين الى التسامي في المجد والعظمة لدى العالم.
فمشيئتك وحبّ كرامتك، يجب أن يعلوا كل شيء، وفيهما يجب أن يجد من التعزية والمسرّة، فوق ما يجد في جميع الاحسانات التي منحته أو ستمنحه إياها.

*** ***

الفصل الثالث والعشرون

في أربعة أمور تولي سلاماً عظيماً

1- المسيح : يا بنيّ، إني معلمك الآن طريق السلام والحرية الحقة.

2- التلميذ : ربّ، إصنع ما تقول، فإن استماع ذلك مستحبٌّ عندي.

3- المسيح : اجتهد، بنيّ، أن تعمل بالأولى مشيئة الآخرين، لا مشيئتك.
آثر دوماً امتلاك الأقل، على امتلاك الأكثر.
أطلب دائماً المكان الأدنى، واسع أن تكون دون الجميع.
إبتغ دوماً وصلّ أن تتم فيك مشيئة الله كاملة.
فمن كان فيه مثل هذه الاستعدادات ، يدخل ديار السلام والراحة.

4- التلميذ : ربّ، إن كلامك هذا الوجيز، ليتضمن الكثير من الكمال.
إنه قليلُ الألفاظ ؛ ولكنه كثير المعاني، وافر الثمار.
فلو استطعت حفظه بأمانة، لما كان القلق ينشأ فيّ بسهولة.
إذ إني كل مرة أشعر بالقلق والغمّ، أجد نفسي قد ابتعدت عن هذا التعليم.
لكن، أنت أيها القدير على كل شيء، والمحب دوماً تقدّم نفسي، زدني نعمة – ونعمة أعظم – فأنفذ كلامك، وأتمّم علم خلاصي.

صلاة لمقاومة الأفكار الشريرة

5- «أيها الربُّ إلهي، لا تبعد عني؛ إلهي، إلتفت الى نصرتي[141]»، فلقد ثارت في افكار شتى، ومخاوف عظيمة تضايق نفسي.
فكيف أجتازها سالماً ؟ كيف أحطمها ؟

6- « أنا أسير أمامك[142]» - يقول الرب – وأحط عظماء الأرض ؛ أفتح أبواب السجن، وأعلن لك خفايا الأسرار.

7- إصنع يا ربُّ كما تقول، ولتهرب من وجهك جميع أفكار السوء.
هذا هو رجائي وتعزيتي الوحيدة : أن ألتجئ اليك في كل ضيق، وأن أتوكل عليك، وأدعوك من الصميم، وأتوّقع بصبرٍ تعزيتك.

صلاة لاستنارة العقل

8- أنرني يا يسوع الصالح، بسنى النور الداخلي، وأزل من مسكن قلبي جميع الظلمات.
إكبح تشتتاتي الكثيرة، واحظم تجاربي المرهقة.
قاتل عني ببأس، وأخضع الوحوش الضارية، أعني الشهوا الخدّاعة، فيسود السلام بقوّتك، ويدوّي تسبيحك العظيم في دارك المقدّسة، أي في الضمير الطاهر.
«مر الرياح والعواصف، وقل للبحر : اسكن؛ وللشمال : لا تهبّي فيكون هدوءٌ عظيم[143]».

9- «أرسل نورك وحقك[144]»، ليضيئا على الأرض، فإني أرضٌ خاويةٌ خالية، الى أن تنيرني.
أفض نعمتك من العلى، واعمر قلبي بندى السماء ؛ أسكب مياه التقوى، واسق وجه الأرض، فتؤتي ثمراً جيداً، غاية في الجودة.
أنعش نفسي الرازحة تحت وقر الخطايا، وعلق بالسماويات جميع رغائبي، حتى إذا تذوقت عذوبة السعادة العلوية، أسأم التفكير في الأرضيات.
إختطفني وأنقذني من لك تعزيةٍ عابرة، تأتيني من الخلائق؛ فليس لخليقةٍ أن تولي رغبتي راحة وتعزية كاملة.
ضمّني اليك برباط حبٍ لا يفصم، إذ فيك وحدك للمحب كفاية، وكل شيء بدون باطل.

*** ***

الفصل الرابع والعشرون

في اجتناب البحث الفضولي عن سيرة الآخرين

1- المسيح : يا بنيّ، لا تكن فضولياً، ولا تحمّل نفسك هموماً باطلة.
ما لك وهذا الأمر أو ذاك ؟ «أنت اتبعني[145]».
ماذا يعنيك أن يكون فلانٌ كذا أو كذا، أو أن يسلك فلانٌ أو يتكلم على هذا النحو أو ذاك؟
ما عليك أن تجيب عن الآخرين، لكنك عن نفسك ستؤدي الحساب. فما لك إذن تلبّك ذاتك ؟
ها إني أعرف جميع الناس، وأرى كل ما يحدث تحت الشمس، وأعلم شأن كل أحد: بم يفكر، وماذا يريد، والى أية غايةٍ تتجه نيته.
فإليّ إذن يجب تفويض كل شيء؛ أما أنت، فاحفظ نفسك في السلام والطمأنينة، ودع المضطرب يضطرب ما شاء.
فعليه سيرتد كل ما يفعل أو يقول، لأنه لا يقدر أن يخدّعني.

2- لا تجعل همّك في طلب ظل السمعة العظيمة، ولا في مؤالفة الكثيرين، ولا في محبة خاصةٍ من البشر.
فتلك أمورٌ تولد تشتت الفكر، وادلهمام الظلمات في القلب.
لو ترّقبت مجيئي بتيّقظ، وفتحت لي باب قلبك، لارتحت أن أخاطبك بكلمتي، وأن أعلن لك أسراري.
فتبصّر، «واسهر في الصلوات[146]»، واتضع في كل شيء.

*** ***

الفصل الخامس والعشرون
في ما يقوم به سلام القلب الثابت والتقدم الحقيقي

1- المسيح : بنيّ، لقد قلت : «السلام أستودعكم! سلامي أعطيكم! لست كما يعطي العالم أعطيكموه[147]».
الجميع يرغبون في السّلام، ولكن الجميع لا يعنون بما يأول الى السلام الحقيقي.
إن سلامي مع المتواضعين وودعاء القلوب، وسلامك يكون في الصبر الجزيل.
إن سمعت لي واتبعت كلامي، أمكنك التمتع بوفرة السلام.

2- التلميذ : فما أصنع إذن ؟

3- المسيح : عليك، في كل أمر، أن تنتبه لما تفعل وتقول، وأن لا تقصد سوى مرضاتي أنا وحدي وأن لا تبتغي أو تطلب شيئاً آخر غريباً عني .
لا تحكم حكماً باطلاً في أقوال الآخرين أو أفعالهم، ولا ترتبك في أمورٍ لم يعد اليك فيها، وحينئذٍ يتسنى لك أن لا تضطرب إلا قليلاً أو نادراً.
أما عدم الشعور أبداً بالقلق، والخلو من معاناةٍ بعض الضيق في الروح أو الجسد، فليس هو من شؤون هذه الحياة، ولكنه حال الراحة الأبدية.
فلا تحسبن إذن أنك قد وجدت السلام الحقيقي، إن كنت لا تشعر بمشقةٍ البتة؛ ولا أن كل شيء على أحسن حال، إن لم يكن من يقاومك ؛ ولا ان ذلك من الكمال، إن كانت جميع الأمور تجري وفق مرامك ؛
ولا تحسبنّ أنك شيءٌ عظيم، أو أن الله يؤثرك بمحبة خاصة، إن شعرت بحرارة العبادة وعذوبتها، لأنه ليس في ذلك يعرف المحب الحقيقي للفضيلة، ولا به يقوم تقدّم الانسان وكماله.

4- التلميذ : فبم إذن، يا ربّ ؟

5- المسيح : بأن تقرّب ذاتك للإرادة الإلهية، بكل قلبك، غير طالبٍ ما هو لك في صغيرٍ ولا في كبير، في الزمان ولا في الأبد، بحيث تستمر ثابت الوجه، شاكراً لي في اليسّر والعسر، وازناً كل شيء بميزان الانصاف.

إن كنت ثبتاً صبوراً في الرجاء – بحيث تستطيع، إذا زالت عنك التعزية الداخلية، أن تعدّ قلبك حتى لاحتمال محن أعظم، ولا أن تزكي نفسك كغير مستوجب مثل هذه المحن الشديدة، بل تزكيني أنا، وتشيد بقداستي في جميع تدابيري – فعندئذٍ تسير في الطريق الحق القويم، أي طريق السلام، ويكون رجاؤك وطيداً بأنك ستعود «فتعاين وجهي بالتهليل[148]».
وإذا بلغت الى احتقار ذاتك احتقاراً كاملاً، فاعلم انك تتمتع حينئذٍ بوفرة السلام، بمقدار ما تمكنك من ذلك حال غربتك الحاضرة.

*** ***

الفصل السادس والعشرون
في سمو حرية الروح
التي تستحق بالصلاة والابتهال أكثر مما بالدرس

1- التلميذ : ربّ، إنه لمن شأن الرّجل الكامل، أن لا يتراخى أبداً في توجيه روحه الى السماويات، وأن يجتاز الهموم الكثيرة كمن لا هم له، ولكن لا كرجل مخدّر الشعور، بل بفضل حرية الروح، ودون أن يميل به الهوى الى التعلق بخليقةٍ البتة.

2- إني أستحلفك، يا إلهي الجزيل الحنو، أن تصونني من هموم هذه الحياة، لئلا ارتبك فيها بإفراط ؛ ومن حاجات الجسد الكثيرة، لئلا تأسرني باللذة، ومن جميع عوائق النفس، لئلا تحطمني المضايف فأفشل.
ولست أعني أن تقيني من تلك الأمور التي يصبو اليها الزهو العالمي بكل شغف، بل من تلك المشقات، التي بسبب اللعنة الشاملة لجنسنا المائت، تزهق نفس عبدك، عقاباً له، وتعوقه عن الدخول في حرية الروح، كلما أراد ذلك.

3- يا إلهي، العذوبة التي لا توصف، حوّل لي إلى مرارة، كل تعزية جسديةٍ تلهيني عن حب الأبديات، وتتملقني شرّ التمليق، بمنظر خيرٍ شهي وقتيّ.
لا يغلبنّني، يا إلهي، لا يغلبنني اللحم والدم، ولا يخدّعنني العالم بمجده القصير، ولا يصرعنّني إبليس بمكره.
أعطني قوة للمقاومة، وصبراً للاحتمال، وحزماً للثبات.
أعطني، بدلاً من جميع تعزيات العالم، مسحة روحك الجزيلة العذوبة؛ وبدل الحب الجسدي، أفض في حبّ اسمك.

4- فها الأكل والشرب واللباس، وسائر ما يستعمل في عيالة الجسد، إنما هي ثقلٌ على الروح المضطرم العبادة.
فهب لي أن أستعمل هذه المساعدات بقناعة، ولا أرتبك فيها بحرصٍ مفرط .
فاطراحها جميعاً لا يجوز، لأن عيالة الطبيعة واجبة. ولكنّ الشريعة المقدسة تحرّم أيضاً تطلب ما كان زائداً، أو ما فيه لذةٌ مفرطة، لئلا يتمرّد الجسد على الروح.
فأسألك أن تقودني يدك بين هذين الطرفين، وأن ترشدني لئلا أقع في الشطط .

*** ***

الفصل السابع والعشرون
في ان حب الذات هو أعظم ما يعوقنا عن الخير الأعظم

1- المسيح : يا بنيّ، ينبغي أن تبذل الكل لأجل الكل، ولا تستبقي شيئاً من ذاتك.
اعلم ان حبك لذاتك، هو أضرّ بك من كل ما في العالم.
بحسب ما يكون حبك للأشياء وشغفك بها، يزداد التصاقها بك أو يقلّ.
فإن كان حبك طاهراً سليماً مرتباً، فأنت حرٌ من أسر الأشياء.
لا تشته ما لا يجوز اقتناؤه، ولا تقتن ما قد يعرقل سيرك، ويحرمك الحية الداخلية.
إنه لمن العجب أن لا تفوّض اليّ، من صميم القلب، ذاتك وكل ما يمكنك أن تشتهي أو تملك.

2- لم تذيب نفسك في حزنٍ فارغ، ولم تضنيها بالهموم الباطلة ؟
إلتزم مسرّتي، فلا يلحقَ بك ضررٌ البتة.
إن طلبت هذا الشيء أو ذاك، أو أردت أن تكون هنا أو هناك، وغرضك الهناء والاستزادة من إرضاء النفس، فلن تكون أبداً في راحة، ولن تخلو أبداً من الهم، لأنك في كل شيء ستجد بعض النقص، وفي كل مكانٍ ستجد من يعاكسك.

3- فالفائدة إذن ليست في اقتناء الأشياء الخارجية والاكثار منها، بل بالحري في احتقارها واستئصالها من القلب.
ولا تفهم بذلك الدراهم والأموال فحسب، بل أيضاً ابتغاء الجاه، والرغبة في المديح الباطل ؛ فهذه كلها ستزول مع العالم.
قلما يعصمك مكانٌ، إن كنت خالياً من روح الحرارة؛ ولن يدوم طويلاً السلام المستمد من الخارج، إن خلا القلب من الاساس الحقيقي.
وذلك يعني أنك إن كنت غير موطدٍ في، فقد تستطيع تبديل مكانك، ولكنك لا تصلح نفسك. فإنك ان سنحت لك فرصةٌ، قبلتها، فتجد ما قد هربت منه وأسوأ.

صلاة لتطهير القلب والتماس الحكمة السماوية

4- التلميذ : أيدني، أللهم، بنعمة روحك القدوس.
أعطني قوةً تشدّد فيّ الإنسان الداخلي، وتفرغ قلبي من كل همّ وغمّ باطل، فلا أجذب بشهوة شيء البتة، حقيراً كان أو كريماً، بل أنظر الى جميع الأشياء كأنها زائلة، وكأنني أنا أيضاً زائلٌ معها؛ فإنه «لا شيء ثابت تحت الشمس، حيث الجميع باطلٌ وكآبة الروح[149]».
ما أحكم من يعتبر الأمور هكذا !

5- أعطني، يا رب، الحكمة السماوية، لأتعلم أن أطلبك وأجدك فوق كل شيء، وأن أتذوقك وأحبك فوق كل شيء، وأن أفهم سائر الأشياء كما هي، بحسب ترتيب حكمتك.
أعطني فطنة لاجتناب المتملق، وصبراً لاحتمال المقاوم.
فإنها لحكمةٌ عظيمةٌ أن لا يتزعزع الإنسان لكل ريح كلام، ولا يعير أذنه لمراوغة المتملق؛ إذ بذلك يواصل السير مطمئناً، في السبيل التي انتهجها.

*** ***

الفصل الثامن والعشرون
ضد ألسنة المغتابين

1- المسيح : يا بنيّ، لا تغتم إن ظنّ بك البعض سوءاً، وقالوا فيك ما لا تحب سماعه.
لا بل عليك، أنت، أن تظن بنفسك شراً من ذلك، وتعتقد أن ليس أحدّ أضعف منك.
إن عشت عيشةً داخلية، فلن تبالي كثيراً بأقوالٍ تتطاير.
ليس بفطنةٍ يسيرة، أن يصمت الإنسان في وقت السوء، ويلتفت اليّ في الداخل، ولا يضطرب لحكمٍ بشري.

2- لا يكن سلامك في أفواه الناس : فسواء تأولوا فيك الخير أم الشر، فلست لذلك إنساناً آخر.
أين السلام الحقيقي والمجد الحقيقي ؟ أليسا هما فيّ أنا ؟
فمن لا يبتغ رضى البشر ولا يخش عدم رضاهم، يتمتع بسلام وافر.
من الحب المنحرف والتخوّف الباطل، ينشأ كل اضطراب القلب وتشتت الحواسّ.

*** ***

الفصل التاسع والعشرون
كيف يجب أن نستغيث بالله ونباركه عند حلول الشدة

1- التلميذ : «ليكن اسمك، يا ربّ، مباركاً مدى الدهور[150]»، لأنك شئت أن تنزل بي هذه المحنة والشدّة.
إني لا أستطيع الهرب منها، بل أنا في حاجة أن ألتجئ اليك، لتساعدني وتحوّلها لي الى خير.
ربّ، إني الآن في ضيق، ولا سلام لقلبي، بل أنا معذبٌ جداً بهذه الأهواء.
«والآن، أيها الآب الحبيب، فماذا أقول [151]؟» إني مكتنفٌ بالمضايق، «فنجني من هذه الساعة !
ولكن لأجل هذا بلغت الى هذه الساعة» : لكي تعلن مجدك بأنني كنت قد ذللت جداً، وأنت أعتقتني.
«ارتض يا رب أن تنقذني[152]»، إذ ماذا يمكنني أن أصنع أنا البائس ؟ والى أين أذهب بدونك ؟
ربّ، أعطني الصبر هذه المرة أيضاً ؛ أعني يا إلهي فلن أخاف، مهما ثقلت علي الشدّة.

-2 والآن، فماذا أقول في وسط هذه المضايق ؟ ربّ، «لتكن مشيئتك![153]»، فإني استوجبت المضايق والمشقات.
فلا بدّ لي أن أحتملها – وليتني أحتملها بصبر! – الى أن تجوز العاصفة وتتحسّن الأمور.
ولكن ذراعك القديرة تستطيع أن تقصي عني هذه المحنة أيضاً، وتلطف من حدّتها، لئلا تصرعني تماماً؛ فلقد صنعت معي مثل ذلك، من قبل، مراراً كثيرة، يا إلهي ورحمتي.
وبمقدار ما تصعب علي هذه «الإحالة، بمقدار ذلك هي سهلةٌ على يمينك أيها العلي[154]».

*** ***

الفصل الثلاثون
في طلب العون الالهي، وفي الثقة باسترجاع النعمة

-1 المسيح : يا بنيّ، «أنا هو الرب المقوّي في يوم الضيق[155]»، فتعال اليّ إذا ساءت أحوالك.
إن أعظم ما يحبس عنك التعزية السماوية، هو تأخرك عن الالتجاء الى الصلاة.
فإنك قبل أن تتضرّع اليّ بإلحاح، تتطلب في الخارج تعزياتٍ وتسلياتٍ كثيرة.
ومن ثمة قلما تنفعك هذه كلها، حتى تفطن أني «أنا منفذ المتوكلين عليّ[156]»، وأنه ما من معونةٍ فعالة، ولا مشورةٍ نافعة، ولا علاج دائم، خارجاً عني.
أما الآن، وقد ثابت اليك روحك بعد العاصفة، فتشدّد بنور مراحمي؛ لأني قريبٌ – يقول الرب – فأردّ عليك كل شيء، لا كاملاً فحسب، بل وافراً متدفقاً.

-2 «أعليّ أمرٌ عسير ؟[157]»، أو أكون شبيهاً بمن يقول ولا يفعل ؟ أين ايمانك ؟
كن صاحب حزمٍ وثبات؛ كن طويل الأناة ورجلاً شجاعاً، فتأتيك التعزية في أوانها.
إنتظرني انتظرني، «فأنا آتي وأشفيك[158]».
إن ما يعذبك ليس سوى تجربة، وما يروعك إنما هو خوفٌ باطل.
ما لك والاهتمام بما يطرأ في المستقبل؟ إن ذلك لا يزيدك سوى غم على غمّ : «يكفي كل يوم شرّه ![159]»
إنه لمن الباطل والعبث، أن تقلق أو تفرح لمستقبلاتٍ قد لا تحدث أبداً.

-3 على أن الانخداع بمثل هذ التخيلات لمن الأمور البشرية، والانقياد بمثل هذه السهولة لوساوس العدو، لدليلٌ على نفس لا تزال صغيرة.
فإنه سواءٌ لديه أن يغرّك ويخدعك بالصدق أو بالكذب، أم أن يصرعك بحب الحاضرات أو بخوف المستقبلات.
«فلا يضطربنّ قلبك، ولا ترتعد[160]».
«آمن بي[161]»، وثق برحمتي.
حينما أنت تظن نفسك بعيداً عني، فعندئذٍ أكون في الغالب أقرب اليك.
وعندما تحسب أنك موشكٌ أن تخسر كل شيء، فحينئذٍ، في الغالب، تكون لك فرصة لربح استحقاقات أعظم.
لا ! لم يضع كل شيءٍ، إذا عاكستك الأحوال.
لا ينبغي أن تحكم في الأمور بحسب تأثراتك الحاضرة، ولا أن تستسلم لشدة ما، أياً كان مصدرها، فتغوص فيها غوص من فقد كل املٍ في النجاة.

-4 لا تحسبن نفسك مهملاً بالتمام، وإن أنزلت بكل بعض الضيق الى حين، أو حبست عنك ما تبتغي من تعزية، فإنما بذلك يعبر الى ملكوت السماوات.
ولا جرم أنه خيرٌ لك ولسائر عبادي، أن تعانوا المحن، من أن يكون لكم كل شيءٍ وفق المرام.
إني عالمٌ بالأفكار الخفية، وأعرف أن من المفيد جداً لخلاصك أن تترك، أحياناً، خالياً من تذوق العذوبة، لئلا تستكبر في النجاح، وتتيه عجباً بما ليس فيك.
إن ما اعطيته، يمكنني أن انتزعه، ثم أن أردّه متى شئت.

-5 فإن أعطيته بقي لي، وان انتزعته لم أسلبك ما هو لك، لأن «كل عطية صالحة، وكل هبة كاملة[162]» إنما هي مني.
فإن أرسلت عليك شدّة أو معاكسة، فلا تسخط ولا يفشل قلبك، فأنا قادرٌ أن أنعشك سريعاً، وأحوّل كل مشقةٍ الى فرح.

وإذا أعالمك على هذا النحو، فأنا، مع ذلك عادلٌ ومستحقٌ كل مديح.

6- إن حكمت في الأمور بحسب الصواب، ونظرت اليها بمقتضى الحق، فعليك أن لا تحزن أبداً أو تفشل الى هذا الحدّ، بسبب الشدائد، بل بالحري أن تفرح وتشكر؛ لا بل أن تعتدّ الفرح الوحيد، في انني أعذبك بالأوجاع ولا أشفق.

لقد قلت لتلاميذي الأحباء :«كما احبّني الآب، كذلك انا أيضاً أحببتكم[163]». – ولقد أرسلتهم لا الى الأفراح الزمنية، بل الى الجهادات الكبرى؛ لا الى الكرامات، بل الى الاحتقار؛ لا الى البطالة، بل الى الكدّ؛ لا الى الراحة، بل «الى الاثمار بالصبر ثمراً وافراً[164]».

فتذكر، يا بنيّ، هذه الكلمات.

*** ***

الفصل الحادي والثلاثون
في انتباذ كل خليقة قصد وجود الخالق

1- التلميذ : ربّ، إني لا أزال في مسيس الحاجة الى نعمة أعظم، إن كان علي أن أبلغ الى حيث لا يقدر أن يعوقني إنسانٌ أو خليقةٌ البتة.
فما دام شيءٌ يعوقني، فلا أستطيع أن أطير اليك بحرية.

لقد كان يتوق أن يطير بحرية، ذاك الذي كان يقول: «من لي بجناحين كالحمامة، فأطير وأستريح؟[165]»
أي طمأنينة أعظم من طمأنينة العين البسيطة؟ وأي حرية أعظم من حرية من لا يشتهي شيئاً على الأرض ؟
فعلى الإنسان إذن أن يرتفع فوق كل خليقة، وأن يتخلى عننفسه تماماً، ويغيب في اختطاف الروح، فيرى أنك انت، يا مبدع الجميع، لا مشابهة لك مع الخلائق.
وإن هو لم يتجرّد من جميع الخلائق، فلن يستطيع العكوف، بحرية، على الأمور الإلهية.
وما قلة المتمتعين بالمشاهدة، إلا لقة الذين يعرفون أن يحبسوا أنفسهم تماماً عن الخلائق والأمور الزائلة.

2- وإنما يقتضي ذلك نعمةً عظيمةً، ترفع النفس وتخطفها فوق ذاتها.
فإن لم يكن الإنسان متسامياً بالروح، حراً من جميع الخلائق ومتحداً كله بالله، فكل ما يعرف وكل ما يملك، ليس له كبير قيمة.
إنه ليبقى صغيراً مضّجعاً في الهوان الى أمد طويل، من يستعظم شيئاً آخر سوى الخير الوحيد الأزلي الغير المحدود.
وكل ما ليس هو الله فليس بشيء، ويجب أن يعدّ كلا شيء.
إن الفرق لعظيمٌ بين حكمة الرجل المستنير بالعبادة، وعلم الفقيه المتأدب، المكبّ على الدرس.
فإن التعليم الصادر من فوق، من الفيض الإلهي، لأسمى من العلم الذي يحرزه الإنسان بجهد العقل.

3- كثيرون يتوقون الى حياة المشاهدة؛ لكنهم لا يجتهدون في ممارسة ما تقتضيه.
والعائق الكبير في ذلك، هو التوقف عند الشعائر والممارسات الحسية، وقلة الاكتراث للإماتة الكاملة.
إني لا أعلم ما هذا الأمر، ولا ما هو الروح الذي ننقاد له، ولا ما هو موضوع ادعائنا، نحن الذين يحسبهم الناس روحيين! فإنا نعمل، بتعبٍ عظيم، واهتمام أعظم، لأجل أمور تافهة زائلة، ولا نكاد – حتى في النادر – نجمع حواسنا تماماً، ونفكر في أمورنا الداخلية !

4- يا للأسف! إنا لا نكاد نختلي قليلاً في أنفسنا، حتى نندفع حالاً الى الخارج، من غير أن نفحص أعمالنا فحصاً مدققاً.
إنا لا نأبه الى أين انحطت أميالنا، ولا نبكي على ما نحن عليه من فسادٍ تام.

«كل جسدٍ قد أفسد طريقه[166]»، ولذلك حدث الطوفان العظيم.
فإذا كانت أميالنا الداخلية قد فسدت جداً، فلا بدّ أن يفسد العمل الناتج منها، مما يدلّ على نفص في نشاطنا الداخلي،
لأن القلب الطاهر لا يصدر إلا ثمار حياةٍ صالحة.

5- يسأل الناس عن كثرة الأعمال التي يقوم بها أحدهم، ولكنهم قلما يعبأون بمقدار الفضيلة التي يعمل بها.
يبحثون هل هو قويٌ أو غني، أوجميلٌ أو ماهر، أو مجيدٌ في الكتابة أو الغناء أو العمل؛ أما مقدار مسكنته بالروح، وصبره ووداعته، وتقواه وحياته الداخلية، فكثيرون يغفلون ذلك.
الطبيعة تنظر الى خارج الإنسان، والنعمة تلتفت الى داخله. تلك تخدع كثيراً؛ أما هذه، فتجعل في الله ثقتها لكي لا تغشّ.

*** ***

الفصل الثاني والثلاثون
في انكار الذات، والزهد في كل شهوة

1- المسيح : يا بنيّ، إنك لا تستطيع التمتع بالحرية الكاملة، ما لم تنكر ذاتك تماماً.
إنهم لمكبّلون جميعاً في القيود، أولئك المستأثرون بأملاكهم، المحبّون ذواتهم، أصحاب الطمع والفضول والجولان، المتطلبون دوماً رفاهتهم لا ما يخص يسوع المسيح، المتخلقون والمستنبطون في الغالب أموراً لا ثبات لها.
فإنه لبائدٌ كل ما ليس بناشئ عن الله.
إحفظ هذه الكلمة الوجيزة البليغة :
أهجر كل شيء فتجد كل شيء؛ أترك الشهوة فتجد الراحة.
ردد هذه الوصية في ذهنك؛ ومتى أتممتها فهمت كل شيء.

2- التلميذ : ربّ، «ليس ذلك بعمل يومٍ واحد[167]» ولا هو بلعب أولاد، فإن هذا القول الموجز ليتضمّن كل كمال الرهبان.

3- المسيح : يا بنيّ، عليك أن لا ترتد ولا تفشل في الحال، عند سماعك بطريق الكاملين، بل بالحري أن تستحث نفسك الى بلوغ الساميات، أو – على الأقل – أن تتوق اليها برغبة.
ليتك كنت على هذه الحالة، وأصبحت، من الكمال، بحيث لا تحبّ نفسك، بل تمتثل، بإخلاص، إشارتي، وغشارة من أقمته أباً لك! إذن لكنت مرضياً لديّ جداً، ولكانت حياتك تنقضي في الفرح والسلام.
هناك أشياء كثيرةٌ لا بدّ لك بعد من تركها ؛ فإن لم تتخلّ لي عنها بالتمام، فلن تحصل على ما تطلب.
«أنا أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفّى بالنار لتستغني[168]»، أي الحكمة السماوية، التي تدوس جميع الدنيويات.
فقدّمها على الحكمة الأرضية، وعلى كل مسرّةٍ تجدها في الناس أو في نفسك.

4- لقد قلت إنه ينبغي لك أن تبتاع ما هو حقيرٌ في نظر البشر، بما هو ثمينٌ رفيع.
فالناس يستحقرون ويستصغرون جداً، ويكادون ينسون الحكمة السماوية الحقة، التي لا تستكبر في ذاتها، ولا تطلب التعظم على الأرض، تلك التي يمتدحها الكثيرون، ولكن بأفواههم فقط، أما سيرتهم فبعيدةٌ عنها، على كونها هي «اللؤلؤة الثمينة[169]» المخفية عن كثيرين.

*** ***

الفصل الثالث والثلاثون
في عدم ثبات القلب
وفي انه من الواجب علينا أن نوجه غايتنا الأخيرة الى الله

1- المسيح : بنيّ، لا تثق بالعاطفة التي تشعر بها الآن، فإنها سريعاً ما تنقلب الى غيرها.
ما دمت في الحياة، فأنت هدفٌ للتقلب – وإن على كرهٍ منك - : فتارةً تكون فرحاً وتارةً حزيناً، تارةً في سلامٍ وتارةً في اضطراب، حيناً متعبّداً وحيناً بغير عبادة، حيناً نشيطاً وحيناً متكاسلاً، حيناً رصيناً وحيناً نزقاً.
أما الحكيم المتفقه جيداً في الأمور الروحية، فيسمو فوق هذه التقلبات، غير ملتفتٍ الى ما يشعر به في نفسه، ولا الى الجهة التي تهب منها ريح التقلب، بل جاعلاً همّه في ان يتقدّم، بكل نية قلبه، الى الغاية المثلى الواجب ابتغاؤها.
فهكذا يمكنه ان يستمر هو هو، غير متزعزع، موجهاً اليّ، بلا انقطاع، عين نيته البسيطة، ما بين كثرة الحوادث واختلافها.

2- بقدر ما تزداد عين النية صفاءً، يزداد الإنسان ثباتاً في المسير ما بين العواصف المختلفة.
لكنّ هذه العين في النيّة الطاهرة، قد تظلم في الكثيرين، لأنهم ينظرون سريعاً الى لذةٍ تعرض لهم؛ وقل أن يوجد فيهم من تحرّر، تماماً، من وصمة طلب الذات.
هكذا جاء اليهود قديماً الى بيت عنيا، الى مرتا ومريم، «لا من أجل يسوع فقط، بل لينظروا أيضاً لعازر[170]».
فيجب إذن ان تنقّى عين النية، لتكون بسيطة مستقيمة، وأن توّجه اليّ من خلال جميع الحواجز المختلفة، المعترضة بيننا.

*** ***

الفصل الرابع والثلاثون
في ان المحب لله يتذوق فوق كل شيء وفي كل شيء

1- التلميذ : هوذا إلهي وكل مالي ! فماذا أريدُ بعدُ ؟ وهل من سعادةٍ أعظم، يمكن أن أشتهيها؟
يا لها كلمة طيبة عذبة ! ولكن لمن يحبّ الكلمة، لا لمن يحب العالم وما في العالم.
إلهي وكل مالي !
إن هذه الكلمة كافيةٌ لمن يدركها، والمحبُّ يستعذب ترديدها مراراً كثيرة.
إذا كنت حاضراً، فكل شيء مستعذب؛ فإذا غبت، أصبح كل شيء تافهاً.
أنت تجعل القلب في الطمأنينة، وتمنحه سلامً عظيماً، وفرحاً كفرح العيد.
أنتت تجعلنا نستحسن كل شيء، ونسبحك في كل شيء؛ وبدونك لا شيء يمكن أن يلذّ طويلاً، بل، لكي يكون مستحسناً ومستحباً، لا بدّ له من أن تصحبه نعمتك، ويصلح بأفاويه حكمتك.

2- من كانت فيك لذته، فأيّ شيءٍ لا يلذ له ؟
ومن لا يلتذ بك، فأيّ شيء يمكنه أن يكون عذباً لديه ؟
أما الذين يستلذون العالم والجسد، فهم خالون من حكمتك، لأن في حكمة العالم منتهى الغرور، وفي ملذات الجسد الموت.
أما الذين يتبعونك باحتقار العالم وإماتة الجسد، فهم الحكماء حقاً، لأنهم ينتقلون من البطلان الى الحق، و من الجسد الى الروح.
هؤلاء يتذوقون الله؛ وكل ما في الخلائق من خير، يحوّلونه الى مديح الخالق.
ولكنّ الفرق عظيمٌ – وعظيمٌ جداً – بين طعم الخالق والمخلوق، بين الأبدية والزمن، بين النور الغير المخلوق والنور المقتبس.

3- أيها النور الدائم، الفائق جميع الأنوار المخلوقة، أبرق من العلاء ببرقٍ ينفذ الى صميم قلبي.
طهر وفرّح، أنر وأحي روحي بجميع قواها، لكي تتحد بك في اختطافات تهلل.
آه ! متى تأتي تلك الساعة السعيدة الشهيّة، التي تشبعني فيها بحضورك، وتكون لي كلا في كل شيء ؟
ما دمت غير حاصلٍ على هذه العطية، ففرحي غير كامل.
إن الإنسان العتيق لا يزال – ويا للأسف! – حياً فيّ، فإنه لم يصلب كله بعد، ولم يمت موتاً تاماً.
بل لا يزال «يشتهي بقوةٍ ضد الروح[171]»، ويثير فيّ حروباً داخلية، ولا يدع النفس تملك في طمأنينة.

4- لكن «أنت أيها المتسلط على طغيان البحر، والمسكّن حركة أمواجه، قم انصرني[172]».
«شتت الأمم الذين يريدون الحروب[173]»؛ «إحطمهم بقوّتك[174]».
بحقك! «أظهر لهم عظائمك[175]»، «ولتتمجد يمينك[176]»، لأنه لا أمل ولا ملجأ لي، إلا فيك أنت أيها الرّب إلهي.

*** ***

الفصل الخامس والثلاثون
في انه لا أمان من التجربة في هذه الحياة

1- المسيح : يا بنيّ، لا أمان لك البتة في هذه الحياة، بل ما دمت حيّاً فأنت دوماً في حاجةٍ الى الأسلحة الروحية.
إنك مكتنفٌ بالأعداء؛ وهم يقاتلونك عن اليمين وعن اليسار.
فإن لم تستعمل ترس الصبر من كل جهة، فإنك لن تلبث طويلاً بغير جراح.
وفضلاً عن ذلك، فإن لم تثبت فيّ قلبك، وأنت ناوٍ، نية خالصة، أن تحتمل كل شيء لأجلي، فلن تستطيع الصبر إذا حمي القتال، ولا الفوز بسعف الطوباويين.
فعليك إذن أن تجتاز بشجاعةٍ في جميع الصعوبات، وأن تجرّد يداً قوية على ما يعترضك.
«فمن غلب يؤتى المن»؛ أما المتثاقل، فنصيبه كثرة الشقاء.

2- ان طلبت الراحة في هذه الحياة، فكيف تبلغ الى الراحة الأبدية ؟
لا تعدد نفسك لوفرة الراحة، بل لكثرة الاحتمال.
أطلب السلام الحقيقي لا على الأرض، بل في السماوات؛ لا في البشر أو في سائر الخلائق، بل في الله وحده.

عليك، حبّا لله، أن تحتمل بارتياح كل شيء: الأتعاب والأوجاع، والتجارب والاضطهادات، والضيقات والعوز، والأمراض والإهانات، والمثالب والتقريعات، والمذلات والخزي، والتوبيخات والاحتقار.
فتلك هي الأمور المفيدةُ للفضيلة : بها يمتحن من تجنّد حديثاً للمسيح، ومنها يضفر الإكليل السماوي.
أنا أكافئ على تعبٍ قصيرٍ بثوابٍ أبديّ، وعلى خزيٍ زائل بمجدٍ لا حدّ له.

3- أتظن، أنت، أنك ستحصل دوماً على التعزيات الروحيّة وفق ما تشاء ؟
إن قديسيّ لم يحصلوا دائماً على مثل ذلك، بل عانوا مشقاتٍ كثيرة، وتجارب مختلفة، وخذلاناً شديداً.
لكنهم اعتصموا بالصبر في كل شيء، متوكلين على الله اكثر مما على أنفسهم، عالمين «أن آلام هذا الدهر، لا تتناسب والمجد الآتي[177]»، فتستحقه لنا.
أتريد أنت أن تحصل، حالاً، على ما لم ينله الكثيرون إلا بالجهد، وبعد الدموع الغزيرة والأتعاب الشاقة ؟
«إنتظر الربّ! تشجع وتشدّد![178]» لا تيأس ولا ترتد، بل ابذل جسدك ونفسك بثبات، لأجل مجد الله.
فأنا أكافئك ملء المكافأة، «وأكون معك في كل ضيق[179]».

*** ***

الفصل السادس والثلاثون
ضد أحكام الناس الباطلة

1- المسيح : يا بنيّ، ثبت قلبك في الله؛ ولا تخف من حكم بشري، إذا برّأك ضميرك وزكاك.
فالاحتمال، على هذا النحو حسنٌ وفيه سعادة، وليس بثقيل على القلب المتواضع، المتوكل على الله أكثر من توكله على نفسه.
كثيرون هم الثرثارون، وقلما ينبغي أن نصدّق أقوالهم.
وما عدا ذلك، فإرضاء الجميع من المحال.
فإن بولس – وان كان قد اجتهد في أن يرضي الجميع في الربّ، »وصار كلا للكل[180]» - قد كان، مع ذلك، يعتدّ «كأقل شيء عنده أن تحكم فيه محكمةٌ بشرية[181]».

2- لقد عمل كثيراً لأجل بنيان الآخرين وخلاصهم، بقدر وسعه وإمكانه؛ ولكنه لم يستطع أن يحول دون محاكمتهم له أحياناً واحتقارهم إياه.
ولذلك فوّض كل شيء الى الله العليم بكل شيء، واعتصم بالصبر والتواضع، من ألسنة المتكلمين بالبهتان، المفكرّين بالباطل والكذب، الطاعنين فيه بحسب أهوائهم.
ولكنه قد ردّ عليهم أحياناً، لئلا ينتج من صمته معثرةُ للضعفاء.

3- «فمن أنت، حتى تخاف من إنسان يموت[182] ؟» إنه اليوم في الوجود، وغداً يتوارى.
إتق الله، فلا يروّعك رعب البشر.
وأي ضررٍ يستطيع الإنسان أن يلحق بك، بالكلام أو الإهانات ؟ إنه على نفسه يجلب المضرّة، لا عليك؛ وأيا كان ذلك الإنسان، فإنه لن يفلت من دينونة الله.
أما انت، فاجعل الله نصب عينيك، «ولا تجادل بمماحكاتٍ كلامية[183]».
وإن خيّل اليك أنك الآن في المذلة، وأنك تسام خزياً لم تستوجبه، فلا تغضب لذلك، ولا تنقص من قدر إكليلك بعدم صبرك؛ بل انظر بالحريّ الى السماء، إليّ أنا القادر أن أنقذ من كل خزيٍ وظلم، وأن «أجازي كل أحدٍ بحسب أعماله[184]».

*** ***

الفصل السابع والثلاثون
في تسليم الذات تسليماً خالصاً كاملاً للحصول على حرية القلب

1- المسيح : يا بنيّ، أترك نفسك تجدني.
لا تختر لنفسك شيئاً ولا تختصّها بشيء، تكن رابحاً أبداً.

فإنك، حالما تتخلى لي عن ذاتك ولا تسترجعها، تزداد نعمة أوفر.

2- التلميذ : ربِ، كم مرة أتخلى لك عن ذاتي ؟ وفي أيّ شيء أترك نفسي ؟

3- المسيح : دائماً وفي كل ساعة، في صغريات الأمور كما في كبرياتها؛ إني لا أستثني شيئاً، بل في كل شيء أريد أن أجدك متجرّداً.
وإلا فكيف يمكن أن تكون لي وأنا لك، إن لم تكن، في الداخل وفي الخارج، مجرّداً من كل إرادةٍ ذاتية ؟
بقدر ما تسرع في هذا التجرّد، تزداد حالك صلاحاً؛ وبقدر ما تكون فيه سخياً صادقاً، تزداد فيك مسرّتي، ويتضاعف ربحك.

4- فالبعض يتخلون عن ذواتهم، ولكن مع بعض الاستثناء؛ إذ من حيث إنهم لا يثقون بالله ثقة كاملة، فهم يسعون دوماً في الاهتمام بأنفسهم.
والبعض يقرّبون لي أولاً كل شيء، ولكنهم، إذا هزّتهم بعد ذلك تجربة، يسترجعون ما قرّبوا؛ ولذلك قلما يتقدّمون في الفضيلة.
فهؤلاء لن يبلغوا الى حرية القلب الطاهر الحقيقية، ولن يحظوا بنعمة مؤالفتي العذبة، ما لم يستسلموا أولاً اليّ استسلاماً كاملاً، ويضحّوا كل يومٍ بذواتهم؛ فبدون ذلك، لا قيام ولا ثبات للاتحاد والتنعم بي.

5- لقد قلت لك مراراً كثيرة، والآن أيضاً أعيد عليك القول : أترك ذاتك، تخل عن ذاتك، فتنعم بسلام داخلي عظيم.
أبذل الكل لأجل الكل؛ لا تطلب شيئاً، ولا تسترد شيئاً؛ أثبت فيّ بخلوصٍ ومن غير ما ارتيابٍ، فتحوزني، ويكون قلبك حراً، «والظلمة لا تغشاك».
ليكن موضوع اجتهادك وصلواتك ورغائبك، أن تتجرّد من كل ما يخصك، وأن تتبع، عرياناً يسوع العريان، وتموت عن نفسك، وتحيا لي الى الأبد.
حينئذٍ تتلاشى جميع الخيالات الباطلة، والاضطرابات الشريرة، والهموم الزائدة.
وحينئذٍ أيضاً يتباعد عنك التخوّف المفرط، ويموت فيك الحب المنحرف.

*** ***

الفصل الثامن والثلاثون
في حسن التصرف في الأمور الخارجية
وفي الالتجاء الى الله عند الأخطار

1- المسيح : يا بنيّ، الى هذا يجب أن توّجه نشاطك : أن تكون، في كل مكانٍ وفي كل عملٍ أو شغلٍ خارجيّ، حراً في داخلك، وضابطاً أمر نفسك؛ وأن تكون الأشياء كلها خاضعة لك، لا انت خاضعاً لها ؛
وأن تكون ربّ أفعالك وملكها، لا عبداً لها أو مملوكاً، بل معتقاً وعبرانياً حقاً، قد عبر الى نصيب «وحرية أبناء الله[185]»، الذين يرتقون فوق الحاضرات، ويتأملون الأبديات ؛
وينظرون بعينهم اليسرى الى الزائلات، وباليمنى الى السماويات ؛
ألذين لا تجذبهم الزمنيات فيتعلقوا بها؛ بل غنما هم، بالحريّ، يجتذبونها ليحسنوا استخدامها، على حسب ما رتب الله، ورسم الصانع الأعظم، الذي لم يترك في خليقته شيئاً من غير ترتيب.

2- لو كنت، في كل حادث، لا تتوقف عند الظواهر الخارجية، ولا تعتبر بعينٍ جسديةٍ كل ما ترى أو تسمع، بل تدخل حالاً مع موسى الى الخباء، لتستشير الرب في كل أمر، لكنت تسمع، أحياناً، الجواب الإلهي، وتعود متّفقهاً في كثيرٍ من الأمور الحاضرة والمستقبلة.
فإن موسى قد التجأ دائماً الى الخباء، لإزالة الشكوك وحل المشاكل، واعتصم أبداً بمعونة الصلاة، لينجو من المخاطر ومن كيد البشر.
فهكذا عليك، أنت أيضاً، أن تلتجئ الى مخدع قلبك، ملتمساً العون الإلهي، بشديد الإلحاح.
فقد ورد في الكتاب أن يشوع وبني إسرائيل، إنما خدعهم الجبعونيّون «لأنهم لم يلتمسوا قبلاً مشورة الرب[186]»، بل صدّقوا، عن غير تروٍ، أقوالاً معسولة، فانعوا بشفقةٍ كاذبة.

*** ***

الفصل التاسع والثلاثون
في انه لا ينبغي للانسان أن يكون لجوجاً في الأمور

1- المسيح : يا بنيّ فوّض اليّ أمرك دائماً، وأنا أحسن لك تدبيره في أوانه.
إنتظر تدبيري، تلق منه ربحاً.

2- التلميذ : ربّ، إني بملء الارتياح أفوّض إليك جميع أموري، لأن تدابيري الذاتية قلما تفيدني.
ليتني كنت أقل اهتماماً بالمستقبلات، فأقرّب ذاتي لمسرّتك، عن غيرٍ تردّد!

3- المسيح : يا بنيّ، كثيراً ما يهتم الإنسان في طلب شيء يهواه، فإذا بلغ اليه، جعل يغيّر فيه رأيه، لأن الرغائب لا تستقرّ في موضوع واحد، بل بالحري تدفع صاحبها من موضوع الى آخر.
فليس باليسير إذن، أن يترك الانسان نَفسه، حتى في صغائر الأمور.

4- فالتقدّم الحقيقيّ، إنما هو في إنكار الإنسان ذاته .
فمن أنكر ذاته، فهو في حرية وأمانٍ عظيمين.
ولكن العدوّ القديم، مقاوم كل خيرٍ، لا يكفُّ عن تجربته، بل يحوك له شرّ الحبائل ليل نهار، عله يستطيع أن يسقطه، على حين غفلة، في أشراك خداعه.
«فاسهروا وصلوا – يقول الرب- لئلا تدخلوا في تجربة[187]».

*** ***

الفصل الأربعون
في ان الانسان لا يملك من ذاته شيئاً من الصلاح
ولا يستطيع أن يفتخر بشيء

1- التلميذ : «ربّ، ما الإنسان حتى تذكره، أو ابن الإنسان حتى تفتقده ؟[188]»
بم استحق الإنسان أن تمنحه نعمتك ؟
ربّ، مم أستطيع التشكي إن أهملتني؟ وبم يحقّ لي الاحتجاج إن لم تصنع لي ما أسأل؟
هذا ما يمكنني حقاً أن أفكر به وأقوله عن صدق :
ربّ، إني لست بشيء، ولا أقدر على شيء، ولا أملك، من ذاتي، شيئاً من الصلاح؛ بل في كل شيء أنا ناقص، ومائلٌ دوماً الى العدم.
فإن لم تعضدني وتنعش نفسي، صرت بجملتي الى الفتور والتراخي.

2- أما أنت، يا ربّ، فإنك ك«أنت أنت دوماً، ثابتٌ الى الابد[189]»، وعلى الدوام صالحٌ، عادلٌ، قدوس، تصنع كل شيء بصلاحٍ وعدلٍ وقداسة، وتدّبر كل شيء بحكمة.
أما أنا المائل الى التراجع أكثر مما الى التقدّم، فإني لا أستمر دائماً على حالٍ واحدة، بل «سبع مراتٍ أتحوّل[190]».
ولكن سرعان ما تتحسن أحوالي، إن أنت ارتضيت فمددت لي يداً تعضدني، لأنك أنت، وحدك، ومن دون عونٍ بشريّ، قادرٌ أن تساعدني وتثبتني تثبيتاً وطيداً، «بحيث لا يعود وجهي يتغيّر[191]» بمختلف التقلبات، بل اليك وحدك يتوّجه قلبي، وفيك وحدك يستريح.

3- ومن ثم، لوعرفت جيداً أن أطرح كل تعزيةٍ بشرية، قصد الحصول على العبادة، أو لما أشعر به من الحاجة الى التماسك – إذ ليس من إنسانٍ يستطيع أن يعزّيني – إذن لحقّ لي أن أرجو نعمتك، وأن أبتهج لم تمنحني من تعزيةٍ جديدة.

4- فيا من يصدر عنه كل شيء، شكراً لك عداد ما يحصل لي من الخير !
أما أنا فباطلٌ «وكلا شيء أمامك[192]»، إنسانٌ متقلبٌ ضعيف.
فبم أستطيع إذن أن أفتخر ؟ ولم أبتغي مديح الناس ؟
الأجل عدمي ؟ فذلك أعظم البطلان !
حقاً إن المجد الفارغ لوباءٌ خبيث، بل هو منتهى البطلان، لأنه يبعد عن المجد الحقيقي، ويسلب النعمة السماوية !
فالإنسان، حينما يعجب بنفسه، يصبح غير مرضيٍ لديك؛ وحينما يتوق الى مديح الناس، يحرم الفضائل الحقة.

5- أما المجد الحقيقي والابتهاد المقدّس، فهما أن يفتخر الانسان بك لا بنفسه، وأن يفرح باسمك لا بفضيلته، وأن لا يلتذ بخليقةٍ التبة، إلا

لأجلك.
فليسبّح اسمك لا اسمي، وليعظم عملك لا عملي، وليبارك اسمك القدوس، ولا ينسب اليّ شيءٌ من مديح الناس.
«أنت مجدي، أنت ابتهاج قلبي[193]».
بل أفتخر «وأبتهج النهار كله[194]»؛ «أما من جهة نفسي، فإني لا أفتخر إلا بأوهاني[195]».

6- ليطلب اليهود المجد بعضهم من بعض؛ أما أنا، فلن أطلب سوى المجد الذي من عند الله[196]».
فإن كل مجدٍ بشريّ، وكل كرامةٍ زمنية، وكل رفعةٍ عالمية، إنما هي بطلانٌ وحماقة، إذا قيست بمجدك الأبدي.
فيا حقي ورحمتي وإلهي، أيها الثالوث المغبوط، لك وحدك التسبيح والكرامة والقدرة والمجد، الى دهر الدهور التي لا نهاية لها .

*** ***

الفصل الحادي والأربعون
في احتقار كل كرامة زمنية

1- المسيح : يا بنيّ، لا تغتمّ إذا رأيت الآخرين في كرامةٍ ورفعة، وأنت في هوانٍ وضعة.
إرفع إليّ قلبك نحن السماء، فلا يحزنك احتقار الناس على الأرض.

2- التلميذ : ربّ إننا لفي عمى، وسرعان ما يخدعنا الباطل.
إذا تاملت نفسي بمقتضى الصواب، وجدت ان ما من خليقةٍ قط قد ظلمتني؛ فلا يحق لي إذن أن أتشكى منك ؛
ولكن، من حيث إني قد خطئت اليك خطايا كثيرة وثقيلة، فبعدلٍ تتسلح علي الخليقة كلها.
فلي إذن يحق الخزي والاحتقار، أما لك، فالتسبيح والكرامة والمجد.
وإن لم أوّطن النفس على أن أقبل، بسرور، إحتقار جميع الخلائق وإهمالهم، وحسبانهم أياي عدماً مطلقاً، فلا أستطيع أن أحصل في داخلي على سلامٍ ثابت، ولا أن أستنير استنارة روحية، أو أتحد بك اتحاداً كاملاً.

*** ***

الفصل الثاني والأربعون
في انه لا ينبغي للانسان أن يجعل سلامه في الناس

1- المسيح : يا بنيّ، إن جعلت سلامك في أحدٍ من الناس، لتوافق آرائكما والفة العيش بينكما، فإنك تكون في قلقٍ وارتباك.
ولكن إن اعتصمت بالحق الحي الثابت على الدوام، فلن يحزنك فراق الصديق أو موته.
فيّ أنا يجب أن تقوم المحبة للصديق؛ وكل من بدا لك صالحاً، وكان عزيزاً عليك جداً في هذه الحياة، فلأجلي أنا يجب أن تحبّه.
ما من صداقةٍ تقوى على الثبات بدوني؛ والمودّة التي لست أنا رباطها، ما هي بصادقةٍ ولا نقية.
فعليك أن تكون ميتاً عن مثل هذه العواطف لأعزائك بين البشر، بحيث تتوق، قد استطاعتك، أن تكون معتزلاً عن كل عشرةٍ بشرية.
بمقدار ما يتباعد الإنسان عن كل تعزيةٍ أرضية، يزداد تقرّباً الى الله ؛
وبمقدار ما يتعمق في الاتضاع وفي احتقار ذاته، يزداد ارتفاعاً نحو الله.

2- أما الذي يعزو الى نفسه شيئاً من الخير، فإنه يمنع حلول نعمة الله فيه، لأن نعمة الروح القدس تطلب دائماً القلب المتواضع.
لو عرفت أن تتلاشى تلاشياً كاملاً، وتخلي نفسك من كل حبٍ للخلائق، إذن لحللت فيك مع غزارة نعمي.
متى نظرت الى الخلائق، توارى عنك منظر الخالق.
تعلم أن تقهر ذاتك في كل شيءٍ من أجل الخالق، فتستطيع حينئذٍ أن تبلغ الى المعرفة الإلهية.
إذا نظرنا الى شيء – مهما كان صغيراً – واحببناه على خلاف الترتيب، فإنه يفسد النفس ويعوقها عن الخير الأعظم.

*** ***

الفصل الثالث والأربعون
ضد العلم الدنيوي الباطل

1- المسيح : يا بنيّ، لا تتأثر بما في اقوال الناس من أناقةٍ ولطافة، «فإن ملكوت الله ليس بالكلام بل بالقوة[197]».
أصغِ الى أقوالي، فإنها تضرم القلوب، وتنير الأذهان، وتنشئُ الانسحاق، وتبعث في النفس تعزيات متنوعة.
إياكَ أن تقرأ يوماً كلامي، لكي تظهر أعلم أو أحكم.
إجتهد في قهر رذائلك، فان ذلك أنفع لك من معرفة كثيرٍ من المسائل العويصة.

2- لا بدّ لك، بعد المطالعات والاقتباسات الكثيرة، أن تعود دوماً الى المبدإ الواحد.
«أنا الذي يلقّن الإنسان العلم[198]»، «ويفقه الصغراء تفقيهاً أجلى من كل تعليمٍ بشري[199]».
إن من أكلمه أنا، سرعان ما يصبح حكيماً، ويتقدّم كثيراً في الروح.
ويلٌ للذين يسألون الناس عن امورٍ كثيرةٍ فضولية، وهم قلما يهتمون في كيف يخدموننني.
سيأتي زمانٌ يظهر فيه المسيح معلّم المعلمين، وربُّ الملائكة، لكي يستنطق الجميع، أي ليفحص ضمير كل أحد.
وحينئذٍ «تفتش أورشليم بالسرج[200]»، «فتظهر خفايا الظلام[201]»، وتصمت براهين الألسنة.

3- أنا الذي، في لحظة، يرفع العقل المتواضع، فيدرك من براهين الحق الأزلي، أكثر مما لن تعلم في المدارس مدة عشر سنين.
أنا أعلم من غير دوي كلام، ومن غير اختلاطٍ في الآراء؛ من غير عرضٍ لشارات الشرف، ومن غير تضارب في البراهين.
أنا الذي يعلم الإنسان أن يحتقر الأرضيات، ويكره الزمنيات؛ أن يطلب الأبديات، ويتذوّق الأزليات؛ أن يهرب من الكرامات، ويحتمل المعاثر؛ أن يجعل في كل ثقته، ولا يشتهي شيئاً خارجاً عني، وأن يحبني فوق كل شيء محبة مضطرمة.

4- فربَّ رجلٍ أحبني محبة صميمة، فتعلم بذلك الالهيات، ونطق بالعجائب ؛
وبتركه كلّ شيء، قد استفاد أكثر مما لو درس الأمور العويصة.
ولكنني أكلم البعض بأشياء عمومية، والبعض بأشياء خصوصية؛ للبعض أظهر برفقٍ في رموز وألغاز، وللبعض أعلن أسراري في غمرٍ من النور.
واحدٌ هو صوت الكتب، ولكنه لا يفقه الجميع على السواء، لأني أنا اعلم الحق في الداخل، «وأفحص القلوب وأدرك الأفكار[202]»، وأبعث على العمل، وأوزع لكل واحدٍ بحسب ما أراه موافقاً.

*** ***

الفصل الرابع والأربعون
في عدم الارتباك بالأمور الخارجية

1- المسيح : يا بنيّ، ينبغي لك أن تبقى جاهلاً لأمور كثيرة، وأن تحسب نفسك، على الأرض، «مثل ميتٍ قد صلب له العالم كله[203]».
وينبغي لك أيضاً أن تصمّ أذنك عن أحاديث كثيرة، وأن تفكر، بالحريّ، في ما يعود عليك بالسلام.
إنه لأنفع لك أن تحوّل النظر عما يسوءك، وأن تترك كل واحدٍ ورأيه، من أن تتفرغ لكلام المماحكات.
إن اعتصمت جيداً بالله، ونظرت الى أحكامه، هان عليك احتمال الفشل في الجدال.

2- التلميذ : آه! ربّ، الى أين صرنا؟ ها نحن نبكي على خسارةٍ زمنية، ونسعى ونكدّ لأجل ربحٍ زهيد ؛ أما الخسائر الروحية، فنتناساها ولا نكاد نذكرها إلا بعد الأوان.
نهتم لما هو قليل النفع أو لا نفع فيه؛ وندع، عن تهاون، ما هو في غاية الضرورة، لأن الإنسان ينصب بجملته الى الخارج؛ وإن هو لم يرعو سريعاً، فإنه يبقى مضجعاً، عن رضى، في الأمور الخارجية.

*** ***

الفصل الخامس والأربعون
في أنه لا ينبغي أن نصدق جميع الناس
وفي سهولة الزلل في الكلام

1- التلميذ : «هب لي يا ربّ نصرةً على الضيق، فإن تخليص البشر باطل[204]».
ما أكثر ما أخطأت وجود الأمانة، حيث ظننت أني أصيبها !
وكم من مرة عثرت عليها، حيث لم أكن أتوقعها !

فباطلٌ إذن التوكل على البشر! «أما خلاص الصديقين، فهو فيك أنت يا الله[205]».
تباركت أيها الرب الهي في كل ما يحل بنا!
إننا لضعفاء ومتقلبون، وسرعان ما نضلّ ونتغيّر.

2- من هو الإنسان الذي يستطيع أن يتحفظ، متحذراً ومحتاطاً لنفسه في كل شيء، بحيث لا يقع أحياناً في خديعةٍ أو حيرة ؟
أما الذي يتتكل عليك يا ربّ، ويلتمسك بقلبٍ سليم، فإنه لا يزلّ بمثل تلك السهولة.

وإن وقع في ضيق، فأيّا كان ارتباكه فيه، فإنك تنقذه أو تعزيه سريعاً، لأنك «لا تخذل، حتى المنتهى، من يتوكل عليك[206]».
نادرٌ الصديق الأمين، الذي يثبت على الولاء لصديقه في جميع مضايقه.
أنت يا ربّ، أنت وحدك الأمين جداً بين جميع الأصدقاء، وليس مثلك آخر غيرك.

3- آه ! ما أعظم حكمة تلك النفس القديسة القائلة : «إن عقلي ثابت وموطدٌ في المسيح[207]»!
فلو كنت أنا كذلك، لما كان خوف البشر يقلقني بهذه السهولة، ولما كنت أتأثر جداً لسهام كلامهم.
من يمكنه أن يرى جميع المستقبلات، أو أن يتلافى الشرور قبل وقوعها ؟
وإذا كانت الشرور نفسها التي سبقنا فتوقعناها، كثيراً ما تؤذينا، فكيف يمكن للضربات المفاجئة، أن تحلّ بنا من غير ايلامٍ شديد ؟
ولكن لِمَ لم أكن أكثر احتياطاً لنفسي، أن الشقيّ؟ ولم صدّقت الآخرين بتلك السهولة.
غير أننا بشرٌ، بشرٌ ضعافٌ ليس إلا – وإن كان الكثيرون يحسبوننا ويدعوننا ملائكة.
فمن أصدّق يا ربّ ؟من أصدّق غيرك ؟
أنت هو الحق الذي لا يغشُّ، ولا يمكن أن يغشّ.
وعلى عكس ذلك، «فكل إنسان إنما هو كاذبٌ[208]»، ضعيفٌ متقلب، سريع الزلل ولا سيما في الكلام، حتى إنه لا يسوغ، إلا بالجهد، أن نصدّق لأول وهلة، ما يبدو لَنا مستقيماً في كلامه.

4- ما أعظم الفطنة التي بها سبقت فنبهتنا الى الحذر من الناس، والى أن «أعداء الإنسان أهل بيته[209]»، والى عدم التصديق إن قال احد : «هوذا المسيح هنا أو هناك[210]»!
لقد تعلمت ذلك بالاختبار، وعسى أن يأولى الى ازدياد تحفظي، لا غباوتي!
يقول لي أحدهم : تحفظ ! تحفظ ! أكتم في نفسك ما أنا قائلٌ لك. – وفيما أنا صامتٌ وخاسبٌ سرّه في الكتمان، إذا به، هو نفسه، لا يستطيع الصمت عما طلب عنه الصمت، بل يخونني في الحال، ويخون نفسه، ويمضي.
إحفظني، يا ربّ، من مثل تلك الخزعبلات، ومن مثل اولئك القوم القليلي التحفظ، لئلا أقع في أيديهم، أو أقترف أبداً مثل تلك الخيانات.
ضع في فمي كلاماً صادقاً لا يتبدّل، وأقص عني لسان المخاتلة.
فإن ما لا أريد احتماله من قبل الآخرين، عليّ أنا أيضاً أن أتجنبه بكل احتراز.

5- آه! كم يعود على الإنسان بالخير والسلام، أن يصمت عن شؤون الآخرين، ولا يصدّق كل شيء دون ما تمييز، ولا يذيع كل شيء بسهولة؛ ولا يكشف ضميره إلا للقليلين، بل يلتمسك أنت دوماً فاحصاً لقلبه؛ ولا يتقلب لكل ريح كلام، بل يتمنى ان تتمّ جميع الأمور، في داخله وخارجاً عنه، وفق مسرّة مشيئتك!
ما آمنها طريقة لحفظ النعمة السماوية، أن يهرب الإنسان من الظهور بين الناس، ولا يشتهي ما قد يستجلب إعجابهم به في الخارج، بل ان يتطلب، بكل نشاط، ما يولي الحرارة وإصلاح السيرة !
ما أكثر من ضرّهم اشتهار فضيلتهم وامتداحها قبل الأوان !
وكم كان مفيداً، حقاً، كتمان النعمة في هذه الحياة المعرّضة للأخطار، التي ليست كلها- كما يقال – سوى تجربة وجهاد !

*** ***

الفصل السادس والأربعون

في وجوب التوكل على الله عندما نرشق بسهام الكلام

1- المسيح : يا بنيّ، كن ثابتاً واجعل فيّ ثقتك. فهل الكلام سوى كلام ؟ إنه يتطاير في الهواء، ولكنه لا يصدّع الحجر.
إن كنت مذنباً، فيجب أن ترتاح الى إصلاح نفسك.
وإن كان ضميرك لا يوبخك على شيء، فعليك أن تحتمل، برضى، تلك التهمة من أجل الله.
ليس بالكثير أن تحتمل الكلام أحياناً، ما دمت غير قادرٍ بعد على تحمّل الضربات الشديدة.
ولم تنفذ، حتى قلبك، كلماتٌ غايةٌ في التفاهة، إلا لكونك لا تزال جسدياً، تلتفت الى أحكام البشر أكثر مما ينبغي ؟
فإنك، لخوفك من الاحتقار، تأبى أن تلام على رذائلك، وتلتمس لها ستر الأعذار.

2- ولكن أنعم النظر في نفسك، يتحقق لك أن العالم لا يزال حيّاً فيك، وكذلك الرغبة الباطلة في إرضاء الناس.
وما نفورك من أن يلحق بك الذل والخزي من أجل نقائصك، إلا دليلٌ واضحٌ على أنك لست بالمتواضع الحقيقي، وأنك لم تمت حقاً عن العالم، «وان العالم لم يصلب لك[211]».
ولكن اسمع كلمة مني، فلا تعود تأبه لعشرة آلاف كلمةٍ من البشر.
فلو قيل في حقك أشنع ما يمكن تلفيقه، فأي ضررٍ يلحق بك من ذلك، إن أنت أغضيت عنه تمام الإغضاء، ولم تحتسبه إلا كتبنةٍ صغيرة ؟ ألعله يستطيع أن يسلبك شعرةً واحدة ؟

3- أما من كان قلبه غير موّجه الى الداخل، ولم يكن الله نصب عينيه، فإنه يتأثر بسهولةٍ من كلام التعيير ؛
فيما الذي يتوكل عليّ، ولا يبتغي الاعتماد على حكمه الذاتي، لا يخشى من الناس شيئاً.
فإني أنا الديّان العارف جميع الأسرار؛ أنا أعلم كيف جرت الحوادث؛ أنا أعرف الظالم والمظلوم.
من قبلي انطلقت تلك الكلمة؛ وبإذني حدث ذلك الأمر، «حتى تكشف أفكارٌ من قلوبٍ كثيرة[212]».
أنا سأدين المجرم والبريء؛ ولكنني أردت، قبلاً، أن أمتحن كليهما بحكمٍ خفي.

4- شهادة البشر كثيراً ما تخدع، أما حكمي فحقٌ ثابتٌ لا ينقض.
إنه لخفيٌ في أغلب الأحيان، وقليلون هم الذين يتجلى لهم في كل أمر؛ لكنه لا يغلط أبداً، ولا يمكن أن يغلط ، وإن بدا غير قويمٍ في عيون الأغبياء.
فإليّ إذن يجب الرجوع في كل حكم، من غير اعتمادٍ على الرأي الذاتي.
فالصدّيقُ لا يضطرب، مهما أصابه من قبل الله.
وإن قيل في حقه شيءٌ – ولو ظلماً – فقلما يكترث له.
بل ولو عذره الآخرون بأعذارٍ صوابية، فإنه لا يبتهج باطلاً.
لأنه يذكر «أني انا فاحص القلوب والكلى[213]»، لا أحكم بحسب الوجه وظواهر البشر.
فكثيراً ما يكون أثيماً في عينيّ، ما هو في حكم الناس جديرّ بالمديح.

5- التلميذ : أيها الرب الإله، «الديّان العادل، القدير[214]» الصبور، العالم بضعف البشر وفسادهم، كن أنت قوّتي وكل متكلي، لأن ضميري لا يكفيني.
أنت العليم بما لا أعلمه أنا؛ ولذلك كان من الواجب عليّ أن أتضع لدى كل توبيخ، وأصبر عليه بحلم.
فسامحني يا ربّ، في حنوّك، عن كل مرةٍ لم أسلك فيها على هذا النحو، وأعطني، من جديد، نعمةً لتحمل آلامٍ أعظم.
فإن رحمتك الوافرة هي خيرٌ لي، لنيل الغفران، من كل ما أتوّهم في نفسي من البرّ، تزكية لخفايا ضميري.
فإني – وإن كنت «لا أشعر بشيء في ضميري- لا أستطيع، مع ذلك، تزكية نفسي[215]»، لأنه إذا تباعدت رحمتك، «فلا يزكو أمامك أحد من الأحياء[216]».

*** ***

الفصل السابع والأربعون
في أنه يجب على الإنسان أن يحتمل جميع المشقات
لأجل الحياة الأبدية

1- المسيح : يا بنيّ، لا تحطمّنك الأتعاب التي باشرتها لأجلي، ولا تذهبنّ المضايق بعزمك تماماً؛ بل ليقوك وعدي، ويعزّك في كل ما يحدث لك.
إني قادرٌ أن أكافئك، بما يفوق كل حدٍ وقياس.
إن زمن أتعابك هنا لن يطول، وتراكم الأوجاع عليك لن يدوم.
إنتظر قليلاً، فترى عما قريبٍ نهاية مصائبك.
ستأتي ساعة ينقطع فيها كل تعب وقلق.
إنه لقليل وزائل، كل ما يعبر مع الزمن.

2- أتقن ما تعمل، واشتغل بأمانةٍ في كرمي، «فأكون أنا أجرك[217]».
أكتب، واقرأ، ورنم، وتنهّد، والزم الصمت، وصلّ، واحتمل المعاكسات ببأس : فإن الحياة الأبدية تستحق كل هذه الجهادات وأعظم منها.
سيأتي السلام في يومٍ يعلمه الرب، «فلا يكون نهارٌ ثم ليل[218]»، كما في هذا الزمان، بل نورٌ دائمٌ وسنى غير متناهٍ، وسلامٌ ثابتٌ، وراحةٌ راهنة.
وحينئذٍ لا تقول : «من ينقذني من جسد الموت هذا[219]»، ولا تصرخ :«ويلي ! فإنّ غربتي قد طالت[220]»؛ «لأن الموت سيباد[221]»، وخلاصك يتوّطد، ولا يكون قلقٌ، بل فرحٌ وسعادة، ورفقة عذبةٌ مجيدة.

3- آه! لو كنت ترى، في السماء، أكاليل القديسين الخالدة، وكم يبتهج الآن في المجد، أولئك الذين كان العالم يحتقرهم في الماضي، ويحسبهم غير أهلٍ حتى للحياة، إذن لكنت، ولا شك، تتضع حالا حتى التراب، وتؤثر بالأولى أن تخضع للجميع، على أن تتقدّم على واحدٍ فقط ؛

ولما كنت تشتهي أيام سرورٍ في هذه الحياة، بل بالحري لكنت تفرح باحتمال المضايق من أجل الله، وتحتسب كأعظم ربح، أن تعدّ كلا شيءٍ بين الناس.

4- آه ! لو تذوقت هذه الحقائق، ولو نفذت هي الى أعماق قلبك، إذن فكيف كنت تجسر على التشكي ولو مرة واحدة ؟

أليس من الواجب احتمال جميع المشقات، لأجل الحياة الأبدية ؟

فإن خسران ملكوت الله أو ربحه ليس بالأمر اليسير.

فارفع إذن وجهك نحو السماء، فها أنا ذا وجميع قديسيّ معي: لقد جاهدوا في هذا الدهر جهاداً شديداً، وها هم الآن يفرحون، الآن يتعزّون، الآن يتنعمون بالطمأنينة، الآن يستريحون، وسوف يبقون معي الى الأبد في ملكوت أبي.

*** ***

الفصل الثامن والأربعون
في نهار الأبدية وفي مضايق هذه الحياة

1- التلميذ : يا لسعادة المقام في المدينة العلوية! يا لنهار الأبدية الجزيل السّنى، الذي لا يغشاه ليل، بل يشعُّ عليه دوماً الحق الأعظم! نهارٌ دائم الفرح، دائم الطمأنينة، لا تناله أبداً تقلبات الأحوال!
آه! يا ليت ذلك النهار قد أشرق، وجميع هذه الزمنيات قد بلغت نهايتها !
أجل، إنه يضيء للقديسين بسنى ضياءٍ دائم؛ «أما المتغرّبون على الأرض، فلا يضيء لهم إلا عن بعد، وكما في مرآة[222]».

2- إن سكان الوطن السماوي، يعرفون ما في ذلك النهار من السرور، أما أولاد حواء المنفيون، فإنهم يتنهدون لما في حياتهم هذه من المرارة والسأم.
«أيام هذا الدهر قليلةٌ ورديئة[223]»، ومفعمة بالأوجاع والمضايق، فيها يتدّنس الإنسان بخطايا كثيرة، ويقتنص بحبائل أهواء جمة؛ تضايقه كثرة المخاوف، وتتنازعه كثرة الهموم، وتتجاذبه كثرة الملاهي، يرتبك في الأباطيل الكثيرة، وتكتنفه كثرة الأضاليل، ترهقه المتاعب

الكثيرة، وتثقله التجارب؛ توهنه اللذات، وتعذبه الفاقة.

3- آه! متى تنتهي هذه الشرور؟ ومتى أعتق من عبودية الرذائل التاعسة ؟
متى أذكرك أنت وحدك، يا رب ؟ ومتى أفرح بك تمام الفرح ؟
متى أتخلص من كل عائق، فأكون في الحرية الحقة، خالياً من كل ما يثقل الروح والجسد ؟
متى أتمتع بالسلام الثابت، بالسلام الراهن غير المتزعزع، بالسلام الداخلي والخارجي، بالسلام الموطد من كل جهة ؟
يا يسوع الصالح، متى أقف لأراك ؟ متى أشاهد مجد ملكوتك ؟ متى تكون لي «كلا في الكل [224]».
متى أكون معك في «ملكوتك، الذي هيّأته منذ الأزل لأحبائك[225]» ؟
لقد تركت بائساً منفياً في أرض العدو، حيث الحروب كل يوم، والتعس شديدٌ جداً.

4- عزّ منفاي وخفف وجعي، فإني تائقٌ اليك بكل رغبتي.
إنه لوقرٌ علي، كل ما يقدّمه هذا العالم لتعزيتي.
فأنا أتوق الى التمتع بك في داخلي، ولكنني لا أستطيع إدراك ذلك.
أتمنى التعلق بالسماويات، ولكن الأمور الزمنية، والأهواء غير المماتة، تهوي بي الى أسف.
أريد بالروح أن أسمو فوق جميع الأشياء، لكن الجسد يضطرني الى الخضوع لها مرغماً.
وهكذا فإني احارب ذاتي انا الإنسان الشقيّ، «وقد صرت ثقلاً على نفسي[226]»، إذ الروح يطلب الارتفاع الى علٍ، والجسد الهويان الى أسفل.

5- ما أشد ما أقاسي في داخلي، عندما أكون في تأمل السماويات، وإذا بجماهير الأفكار الجسدية تجتاحني، قاطعةً عليّ صلاتي!
«أللهم، لا تبعد عني[227]»، «ولا تنبذ بغضبٍ عبدك[228]».
«أبرق ببرقك، وشتت تلك الأفكار؛ أرسل سهامك[229]»، فتنهزم جميع خيالات العدوّ.
إجمع اليك حواسي، وأنسني جميع الدنيويات، أعطني أن أطرد سريعاً خيالات الرذائل وأحتقرها.
أنصرني أيها الحق الأزلي، لئلا أتأثر بشيء باطل.
تعالي، أيتها العذوبة السماوية، ولينهزم من وجهك كل دنس.
سامحني واصفح عني برحمتك، كلما فكرت، في صلاتي، بشيءٍ آخر سواك.
فإني أعترفُ، في الحقيقة، أنني عادة كثيرُ التشتت.
إذ كثيراً ما لا أكون حيث انا واقفٌ أو جالسٌ بالجسد، بل، بالحريّ، أكون حيث تحملني أفكاري.
حيثما تكن أفكاري، فهناك أكون؛ وأفكاري تكون، في الغالب، حيث يكون ما أحبّ.
وما يخطر على بالي سريعاً، إنما هو الأمور التي تلذ لي طبعاً، أو تروقني بسبب العادة.

6- ومن ثم، فإنك أنت أيها الحق قد قلت صريحاً: «حيث يكون قلبك، فهناك يكون كنزك أيضاً[230]».
إن أحببت السماء، لذ لي التفكر بالسماويات ؛
وإن أحببت العالم، فرحت لنعيم العالم، وحزنت لبلاياه.
إن أحببت الجسد، تصوّرت، غالباً، ما هو للجسد ؛
وإن أحببت الروح، لذ لي التفكر بالرُّوحيات .
فكل ما احبه، أرتاح الى التحدث واستماع التحدث عنه؛ وأنقل صورته معي الى منزلي.
ولكن طوبى للانسان الذي، من أجلك يا ربّ، يسرّح جميع الخلائق من قلبه، ويغصب طبيعته، ويصلب بحرارة الروح شهوات الجسد، ليقرّب لك، بضمير مطمئن، صلاةً طاهرة، ويؤهل للوقوف بين أجواق الملائكة، بإفصائه عن نفسه، في الخارج وفي الداخل، جميع الأمور الأرضية.

*** ***

الفصل التاسع والأربعون
في الشوق الى الحياة الأبدية
وفي كثرة الخيرات الموعود بها المجاهدون

1- المسيح : يا بنيّ، إذا شعرت بالشوق الى السعادة الأبدية، يفاض عليك من العلاء، واشتهيت الخروج من مسكن جسدك، لتستطيع أن تشاهد

بهائي من غير ظل تحوّل، فاشرح قلبك، واقبل بكل رغبتك هذا الإلهام المقدّس.
أدّ أوفر الشكر للصلاح السامي، الذي يعاملك بمثل هذا الانعطاف، فيفتقدك بحنوّ، ويستحثك بشدة، ويرفعك بقدرته، لئلا تهوي بثقلك الذاتي الى الأرضيات.
فإنك لست بتفكيرك واجتهادك تحصل على ذلك، بل بفضل النعمة العلوية وحدها، وحسن التفات الله اليك، لكي تتقدّم في الفضائل، وفي تواضعٍ أعظم، وتستعد للجهادات المستقبلة، وللاتحاد بي بكل رغبة قلبك، وتجتهد في خدمتي بإرادة مضطرمة.

2- يا بنيّ، في الغالب عندما تتقد النار، لا يتصاعد لهيبها بدون دخان.
كذلك بعض الناس يضطرمون شوقاً الى السماويات، وهم مع ذلك غير محررّين من تجربة الأهواء الجسدية.
فلذلك لا يبتغون مجد الله خاصلاً، في ما يسألونه بشديد الإلحاح.
ومثل ذلك هي في الغالب رغبتك، التي زعمت انها ملحةٌ جداً.
فإنه ليس بطاهرٍ ولا كامل، ما قد أفسدته المصلحة الذاتية.

3- لا تلتمس ما هو لذيذٌ أو نافعٌ لك، بل ما فيه مرضاتي ومجدي؛ لأنك، إن حكمت بالصواب، وجب عليك اتباع تدبيري، مفضلاً إياه على رغبتك أنت وعلى كل رغبة.
«إني عالمٌ برغبتك وقد سمعت كثرة تنهداتك[231]».
تودّ لو كنت، منذ الآن، حاصلاً على «حرية المجد التي لأبناء الله[232]»!، وقد أخذ يلذ لك، منذ الآن، المنزل الأبدي، والوطن السماوي المفعم فرحاً!
بيد أن تلك الساعة لم تأتِ حتى الآن، بل امامك بعد زمانٌ هو زمان حرب، زمان تعب وامتحان.
إنك تتوق أن تمتلئ من الخير الأعظم؛ لكنك لا تستطيع الآن إدراك ذلك.
أنا هو ذلك الخير، فانتظرني – يقول الرب - «حتى يأتي ملكوت الله[233]».

4- لا بدّ لك أن تختبر بعد على الأرض، وتتمرّس بمحنٍ كثيرة.
قد تعطى لك التعزية بين حينٍ وآخر؛ لكنك لن تمنحها بوفرةٍ تشبع رغائبك.
«فتشدد إذن وتقوّ[234]»، في عمل، كما في احتمال ما يعاكس الطبيعة.
ينبغي لك أن «تلبس الإنسان الجديد[235]»، «وتنقلب رجلاً آخر[236]».
عليك أن تعمل غالباً ما لا تريد، وأن تترك ما تريد.
ما يلذ للآخرين يلقى نجاحاً، وما يلذ لك أنت لا ينجح.
ما يقوله الآخرون يصغى اليه، وما تقوله أنت يحسب كلا شيء.
يطلب الآخرون فينالون، وتطلب أنت فلا تحصل على شيء.

5- يعظم الآخرون في أفواه الناس؛ أما أنت فليس من يأبى بذكرك.
يعهد الى الآخرين في هذا العمل أو ذاك، أما انت فتحسب غير صالحٍ لشيء.
قد يشق ذلك أحياناً على الطبيعة، ويكون أمراً عظيماً أن تحتمله بصمتٍ.
فبهذه المعاكسات وكثيرٍ مثلها، يختبر الربّ، عادةً، عبده الأمين: كيف يستطيع أن ينكر ذاته، ويكسر إرادته في كل شيء.
فإنك قلما تجد أمراً تحتّاج فيه الى إماتة نفسك، بقدر ما تحتاج الى ذلك عندما ترى وتحتمل ما يعاكس إرادتك، ولا سيما إذا أمرت بعمل أمورٍ تراها غير مناسبة وقليلة الفائدة.
ومن حيث أنت مرؤوس لا تجسر على مقاومة سلطة أعلى، فإنك تستثقل السير بحسب إشارة غيرك، والتخلي عن كل رأي ذاتي.

6- ولكن اذكر، يا بنيّ، ثمرة هذه الأتعاب وسرعة زوالها، وما لها من «أجرٍ عظيم جداً[237]»، فلا تجد فيها مشقة من بعد، بل تعزية عظمى لتقوية صبرك.
فإنك بدلاً من هذ الرغبة اليسيرة، التي تتخلى لي الآن عنها طوعاً، سيكون لك في السماء دوام تحقيق مشيئتك.
هناك تجد كل ما تريد، وكل ما تستطيع أن تبتغي.
هناك تتمتع بجميع الخيرات، دون خوفٍ من فقدانها.
هناك تكون إرادتك واحدة مع إرادتي على الدوام، فلا تبتغي شيئاً خارجاً عني أو خاصاً بها.
هناك ما من أحدٍ يقاومك، ولا أحدٍ يتشكى منك؛ ليس من يعوقك، ولا ما يعترضك، بل كل ما تشتهي يكون متوفراً لديك في آن واحد؛ فيشبع جميع رغائبك، ويملأها حتى الجمام.

هناك أكافئ على الأهانات بالمجد، وعلى «الاكتئاب بحلة التسبيح[238]»، وعلى المحل الأخير، بعرش الملك الى الأبد.
هناك تظهر ثمار الطاعة، ويفرح بمشاق التوبة؛ والخضوع المقرون بالتواضع يكلل بإكليل المجد.

7- فانحنِ الآن إذن بتواضع تحت أيدي الجميع، ولا تكترث لمن قال هذا الشيء أو أمر به؛ بل فليكن جل همك، إذا أمرت بشيء أو رغب اليك فيه – سواءٌ كان ذلك من قِبَل رئيسٍ أو مرؤوسٍ أو عديل – أن تتأول كل شيء تأولاً حسناً، وأن تجتهد في تتميمه بنيةٍ خالصة.
ليطلب الواحد هذا الشيء والآخَر ذاك، وليفتخر الواحد بهذا الأمر والآخر بذاك، ولينالوا ألف ألف مديح؛ أما أنت فلا تفرح بهذا ولا بذاك، بل باحتقار نفسك، وبإرضائي وإكرامي أنا وحدي.
هذا ما يجب أن تتوق اليه: «أن يتمجّد الله فيك دائماً، سواءٌ بالحياة أم بالموت[239]».

*** ***

الفصل الخمسون
كيف يجب على الانسان الذي في وحشة ان يقرب نفسه في يدي الله

1- التلميذ : أيها الرب الإله، الآب القدوس، تباركت الآن والى الأبد، لأنه كما شئت كذلك حدثت الأمور؛وما تفعله فإنه حسن.
ليفرح عبدك بك، لا بنفسه ولا بأحدٍ آخر سواك، لأنك أنت وحدك الفرح الحقيقي، أنت رجائي وإكليلي، أنت سروري وفخري يا ربّ.
«أي شيءٍ لعبدك غير ما ناله منك ؟[240]»، وقد ناله أيضاً من غيرما استحقاق.
لك هو كل شيء : جميع ما اعطيت، وجميع ما صنعت.
«بائس أنا، وفي العناء منذ حداثتي[241]»، ولقد تحزن نفسي أحياناً حتى الدموع، وأحياناً تقلق في ذاتها، لما يهددها من الآلام.

2- إني أتوق الى فرح السلام، وأسألك بإلحاح سلام بنيك، الذين ترعاهم في نور تعزيتك.
فإن أعطيتني هذا السلام، وأفضت عليّ هذا الفرح المقدّس، امتلأت نفس عبدك تهليلاً، ونشطت بحرارةٍ الى تسبيحك.
ولكن إن احتجبت عنها، على مألوف عادتك، فإنها لن تستطيع «الإسراع في طريق وصاياك[242]»، بل تحني ركبتيها لتقرع صدرها، لأنها «لم تعد كما كانت أمس فما قبل[243]»، حين كان «مصباحك يضيء على رأسها[244]»، «وهي تحتمي، من وثبات التجارب، تحت ظل جناحيك[245]».

3- أيها الآب المستحق المحبة، إنه لمن العدل أن يتحمل عبدك، في هذه الساعة، بعض الشدة لأجلك.
أيها الآب المستحق الإكرام على الدوام، قد أتت الساعة التي سبقت فعلمت منذ الأزل أنها آتية، وفيها يسقط عبدك في الظاهر زماناً قصيراً، ليحيا فيك على الدوام في الداخل؛ ويتحمل، لمدة قصيرة، الاحتقار والضعة، والانمحاء أمام الناس، ويسحق بالآلام والأسقام، ليقوم معك ثانية في فجر النهار الجديد، ويمجّد الله في السماء.
أيها الآب القدوس، هكذا أنت دبّرت وهكذا شئت، وما أمرت به قد تمّ.

4- فهذه هي النعمة التي تختص بها حبيبك: أن يتألم، ويعاني الشدائد في هذا العالم حباً لك، كلما تسمح، وعن يد من تسمح.
فإنه لا شيء يحدث على الأرض بدون مشورتك وعنايتك، ولا بدون سبب.
«حسنٌ لي، أيها الرب، أنك أذللتني، لكي أتعلم رسومك[246]»، فأنبذ من قلبي كل تزّفع وعجب.
من المفيد لي أن قد «غطى الخجل وجهي[247]»، لكي ألتمس تعزيتي فيك لا في الناس.
ولقد تعلمت من ذلك ايضاً، أن أرهب أحكامك التي لا تفحص، فإنك تضرب الصديق مع الكافر، ولكن لا بدون عدلٍ وإنصاف.

5- أشكرك لأنك لم تشفق على شروري، بل بضرباتٍ مرّة سحقتني، فأثقلتني بالأوجاع، وكربتني بالمضايق، في الخارج وفي الداخل.
لا أحد من كل ما تحت السماء، يستطيع أن يعزّيني، سواك أنت أيها الرب إلهي، طبيب النفوس السماوي، الذي «يضرب ويشفي، ويحدر الى الجحيم ويصعد منها[248]».
تأديبك عليّ، وعصاك هي التي تعلمني.

6- أيها الآب الحبيب، ها أنا ذا بين يديك، إني أنحني تحت عصا تأديبك؛ فاضرب ظهري وعنقي، حتى أسوّي اعوجاجي وفق إرادتك.

إجعلني – كما تعرف عادةً أن تصنع – تلميذاً عابداً متواضعاً، حتى أسير طوع إشارتك في كلِ شيء.

إني استودعك نفسي وكل مالي، للتأديب؛ لأن التأديب في هذه الحياة، خيرٌ منه في الأخرى.

أنت عالمٌ بجميع الأشياء وبكل منها؛ ولا يخفى عليك شيءٌ في ضمير البشر.

إنك تعرف المستقبلات قبل حدوثها، وليس بك حاجةٌ أن يعلمك أحد، أو يخبرك بما يجري على الأرض.

أنت تعلم ما يصلح لتقدّمي، وكم الشدة نافعةٌ لجلي النفس من صدإ الرذائل.

عاملني بحسب مسرّتك – فذلك ما أبتغي- ولا تزدر حياتي الأثيمة، التي ليس أحدٌ أعلم بها منك وحدك.

7- أعطني، يا ربّ، أن أعرف ما ينبغي عليّ معرفته، وأن أحبّ ما يجب محبته؛ أن أمدح ما كان اكثر مرضاة لك، وأن أستعظم ما كان كريماً لديك، وأحتقر ما تستقذره عيناك.

لا تدعني «أقضي في الأمور بحسب ما تتراءى لعينيّ في الظاهر، ولا أحكم فيها بحسب ما تسمع آذان الجهال[249]»، بل اجعلني أميّز، بحكمٍ صائب، بين الأمور الحسية والروحية، وأبتغي دائماً مسرّتك فوق كل شيء.

8- كثيراً ما تضلُّ آراء البشر في الحكم، وكذلك محبو هذا الدهر، فإنهم يضلون لأنهم لا يحبون سوى الأشياء الحسية.

ألعل الإنسان يزداد فضلاً، إن حسبه إنسانٌ آخر أعظم مما هو ؟
من رفع إنساناً، فإنما هو خداعٌ يغش خداعاً، وصلفٌ يعش صلفاً، وأعمى يغش أعمى، وعاجزٌ يغش عاجزاً. والحق أنه بمدحه الباطل، لا يزيده إلا خزياً.
فإن قيمة كل أحد – على ما يقول القديس فرنسيس المتواضع – إنما هي قيمته في عينيك، وليس أكثر.

*** ***

الفصل الحادي والخمسون
في العكوف على الأعمال الوضيعة
عند التقصير عن الأعمال السامية

1- المسيح : يا بنيّ، إنك لا تستطيع البقاء دائماً في شوقٍ مضطرم الى الفضائل، ولا الاستمرار في درجة سامية من التأمل، بل تضطرُّ، أحياناً من جرى الفساد الذي ألحقته الخطيئة الأصلية، أن تنحط الى أمورٍ أوضع، وتحمل – وإن مرغماً سئماً- ثقل هذه الحياة الفانية.
فإنك ما دمت تحمل هذا الجسد المائت، ستشعر في قلبك بالسأم والمشقة.
فمن الواجب إذن، وأنت في الجسد، أن تئن كثيراً من ثقل الجسد، لأنك لا تستطيع أن تلازم، بلا انقطاع، الرياضات الروحية، والتأمل في الإلهيات.

2- فمن المفيد لك، عندئذٍ، أن تلجأ الى الأعمال الوضيعة الخارجية، وأن تنعش نفسك بالأعمال الصالحة، منتظراً مجيئي وتعزيتي السماوية، بثقة وطيدة، ومحتملاً بصبرٍ منفاك ويبوسة قلبك، الى أن أفتقدك ثانية، فأنقذك من جميع ما يقلقك.
فإني سأنسيك الأتعاب، وأمتّعك بالراحة الداخلية وأبسط أمامك مروج الكتب المقدسة،» فتبدأ تسرع في طريق وصاياي بقلبٍ منشرح[250]»، وتقول :
«إن آلام هذا الدهر لا تتناسب مع المجد المزمع أن يتجلى فينا[251]».

*** ***

الفصل الثاني والخمسون
في انه لا يسوغ للانسان أن يحسب نفسه مستحقاً التعزية
بل بالحري مستوجباً الضربات

1- التلميذ : ربّ، إني لست مستحقاً تعزيتك، ولا أي افتقاد روحي. ولذلك، فإنك بعدلٍ تعاملني عندما تتركني بائساً مستوحشاً.
فإني، ولو استطعت أن أذرف الدموع كالبحر، لا أزال غير أهلٍ لتعزيتك.
فأنا لا أستحق سوى الجلد والعقاب، لأني كثيراً ما أهنتك إهاناتٍ ثقيلة، بل كثيراً ما أثمت آثاماً عظيمة.
فأنا إذن، بمقتضى العقل الصوابيّ، لست مستحقاً أدنى تعزية.
لكن أنت أيها الإله الرؤوف الرّحيم، الذي لا يشاء هلاك مصنوعاته، تتنازل، قاصداً «إظهار غنى جودك على آنية الرحمة»، فتعزي عبدك – حتى عن غير استحقاق منه – على وجه يفوق مألوف البشر.
فإن تعزياتك ليست كخرافات الناس.

2- أي شيء صنعت يا رب، حتى تهب لي أدنى تعزية سماوية ؟
أنا لا اذكر أني فعلت شيئاً من الصلاح؛ ولكني أذكر أني قد كنت دوماً ميّالاً الى الرذائل، متكاسلاً عن إصلاح نفسي.
ذاك هو الحق، ولا أستطيع إنكاره.
وإن قلت غير ذلك، فإنك تقوم في وجهي، وليس من يدافع عني.
ماذا استوجبت بخطاياي، سوى جهنم والنار الأبدية ؟
أنا أعترف بأني مستوجبٌ، حقاً، كل سخريةٍ واحتقار، وأنه لا يسوغ لي أن أحسب بين عبادك.
إني، وإن شق عليّ سماع هذه الشكوى، أعترف مع ذلك بخطاياي، من أجل الحق، لكي أستحق أن أنال رحمتك على وجه أيسر.

3- فماذا أقول أنا الأثيم الممتلئ من كل خزي ؟
ليس لي فمٌ ينطق بغير هذه الكلمة : خطئت، يا رب، خطئت، فارحمني واغفر لي!
دعني قليلاً لأبكي وجعي، «قبل أن أنصرف الى أرضٍ مظلمة غشيها ظل الموت[252]».
وماذا تطلب، على الخصوص، من خاطئ أثيم بائس، سوى أن ينسحق ويتّضع بسبب آثامه ؟
فإنه بالانسحاق الحقيقي وتواضع القلب، ينشَّأ رجاء المغفرة، ويسكن الضمير المضطرب؛ وتسترد النعمة المفقودة، ويتقي الإنسان الغضب الآتي؛ وبقبلةٍ مقدسة، يتلاقى الله والنفس التائبة.

4- فإن الانسحاق على الخطايا، إذا قرن بالتواضع، لذبيحةٌ مرضيةٌ لديك يا رب، ورائحتها أذكى بكثيرٍ، أمامك، من تقتير البخور.
هو أيضاً ذلك الطيب الذكي، الذي شئت أن يفاض على قدميك المقدستين، لأن «القلب المنسحق المتواضع لم ترذله قط[253] ».
هناك المعقل من وجه غضب العدو.
هناك يصلح الإنسان نفسه، ويغسلها من كل دنسٍ تلطخت به في مكان آخر.

*** ***

الفصل الثالث والخمسون
في ان نعمة الله لا تأتلف مع تذوق الأرضيات

1- المسيح : يا بنيّ، إن نعمتي كريمة، لا تطيق أن تمازج الأشياء الغريبة، ولا التعزيات الأرضية.
فيبغي لك أن تطرح جميع عوائق النعمة، إن رمت الحصول على فيضانها.
إلتمس لنفسك الخلوة؛ أحبب الإقامة منفرداً مع نفسك؛ لا تبتغ محادثة أحد، بل بالحري اسكب صلاتك الى الله بعبادة، لتحفظ قلبك في الانسحاق، وضميرك في الطهارة.
إحسب العالم كله كلا شيء؛ واجعل التفرّغ لله، قبل جميع الأمور الخارجية.
فإنك لا تستطيع، في آنٍ واحد، أن تتفرّغ لي وتلتذ في الأمور الزائلة.
ينبغي لك أن تبتعد عن معارفك وأحبائك، وأن تحفظ ذهنك خالياً من كل تعزية زمنية.

هكذا الرسول المغبوط بطرس، يستحلف المؤمنين بالمسيح، أن يحسبوا أنفسهم «كغرباء ونزلاء في هذا العالم[254]».

2- ما أعظم ثقة المحتضر، الذي لا يأسره في العالم حب شيء البتة.
أما أن يكون القلب مجرداً هكذا عن كل شيء، فذاك ما لا يفهمه بعد الروح السقيم، كما ان الإنسان الحيوانيّ، لا يدرك حرية الإنسان الداخلي.
على أنه إن رام أن يكون روحانياً حقاً، فينبغي له أن يتجرّد عن الأباعد، تجرّده عن الأقارب، وأن لا يحذر أحداً أكثر من نفسه.
إن قهرت نفسك قهراً كاملاً، هان عليك إخضاع الباقي.
والغلبة الكاملة، إنما هي انتصار الإنسان على نفسه.
فإن من كان متسلطاً على نفسه، بحيث يخضع حواسه لعقله، وعقله لي أنا في كل شيء، فذاك هو حقاً غالب نفسه وسيد العالم.

3- فإن رمت البلوغ الى هذه الذروة، فعليك أن تبدأ بشجاعةٍ، وتجعل الفأس على أصل الشجرة، لكي تقتلع وتبيد الحب الخفيّ المنحرف، الذي يميل بك الى نفسك، وإلى كل مصلحةٍ ذاتية ومادية.
فإن الرذائل الواجب قمعها واستئصالها، تكاد جميعها تتعلق بهذه الرذيلة، أي محبة الإنسان نفسه محبة منحرفة مفرطة؛ فإذا قهرها، وتغلب عليها، تمتع في الحال بسلام وطمأنينة عظيمين.
ولكن من حيث إن المجتهدين في إماتة أنفسهم بالتمام قليلون، بل هم لا يخرجون من ذواتهم على وجه كامل، فإنهم يظلون مرتبكين في انفسهم، ولا يستطيعون أن يرتفعوا بالروح فوق ذواتهم.
أما من يرغب في السير معي بحرية، فلا بدّ له من أن يميت جميع أمياله الفاسدة المنحرفة، وأن لا يتعلق بمخلوق البتة، تعلقاً شهوانياً صادراً عن حبٍ خاص.

*** ***

الفصل الرابع والخمسون
في اختلاف الحركات بين الطبيعة والنعمة

1- المسيح : يا بنيّ، لاحظ بتيقظٍ حركات الطبيعة والنعمة، فإنها، على تناقضها، دقيقة جداً، وبالجهد يمكن الإنسان تمييزها، إن لم يكن رجلاً روحانياً مستنيراً في الداخل.
لا شك أن الجميع يبتغون الخير، ويدّعون بعض الخير في أقوالهم وأفعالهم؛ ولذلك كثيرون يغترّون بظاهر الخير.

2- الطبيعة ذات دهاء : تجذب كثيرين، فتورطهم في حبائلها وتخدعهم، ولا غاية لها أبداً سوى نفسها ؛
أما النعمة فتسلك في البساطة، «متجنبة كل شبه شر[255]»: لا تنصب الأشراك، بل تصنع كل شيء محضاً لأجل الله، الذي فيه تستريح كما في غايتها.

3- الطبيعة تأبى أن تمات وأن تضغط، وأن تقهر وتذلل، وأن تخضع بطيبة نفس ؛
أما النعمة، فتعكف على إماتة الذات ومقاومة الحواس؛ تطلب الخضوع، وترغب في ان تقهر، ولا تريد أن تستعمل حريتها الخاصة؛ تحب البقاء تحت القانون، ولا تشتهي أن تتسلط على أحد، بل أن تكون وتعيش وتبقى في طاعة الله؛ لا بل هي مستعدةٌ لأن «تخضع، بتواضع، لكل خليقة بشرية[256]»، من أجل الله.

4- الطبيعة تشتغل لأجل منفعتها الخاصة، وتلاحظ الربح الذي يعود لها من الآخرين :
أما النعمة، فلا تنظر الى ما فيه نفعٌ وربحٌ لها، بل بالحري الى ما يعود بالنفع على الكثيرين.

5- الطبيعة ترتاح الى قبول الإكرام والإجلال؛ أما النعمة، فتردّ بأمانةٍ، الى الله، كل مجدٍ وكرامة.

6- الطبيعة تخشى الخزي والاحتقار ؛
أما النعمة، «فتفرح باحتمال الإهانة لأجل اسم يسوع[257]».

7- الطبيعة تحب البطالة والراحة الجسدية؛
أما النعمة، فلا تستطيع البطالة، بل تعتنق العمل بارتياح.

8- الطبيعة تطلب الحصول على ما كان طريفاً ظريفاً، وتكره الحقير الغليظ ؛
أما النعمة، فتلتذ بالبسيط الوضيع، ولا تزدري الخشن، ولا تأنف من لبس الأطمار الرثة.

9- الطبيعة تنظر الى الزمنيات : فتفرح بالأرباح الأرضية، وتحزن للخسائر، وتغضب لأقل كلمة مهينة ؛
أما النعمة، فتنظر الى الأبديات، ولا تتعلق بالزمنيات؛ لا تقلق لفقدان خيرٍ ما، ولا تستحرُّ للكلام القاسي، لأنها في السماء قد جعلت كنزها وفرحها، هناك حيث لا شيء يبيد.

10- الطبيعة جشعة، تؤثر الأخذ على العطاء، وتحب الأثرة والتفرّد بالأمور ؛
أما النعمة، فرحيمةٌ تشرك الآخرين؛ تجتنب الأثرة، وتقنع بالقليل، وترى أن «العطاء أعظم غبطة من الأخذ[258]».

11- الطبيعة تميل الى الخلائق والى الجسد، والى الأباطيل، والى التجوّل ؛
أما النعمة، فإنها تجذب الى الله، وتستحث على الفضائل، وتزهد في الخلائق، وتهرب من العالم، وتبغض شهوات الجسد، وتقلّ من الجولان، وتستحيي من الظهور بين الناس.

12- الطبيعة ترتاح الى بعض التعزيات الخارجية، مما فيه لذة للحواس ؛
أما النعمة، فتطلب التعزية في الله وحده، واللذة في الخير الأسمى، فوق جميع المنظورات.

13- الطبيعة تعمل كل شيء لأجل الربح والمصلحة الشخصية، ولا تستطيع أن تعمل شيئاً ما مجاناً، بل تأمل من إحسانها ما يعادله أو يفوقه - مديحاً كان أم خطوة – وهي تبتغي أن تقدّر فعالها وهباتها أعظم تقدير ؛
أما النعمة، فلا تطلب شيئاً زمنياً، ولا تقتضي، كمكافأةٍ لها، ثواباً آخر إلا الله وحده؛ ولا تشتهي من لوازم الحياة الزمنية، إلا بمقدار ما كان نافعاً لها، لتحصيل الخيرات الأبدية.

14- الطبيعة تفرح بكثرة الأصدقاء والأقارب، وتفتخر بسمو المنزلة وشرف الأصل؛ تبسم للمقتدرين وتتملق الأغنياء، وتصفق لأمثالها ؛
أما النعمة، فتحب حتى أعداءها، ولا تترّفع لكثرة الأصدقاء، ولا تحسب حساباً لعلو المنزلة أو شرف المولد، إلا إذا كان ثمة فضيلةٌ أعظم ؛
تؤثر الفقير على الغني، وتشفق على البريء أكثر مما على المقتدر؛ تفرح بذي الصدق لا بالكذوب، وتحث دوماً أهل الصلاح على «التنافس في المواهب الفضلى[259]»، وعلى التشبه بابن الله في الفضائل.

15- الطبيعة تتذمر سريعاً من العوز والضيق؛ أما النعمة فتصبر على الفاقة بجلد.

16- الطبيعة تعكس كل شيء الى ذاتها، ومن أجل ذاتها تقاتل وتجادل ؛
أما النعمة، فإنها تعيد كل الأشياء الى الله، مصدّرها الأصلي، ولا تنسب لنفسها شيئاً من الصلاح؛ لا تدّعي شيئاً بعجرفة، ولا تخاصم، ولا تفضّل رأيها على رأي الآخرين، بل تخضع، في جميع أحكامها وافكارها، للحكمة الأزلية، والقضاء الإلهي.

17- الطبيعة ترغب في معرفة الأسرار وسماع الأخبار؛ تريد أن تظهر في الخارج، وأن تختبر بحواسها أموراً كثيرة؛ وهي تبتغي الشهرة، وعمل ما ينتج منه المديح والإعجاب ؛

أما النعمة، فلا تكترث للاطلاع على الأخبار والأمور المستطرفة، لأن ذلك كله وليد الفساد القديم، إذ لا شيء جديدٌ أو دائمٌ على الأرض.

فهي تعلم الإنسان أن يقمع حواسه، وأن يتحاشى عن العجب الباطل وعن حب الظهور، وأن يخفي، عن تواضع، ما كان جديراً بالمديح والإعجاب، وأن يتوّخى، من كل شيءٍ وفي كل علم، ثمرة الإفادة، مع حمد الله وإكرامه.

لا تريد أن يتحدث عنها ولا عما يخصها، بل تبتغي أن يبارك الله في مواهبه، لأنه يمنح كل شيء عن محبةٍ خالصة.

18- إن هذه النعمة هي نورٌ فائق الطبيعة، وموهبةٌ خصوصية من الله؛ هي حقاً ختم المختارين، وعربون الخلاص الأبدي، ترفع الإنسان من الأرضيات الى حب السماويات، وتحوّله من جسديّ الى روحانيّ.

فبمقدار ما تذل الطبيعة وتقهر، يتزايد فيضان النعمة، ويتجدّد الإنسان الداخلي كل يومٍ على صورة الله، بفضل افتقاداتٍ جديدة.

*** ***

الفصل الخامس والخمسون
في فساد الطبيعة وفعل النعمة الالهية

1- التلميذ : أيها الرب إلهي، يا من خلقني على صورته ومثاله، إمنحني تلك النعمة التي أظهرت لي كبير عظمتها وضرورتها للخلاص، حتى أغلب بها طبيعتي الشريرة، التي تجذبني الى الخطيئة والهلاك.

«فإني أشعر أن شريعة الخطيئة في جسدي تقاوم شريعة روحي، وتستعبدني[260]»، لأطيع شهوة الحواس في أمورٍ كثيرة. وليس في استطاعتي مقاومة أهوائها، إن لم تؤيدني وتضرم قلبي بفيض نعمتك القدوسة.

2- لا بدّ من نعمةٍ – ونعمةٍ عظيمة – من قبلك، لقهر الطبيعة، «المائلة دوماً الى الشر منذ حداثتها[261]».

لأنها إذ زلت في آدم الإنسان الأول، وفدت بالخطيئة، فقد سرى عقاب هذه الوصمة الى جميع الناس؛ بحيث إن تلك الطبيعة نفسها، التي أبدعتها صالحة مستقيمة، لم تعد الآن تمثل سوى الرذيلة والوهن في الطبيعة الفاسدة؛ لأنها، إن تركت وشأنها، فهي لا تتحرّك ولا تميل إلا الى الشر والأمور الدنيئة.

فإن ما تبقى لها من قوة قليلة، إنما هو كجذوةٍ كامنةٍ في الرماد.

وتلك الجذوة هي العقل الطبيعي، المكتنف بظلامٍ كثيف : فإنه لا يزال قادراً على تمييز الخير من الشر، والفرق بين الحق والباطل، ولكنه عاجزٌ عن اتمام كل ما يستصوب، لأنه لم يعد يتمتعّ بأنوار الحقيقة كاملة، ولا برغباته سالمة.

3- فلذلك، يا إلهي، «أنا ألتذ بشريعتك بحسب الإنسان الداخلي[262]»، عالماً أن «وصيتك صالحةٌ وعادلة وقدوسة[263]»، بل معلناً وجوب الهرب من كل شرٍ وخطيئة؛ ولكني «بالجسد مستعبّدٌ لشريعة الخطيئة[264]»، إذ أطيع شهوة الحواس أكثر من العقل.

لذلك «فإن إرادة الخير حاصلةٌ لي، وأما إتمامه فلا أجده[265]».

لذلك، كثيراً ما أقصد المقاصد الصالحة، ولكنني، لأقل مقاومة، أرتد وأفشل، لعدم وجود نعمة تسند ضعفي.

ومن ثم، فإني أعرف سبيل الكمال، وأرى جلياً كيف ينبغي لي أن أعمل؛ ولكن ثقل فسادي الذاتي يرهقني، فلا أرتقي الى كمالٍ أسمى.

4- آه ! ما أشد احتياجي الى نعمتك، يا إلهي، لكي أبدأ الخير، وأمضي فيه، وأتمّه! فأنا، «بدونها، لا أستطيع أن أعمل شيئاً[266]»، «ولكنني بك أستطيع كل شيء، إن شدّدتني نعمتك[267]».

يا لها من نعمةٍ سماويةٍ حقاً، لا قيمة بدونها للاستحقاقات الذاتية، ولا وزن للمواهب الطبيعية.

فإنه لا الصنائع ولا الثروة، ولا الجمال ولا القوة، ولا الذكاء ولا الفصاحة، هي ذات قيمةٍ لديك، يا رب، بدون النعمة.

فمواهب الطبيعة مشتركة بين الصالحين والأشرار؛ أما النعمة أو المحبة، فهي عطية المختارين الخاصة : إذا تسموا بها، كانوا أهلاً للحياة الأبدية.

وهذه النعمة ساميةٌ جداً، بحيث لا موهبة النبوّة، ولا صنع الآيات، ولا سموّ التأمل، أيا كانت درجته، يمكن أن يعدّ شيئاً بدونها ؛ بل ولا الإيمان نفسه، ولا الرجاء، ولا سائر الفضائل مرضيةٌ لديك، بدون المحبة والنعمة.

5- فيا أيتها النعمة الجزيلة الغبطة، المغنية بالفضائل من كان مسكيناً بالروح، والجاعلة الغني بوفرة الخيرات، متواضعاً بالقلب، هلمي وحلي فيّ؛ إملإيني، في الغداة، من تعزيتك، لئلا تخور نفسي من الإعياء ويبوسة الروح.

أتضرّع إليك، رب، أن أجد نعمة في عينيك، «فنعمتك تكفيني[268]»، وإن لم أحصل على سائر ما تبتغيه الطبيعة.

إن جرّبت وعنيت بكثرة الضيقات، فلن أخاف شراً، ما دامت نعمتك معي.

فهي قوّتي، وهي تمنحني المشورة والمعونة.

هي أقوى من جميع الأعداء، وأحكم من جميع الحكماء.

6- هي معلمة الحق وملقنة التأديب، نور القلب وفرج الضيق، هازمة الغم ومزيلة الخوف، مغذية العبادة ومفيضة الدموع.

أي شيء أنا بدونها، سوى خشبةٍ يابسة، وجذعٍ غير نافع، لا يصلح إلا للطرح ؟
فلتسبقني إذن نعمتك يا ربّ، ولتتبعني، ولتجعلني أعكف دائماً على الأعمال الصالحة، بحق ابنك يسوع المسيح، آمين.

*** ***

الفصل السادس والخمسون
في انه يجب علينا أن ننكر ذواتنا ونقتدي بالمسيح في حمل الصليب

1- المسيح : يا بنيّ، بمقدار ما تستطيع الخروج من ذاتك، يتسنى لك أن تلج فيّ.
فكما أن السلام الداخلي ينشأ من الزهد في كل شهوةٍ خارجية، كذلك الاتحاد بالله، إنما ينشأ من التجرّد الداخلي.
أريد أن تتعلم إنكار ذاتك إنكاراً كاملاً، وأن تخضع لإرادتي من غير مقاومة ولا تشكٍ.
«اتبعني[269]»، «فأنا الطريق والحق والحياة[270]».
لا مسير بدون طريق، ولا معرفة بدون حق، ولا عيش بدون حياة.
أنا الطريق الذي يجب عليك اتباعه، والحق الذي يجب عليك الايمان به، والحياة التي يجب عليك أن ترجوها.
أنا الطريق الأمين، والحق الذي لا يغلط، والحياة التي لا تنتهي.
أنا الطريق القويم، والحق الأسمى، والحياة الحقة، الحياة السعيدة، الحياة الغير المخلوقة.
إن ثبتّ في طريقي، «فإنك تعرف الحق، والحق يحرّرك، فتدرك الحياة الأبدية[271]».

2- «إن شئت أن تدخل الحياة، فاحفظ الوصايا[272]».
إن شئت معرفة الحق، فآمن بي.
«إن شئت أن تكون كاملاً، فبع كل شيء[273]».
«إن شئت أن تكون لي تلميذاً، فأنكر ذاتك[274]».
إن شئت أن تملك الحياة السعيدة، فاحتقر الحياة الحاضرة.
إن شئت الرفعة في السماء، فاتضع على الأرض.
إن شئت أن تملك معي، فاحمل الصليب معي.
فإن عبيد الصليب، هم وحدهم، يجدون طريق السعادة والنور الحقيقيّ.

3- التلميذ : أيها الرب يسوع، بما أنك قد عشت في الضيق، مزدرى من العالم، هب لي أن يزدريني العالم، فأقتدي بك.
إذ «ليس العبد أعظم من سيده؛ ولا التلميذ فوق معلمه[275]».
ليتدرب عبدك في سيرتك لأن فيها خلاصي والقداسة الحقة.
وكل ما أطالع أو أسمع خارجاً عنها، فإنه لا ينعشني ولا يلذ لي بالتمام.

4- المسيح : يا بنيّ، بما أنك قد طالعت هذا كله وعرفته، «فالطوبى لك إن عملت به[276]».
«من كانت عنده وصاياي وحفظها، فهو الذي يحبني، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي[277]»، «وأجلسه معي[278]» في ملكوت أبي.

5- التلميذ : أيها الرب يسوع، ليكن لي كما قلت ووعدت، واجعلني أهلاً لذلك.
قد قبلت الصليب من يدك، قبلته وحملته، وسأحمله حتى الموت كما أمرتني.
حقاً إن حياة الراهب الصالح هي صليب، ولكنها صليبٌ يقود الى النعيم.
لقد بدأت، فلا يجوز أن أرتد الى الوراء، ولا يليق أن أترك ما بدأت.

6- هيّوا، إخوتي، نواصل السير معاً : فإن يسوع يكون معنا.
من أجل يسوع قد قبلنا هذا الصليب، فلنثبت من أجل يسوع على الصليب.
هو يكون ناصرنا، لأنه هو عريفنا وقائدنا.

ها إن «ملكنا يسير أمامنا ويقاتل عنا[279]».

فلنتبعه بشجاعة، ولا يخشين أحدٌ الأهوال، ولنكن مستعدين «للموت بشجاعةٍ في هذه الحرب، ولا نجلبن على مجدنا عاراً[280]»، بهربنا من الصليب.

*** ***

الفصل السابع والخمسون
في أنه يجب على الإنسان ان لا يكون كثير الفشل إذا سقط في بعض الزلات

1- المسيح : يا بنيّ، إن الصبر والتواضع في العسر، ليسرّانني أكثر من التعزية والعبادة الوافرة، في الرخاء.
لم تغتمّ لأمر يسيرٍ يتهمونك به ؟
بل هب الأمر أعظَم من ذلك، فما يحق لك أن تتأثر له.
فأغض إذن عن تلك التهمة، فما هي بجديدة، ولا هي التهمة الأولى؛ ولن تكون الأخيرة، إن عمرت طويلاً.
إنك شديد البأس، ما دمت لا تلقى مقاومة ؛
بل إنك تحسن المشورة للآخرين، وتعرف ان تقويهم بكلامك :

ولكن، متى قرعت بابك فجأة إحدى الشدائد، أعوزتك أنت المشورة والقوة.

تأمل في شدة وهنك، الذي كثيراً ما تختبره في أيسر العقبات.

على أن تلك الأمور وما شابهها، إنما تحدث لأجل خلاصك.

2- فانفِ القلق من قلبك ما استطعت، وإذا أصابتك الشدّة، فلا تفشل، ولا ترتبك طويلاً.
احتمل على الأقل بصبر، إن كنت غير قادرٍ أن تحتمل بفرح.

فإن سمعت ما يسوءك، وشعرت بالاغتياظ ، فاكبح نفسك، ولا تدع كلمة نابية تخرج من فيك، فيعثر بها الصغراء.

فإن احتدام تأثرك سيخمد سريعاً، وألمك الداخلي سيلطف بعودة النعمة.
«إني لا أزال حياً! – يقول الرب -[281]»، ومستعداً لأن أنصرك وأعزيك فوق المعتاد، إن توكلت عليّ، ودعوتني بتقوى.

3- فطب نفساً وتأهب لاحتمال شدائد أعظم. لم يضع كل شيء، إن رأيت الشدائد أكثر إلحاحاً في مضايقتك، والتجارب أعظم شدّة.
إنسانٌ أنت لا إله ! بشرٌ أنت لا ملاك !
فكيف تستطيع أن تستمر دوماً على حالٍ واحدة من الفضيلة، في حين أن الملاك لم يستطع ذلك في السماء، ولا الإنسان الأول في الفردوس.
«أنا الذي ينتاش المعمومين الى الفرج[282]»؛ والذين يعترفون بوهنهم، فإني أرفعهم الى ألوهتي.

4- التلميذ : ربّ، تباركت كلمتك، فإنها «أحلى في فمي من العسل والشهاد[283]».
فما كنت أصنع في شدائدي ومضايقي الكثيرة، لو لم تشددني بأقوالك القدوسة.
حسبي أن أبلغ أخيراً الى ميناء الخلاص، وماذا يهمني أن أعاني، دون ذلك، مشقات كثيرة وشديدة ؟
هب لي نهاية صالحة، هب لي عبوراً سعيداً من هذا العالم.
أذكرني يا إلهي، واهدني سواء السبيل الى ملكوتك، آمين.

*** ***

الفصل الثامن والخمسون
في أنه لا ينبغي لنا أن نفحص عن الأسرار السامية

ولا عن أحكام الله الغامضة

1- المسيح : يا بنيّ، إياك والجدال في المواضيع السامية، وفي أحكام الله الغامضة :
لا تسل لم الواحد مخذول هكذا، والآخر حاصلٌ على أعظم حظوة؛ لم هذا في الكرب الشديد، وذاك في رفعةٍ وتجلة.
فتلك أمورٌ تفوق كل قوى الإنسا، ولا عقل ولا جدال يستطيع أن يستقصي أحكام الله.
فإذا وسوس لك العدو بهذه المسائل، أو سألك عنها بعض الناس من ذوي الفضول، فأجبهم بقول النبي هذا : «عادلٌ أنت يا ربّ، وأحكامك مستقيمة[284]»؛

وبهذه الآية أيضاً : «أحكام الرب حقٌ[285]» وزكيةٌ في ذاتها.
إن أحكامي يجب أن ترهب لا أن تفحص، لأنها تفوق إدراك العقل البشري.

2- ولا تبحث أيضاً عن استحقاقات القديسين، ولا تجادل في أيهم أقدس أو أعظم من غيره في ملكوت السماوات.
فإن أمثال هذه المباحثات، كثيراً ما تولّد النزاع والخصومات على غير جدوى، وتغذو الكبرياء والعجب الباطل، فينشأ عن ذلك الحسد والنفار، لأن الواحد يحاول، في صلفٍ، تفضيل هذا القديس، والآخر ذاك.
فالبحث عن هذه الأمور، وابتغاء الوقوف عليها لا يأتيان بثمرةٍ البتة، بل يسوءان بالحري في أعين القديسين، لأني «لست إله نفارٍ، بل إله سلام[286]»، وإنما يقوم هذا السلام بالتواضع الحقيقيّ، لا بالترفع الذاتي.

3- ان البعض يندفعون، في غيرة محبتهم، الى تفضيل هؤلاء أو أولئك من القديسين؛ ولكن تلك عاطفةٌ بشريةٌ لا إلهية.
أنا خالق القديسين جميعاً؛ أنا أعطيتهم النعمة؛ أنا وهبت لهم المجد ؛
أنا عالمٌ بما استحق كل منهم ؛ أنا قد «بدأتهم ببركات عذوبتي» ؛
أنا سبقت فعرفت أحبائي قبل الدهور ؛ «أنا اخترتهم من العالم، وليسوا هم اختاروني أولاً» ؛
أنا دعوتهم بالنعمة، واجتذبتهم بالرحمة ؛ أنا قدتهم في مختلف التجارب ؛
أنا أفضت عليهم تعزياتٍ عجيبة، أنا أعطيتهم الثبات، أنا كللت صبرهم.

4- أنا أعرف الأول والأخير ؛ أنا أشمل الجميع بحبٍ لا يقدّر .
لي أنا يجب التسبيح في جميع قديسيّ، لي أنا، فوق كل شيء، تجب البركة والإكرام في كل واحدٍ منهم : فلقد مجدتهم وعظمتهم، وتقدمت فاخترتهم دون سابق استحقاق منهم.

فمن احتقر أحداً من أصاغر أخصائي، فإنه لا يكرم حتى العظيم منهم، لأن «الصغير والعظيم أنا صنعتهما[287]».
ومن تنقص أحد القديسين، فقد تنقصني أنا وسائر الذين في ملكوت السماوات.
إنهم جميعاً واحدٌ برباط المحبة، وليس لهم إلا رأي واحدٌ وإرادة واحدة، وكلهم يحبون بعضهم بعضاً محبة واحدة.

5- وما هو أسمى من ذلك أيضاً بكثير، أنهم يحبونني أنا أكثر مما يحبون ذواتهم واستحقاقاتهم؛ لأنهم قد خطفوا فوق انفسهم، وتجرّدوا من الحب لذواتهم، فهم بكاملهم يرمون الى حبي أنا، وفيه يستريحون متنعمين.
لا شيء يستطيع أن يحوّلهم أو يهوي بهم عن ذلك، لأن امتلاءهم من الحق الأزلي يضرمهم بنار محبةٍ لا تطفأ.
فليصمت إذن عن الجدال في أحوال القديسين، الناس الجسديون الحيوانيون، الذي لا يعرفون إلا محبة أفراحهم الخاصة، والذي ينقصون ويزيدون، بحسب ميلهم لا بحسب ما يرضي الحق الأزلي.

6- هو الجهل عند الكثيرين، ولا سيما أولئك الذين، لقلة استنارتهم، قلما يعرفون أن يحبوا أحداً محبة روحية كاملة.
فالعاطفة الطبيعية والصداقة البشرية، لا تزالان، حتى الآن، تجذبانهم الى هؤلاء أو أولئك من الناس، فيتصورون الحالة في السماء، كما هي حالهم في هذه الدنيا.
ولكن البون عظيم جداً بين ما يتوّهمه أولئك القوم الغير الكاملين، وما يراه المستنيرون بوحيٍ سماوي.

7- فاحذر إذن، يا بنيّ، أن تبحث، عن فضولٍ، في تلك المسائل التي تفوق علمك، بل في هذا اجعل بالحري همك واجتهادك : أن تجد لك موضعاً ولو آخر الكل في ملكوت الله.
وهب ان أحداً عرف أي هو أقدس أو أعظم من غيره في ملكوت السماوات، فماذا تنفعه تلك المعرفة، إن كان وقوفه على ذلك، لا يحمله على الاتضاع أمامي، ولا يستحثه على القيام بتسبيح اسمي تسبيحاً أعظم.
من يفكر في عظم خطاياه، وقلة فضائله، وشدة بعده عن كمال القديسين، فإنه يأتي عملاً أكثر قبولاً لدى الله، بكثير، ممن يجادل في عظمتهم أو صغارتهم.

إن التضرّع الى القديسين، بصلواتٍ حارةٍ ودموع، واستمداد شفاعتهم المجيدة، بروح الاتضاع، لخيرٌ من تقصّي أسرارهم ببحثٍ باطل.

8- لقد كان القديسون يسرّون، ويسرّون جداً، لو عرف الناس أن يقتنعوا، ويكبحوا أحاديثهم الباطلة.
إنهم لا يفتخرون باستحقاقاتهم الذاتية، لأنهم لا ينسبون الى أنفسهم شيئاً من الصلاح، بل الي أنا ينسبون كل شيء، لأني أنا قد أعطيتهم كل شيء، عن محبةٍ مني غير متناهية.
إنهم لمفعمون من محبة الله ومن الفرح الطافح، بحيث لا ينقصهم شيءٌ من المجد، ولا يمكن أن ينقصهم شيء من السعادة.
إن القديسين جميعاً، بمقدار ما تسمو درجة مجدهم، يزدادون اتضاعاً في أنفسهم، فيصبحون أكثر قرباً اليّ، وإعزازاً عندي.
ولذلك تجد مكتوباً :«إنهم طرحو أكاليلهم أمام الله، وخرّوا على وجوههم أمام الحمل، وسجدوا للحي الى دهر الدهور[288]».

9- كثيرون يسألون عن «من هو الأعظم في ملكوت الله[289]»، وهم يجهلون هل يكونون أهلاً لأن يحصوا بين أصاغره.
إنه لأمرٌ عظيم، أن يكون الإنسان ولو الأصغر في السماء، حيث الجميع عظماء، «لأنهم يدعون جميعاً – ويكونون – أبناء الله[290]».

«ألصغير يكون ألفاً، والخاطئ يموت وهو ابن مئة سنة[291]».

فإن التلاميذ، عندما سألوا عن «من هو الأعظم في ملكوت السماوات[292]»، قد سمعوا هذا الجواب : «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فن تدخلوا ملكوت السماوات! فمن وضع نفسه مثل هذا الولد، فذاك هو الأعظم في ملكوت السماوات[293]».

10- الويل لمن يأنفون أن يخفضوا أنفسهم طوعاً مع الصغار! فإن باب الملكوت السماوي منخفضٌ لا يمكنهم من الدخول !
«الويل أيضاً للأغنياء الحاصلين هنا على تعزياتهم![294]» لأنهم، عندما يدخل المساكين ملكوت الله، يقفون هم خارجاً يولولون.
إفرحوا، أيها المتواضعون! وتهللوا ، أيها المساكين! «فإن لكم ملكوت السماوات[295]» - أللهم أن سلكتم في الحق.

*** ***

الفصل التاسع والخمسون
في ان كل أمل وثقة إنما يجب ان يوطدا في الله وحده

1- التلميذ : ربّ، ما هو متكلي في هذه الحياة ؟ وما هي أعظم تعزيةٍ لي من كل ما يبدو تحت السماء.
أليس إياك أنت أيها الرب إلهي، الذي لا إحصاء لمراحمه ؟
أين كانت أحوالي حسنة بدونك ؟ أم متى ساءت بحضورك ؟
إني أوثر أن أكون فقيراً لأجلك، على أن أكون غنياً بدونك ؛
وأفضل التغرّب على الأرض معك، على امتلاك السماء بدونك.
حيث انت، فهناك السماء؛ وحيث لست أنت فهناك الموت والجحيم.
أنت موضوع بغيتي، فلا بدّ لي من السعي وراءك بالتنهد والصراخ والتضرّع.
أخيراً، ما من أحدٍ يمكنني أن أتكل عليه كل الاتكال، ليساعدني في حاجاتي، وفي الوقت المناسب، إلاك أنت وحدك يا إلهي.
«أنت رجائي[296]»، أنت متكلي، أنت عزائي، أنت الأمين جداً في كل شيء.

2- «الجميع يلتمسون ما هو لأنفسهم[297]»؛ أما أنت فلا تقصد سوى خلاصي وتقدّمي، محولاً لي كل شيء الى خير.
إنك، وإن جعلتني عرضة لمختلف المحن والشدائد، فإنما توّجه كل ذلك الى نفعي، لأنك على ألف وجهٍ قد اعتدت أن تمتحن أحباءك.
وأنت، في امتحانك هذا، لست بأقل استحقاقاً للمحبة والتسبيح، مما لو كنت ملأتني من التعزيات السماوية.

3- ففيك إذن، أيها الرب الإله، أجعل كل رجائي وملجإي؛ وعليك ألقي كل شدائدي ومضايقي، لأن كل ما أراه، خارجاً عنك، إنما أجده واهياً غير ثابت.
فكثرة الأصدقاء لن تنفعني، وليس بوسع المناصرين الأشداء أن يعينوني، ولا المشيرين الفطناء أن يعطوني جواباً مفيداً، ولا كتب العلماء أن تعزّيني، ولا شيء نفيسٍ أن ينجيني، ولا مكانٍ خفيٍ نزهٍ أن يقيني، إن لم تعضدني أنت نفسك وتنصرني، وتقوّني وتعزّني، وترشدني وتحفظني.

-4 فإن كل ما يبدو صالحاً لإنالة السلام والسعادة، ليس بشيء من دونك، ولا يولي، في الحقيقة، شيئاً من السعادة.
فأنت إذن غاية جميع الخيرات، أنت ذروة الحياة وعمق الكلام؛ وأعظم تعزيةٍ لعبيدك، إنما هي الاتكال عليك، فوق كل شيء.
«إليك عيناي ! إلهي عليك توكلت[298]»، «يا أبا المراحم[299]».
بارك نفسي وقدّسها بالبركة السماوية، لتصبح مسكناً لك مقدّساً، وسدّةً لمجدك الأزلي؛ ولا يوجد في هيك عظمتك ما يسوء في عيني جلالك.
إلتفت إليّ بحسب وفرة صلاحك وكثرة مراحمك، واستجب صلاة عبدك البائس، المنفي بعيداً في بقعة ظلال الموت!
إحفظ وصن نفس عبدك المسكين، في ما بين كثرة الأخطار التي تعتور هذه الحياة الفانية؛ لتصحبه نعمتك وتهده في طريق السلام، الى وطن النور الدائم، آمين.

*** ***

السفر الرابع
في سر القربان الأقدس

«عظيمةٌ هي مُهمةُ الكهنة، وعظيمةٌ رتبتُهُم ! فقد أُعطى لهم ما لم يُعط للملائكة.»

(4 اقتداء 5: 1)

*** ***

تحريض تقوي على التناول المقدس
صوت المسيح

«تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين، وأنا أريحكم[300]»، يقول الرب.
«الخبز الذي سأعطيه أنا، هو جسدي، لأجل حياة العالم[301]».
«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي، الذي يبذل لأجلكم؛ إصنعوا هذا لذكري[302]».
«من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت فيّ وأنا فيه[303]»
«الكلام الذي كلمتكم به، هو روحٌ وحياة[304]».

*** ***

الفصل الأول
بأي احترام يجب أن نتناول المسيح

صوت التلميذ

-1 ذلك هو كلامك أيها المسيح، الحق الأزلي، وإن لم يقل في وقتٍ واحد، ولا كتب في موضع واحد.
فمن حيث هو كلامك، ومن حيث هو حق، فعليّ أن أقبله كله بإيمانٍ شاكراً.
إنه لك، لأنك أنت قد نطقت به؛ وهو لي أنا أيضاً، لأنك من اجل خلاصي قد فهت به.
إني أرتاح الى قبوله من فمك، لكي يكون أعمق انطباعاً في قلبي.
إنها لتستحثني هذه الكلمات الجزيلة الرّقة، المملوءة عذوبة ومحبة، لكن آثامي ترعبني، ودنس ضميري يصدّني عن تناول هذه الأسرار العظيمة.
تستدعيني عذوبة أقوالك، لكن كثرة رذائلي تثقلني.

-2 تأمرني أن أدنو اليك بثقة، إن أردت أن «يكون لي نصيبٌ معك[305]»؛ وأن أتناول قوت الخلود، إن رغبت في نيل الحياة والمجد الأبدي!

تقول : «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين، وأنا أريحكم[306]»!
يا لها من كلمةٍ عذبة، مستحبةٍ في أذن الخاطئ! إذ إنك أنت، أيها الرب إلهي، تدعوني، أنا البائس المسكين، الى تناول جسدك الأقدس!
فمن أنا، يا ربّ، حتى أجرؤ على الدنو منك ؟
«ها إن سموات السماوات لا تسعك[307]»، وأنت تقول : «تعالوا اليّ جميعكم»!

3- فما هذا التنازل والعطف الجزيل ؟ وما هذه الدعوى المفعمة حباً ؟
كيف أجسر على المجيء اليك، وأنا لا أشعر في نفسي بشيء من الصلاح، يسوّغ لي مثل هذه الجرأة ؟
كيف أدخلك بيتي، وقد طالما أسخطت وجهك العطوف ؟
إن الملائكة ورؤساء الملائكة يهابونك، والقديسين والصديقين يخافون منك، وأنت تقول: «تعالوا اليّ جميعكم[308]»!
لو لم تكن أنت نفسك، يا رب، قد قلت هذا الكلام، فمن كان يصدّقه ؟
ولو لم تكن أنت نفسك الآمر بالدنو اليك، فمن كان يحاول ذلك ؟

4- هوذا نوحٌ الرجل الصديق، قد اشتغل مئة سنةٍ في صنع التابوت، ليخلص به مع نفرٍ قليلين؛ وأنا كيف أستطيع أن أستعد في ساعةٍ واحدة، لأن أقبل باحترام صانع العالم ؟
إن موسى عبدكَ العظيم، وخليلك الخاص، قد صنع التابوت من حشبٍ لا يفسد، وغشاه بأخلص الذهب، ليجعل فيه لوحي الشريعة ؛ وأنا الخليقة الفاسدة، أجسر على تناولك بمثل هذه السهولة، أنت واضع الشريعة ومعطي الحياة !
إن سليمان، أحكم ملوك إسرائيل، قد قضى سبع سنين، في تشييد هيكل فخمٍ لتسبيح اسمك؛ واحتفل ثمانية أيامٍ بعيد تدشينه، وقرّب ألف ذبيحة سلامة؛ وبين التهليل وهتاف البوق، وصنع تابوت العهد، باحتفال، في الموضع المهيأ له ؛
وأنا الشقيّ، أفقر جميع الناس، كيف ادخلك بيتي، وأنا لا اكاد أقضي في العبادة نصف ساعة – وحبذا لو استطعت أن أقضي، ولو مرةً واحدة، زهاء نصف ساعة، في عبادةٍ لائقة!

5- إلهي، ما اعظم ما كان اجتهاد أولئك في عمل ما يرضيك !
أما أنا، فواأسفاه! ما أقل ما أعمل، وما أقصر الوقت الذي أقضيه في إعداد نفسي للتناول !
إني في النادر أكون جامعاً حواسي وخواطري؛ وفي النادر جداً أكون خالياً من كل تشتت.
والحال أنه، في حضرتك، يا إلهي ومخلصي، قد كان من الواجب أن لا يخطر على بالي فكرٌ غير لائق، بل ولا أن تشغلني خليقة البتة، لأني مزمعٌ أن أضيف لا ملاكاً، بل رب الملائكة.

6- فضلاً عن ذلك، فالفرق عظيمٌ جداً، بين تابوت العهد مع ذخائره، وجسدك الأطهر مع مفاعيله المعجزة البيان؛ بين تلك الذبائح الناموسية، التي كانت رمز المستقبلات، وذبيحة جسدك الحقيقية، المتممة جميع الذبائح القديمة.

7- لم إذن لا أزداد اضطراماً في حضرتك المهيبة ؟
لم لا أستعد، باهتمام أوفر، لتناول اقداسك، فيما أولئك القديسون الأقدمون، من آباء وأنبياء، وملوك وأمراء، مع الشعب كله، قد أظهروا مثل هذه الغيرة والتقوّى في عبادة الله؟

8- إن داود، الملك الجزيل الورع، قد رقص بكل قواه أمام تابوت الله، ذاكراً ما سلف من إحساناتك الى آبائه؛ وقد صنع آلات عزفٍ من أنواع مختلفة، وصنّف المزامير ورسم أن يرنم بها بفرح؛ وكثيراً ما رنم بها، هو نفسه، على القيثار، بإلهامٍ من نعمة الروح القدس، وقد علم شعب إسرائيل، أن يسّبحوا الله بكل قلوبهم، ويباركوه ويشيدوا له، كل يوم، باتفاق الأصوات.
فإن كان تابوت العهد قد أذكى حينئذٍ، بمنظره، مثل هذه التقوى، وذكر بمثل هذه الإشادة لله، فأي احترام وتقوى، يجب عليّ وعلى جميع الشعب المسيحي، أن نبدي الآن في حضرة هذا السر الأقدس، عند تناولنا جسد المسيح الجزيل الكرامة ؟

9- كثيرون يخفون الى أماكن مختلفة، لزيارة ذخائر القديسين؛ فيدهشون لسماع أخبارهم، ومشاهدة ما شيّد لإكرامهم من هياكل فسيحة؛ ويقبّلون عظامهم المقدّسة، الملفوفة بالحرير والذهب ؛
وها أنت يا إلهي حاضرٌ هنا بقربي، على الهيكل، أنت قدوس القديسين، وخالق البشر، ورب الملائكة !
وما يحمل الناس على تلك الزيارات، إنما هو، في الغالب، فضولٌ بشري، ورغبة التفرّج على أشياء جديدة لم يروها؛ ولذلك قلما يجنون منها ثمراً لإصلاح أنفسهم، ولا سيما إذا قاموا بتلك التجوّلات عن خفة، ومن غير ندامةٍ حقيقية ؛
أما هنا، في سرّ الهيكل، فإنك حاضرٌ كاملاً، أيها الإله «والإنسان يسوع المسيح[309]»؛ وكلما قبلناك فيه بأهلية وعبادة، جنينا بوفرةٍ ثمار الخلاص الأبدي ؛

ولكنّ ما يجذبنا اليه، ليس الخفة، ولا الفضول، ولا ميل الحواس، بل الإيمان الوطيد، والرجاء الحق، والمحبة الخالصة.

10- أيها الإله خالق العالم غير المنظور، ما أعجب معاملتك لنا! ما أعذب وما ألطف تصرّفك مع مختاريك! فإنك تقدّم لهم ذاتك، ليتناولوك في سر محبتك!
إن ذلك لما يفوق كل إدراك؛ وإنه، هو خصوصاً، ما يجذب قلوب العباد ويضرم محبتهم.
فإن مؤمنيك الحقيقيين، الذين يوجهون حياتهم كلها الى إصلاح ذواتهم، كثيراً ما ينالون بوفرةٍ، من هذا السر الأسمى، نعمة العبادة وحب الفضيلة.

11- يا لنعمة هذا السر، العجيبة الخفية، التي لا يعرفها سوى المؤمنين بالمسيح ! أما غير المؤمنين والمستعبدون للخطيئة، فلا يستطيعون أن يختبروها.
في هذا السر تمنح النعمة الروحية، فتسترجع النفس ما فقدته من الفضيلة، وتستردّ جمالها الذي شوّهته الخطيئة.
ولقد تعظم أحياناً هذه النعمة، فتفيض في الإنسان، من العبادة، ما يجعله يشعر بتزايد قواه، لا في الروح فحسب، بل في الجسد الضعيف أيضاً.

12- أما نحن، فعلينا أن نبكي ونرثي جداً لفتورنا وتهاوننا، لأننا لا نقبل، بشوقٍ أعظم، على تناول المسيح، الذي فيه كل رجاء المعدّين للخلاص وكل استحقاقهم.
فإنه هو «قداستنا وفداؤنا[310]»؛ هو تعزية المسافرين على الأرض، ونعيم القديسين الأبدي.
فمن دواعي الأسف الشديد، أن الكثيرين قلما يأبهون لهذا السر الخلاصي، الذي يفرّح السماء ويحفظ العالم بأسره.
يا لعمى القلب البشري وصلابته ! فالناس لا لا يعيرون انتباهاً أعظم لهذه العطية المعجزة البيان، بل إنهم، باستعمالهم لها كل يوم، يستدرجهم الأمر الى عدم المبالاة !

13- فلو كان هذا السرّ الأقدس، لا يحتفل بإقامته إلا في مكانٍ واحد، ولا يقدّسه إلا كاهنٌ واحدٌ في العالم، فبأي شوقٍ يا ترى، كان الناس يهرعون الى ذلك المكان، والى كاهن الله ذاك، لكي يشهدوا إقامةَ الأسرار الإلهية.
أما الآن، فالكهنة كثيرون، والمسيح يقرّب في أماكن كثيرة، لكي تزداد تجلياً نعمة الله ومحبته للبشر، بقدر ما يزداد التناول انتشاراً في العالم.
فشكراً لك يا يسوع الصالح، الراعي الأزلي، الذي ارتضى أن يغذينا بجسده ودمه الكريمين، نحن البائسين المنفيين، وأن يدعونا، هو نفسه، بكلام فيه، الى تناول هذه الأسرار، قائلاً : «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين، وأنا أريحكم![311]».

*** ***

الفصل الثاني
في ان الله يظهر، في سر القربان الأقدس، عظيم جودته ومحبته للبشر

صوت التلميذ

1- رب، إني اتكالاً على جودتك ورحمتك العظيمة، أقبل اليك إقبال المريض الى مخلصه، والجائع والعطشان، الى ينبوع الحياة ؛ والبائس، الى ملك السماء؛ والعبد، الى سيّده؛ والخليقة، الى خالقها؛ والمستوحش، الى معزيه الحنون !
ولكن «من أين لي هذا: أن تأتي أنت إليّ؟[312]»، من أنا حتى تهب لي ذاتك ؟
كيف يجسر الخاطئ على الظهور أمامك ؟ وأنت كيف ترتضي أن تأتي الى الخاطئ ؟
أنت تعرف عبدك، وتعلم أن ليس فيه شيءٌ من الصلاح، يستحق له هذه الموهبة.
فأنا أقرّ بحقارتي، وأعترف بجودتك، وأشيد بحنوك، وأشكرك لأجل فرط محبتك.
فإنك لأجل ذاتك، لا لأجل استحقاقاتي، تصنع ذلك، حتى تتضح لي جودتك على وجهٍ أجلى، وتزداد فيّ محبتك، ويصبح التواضع أعظم قيمة عندي ؟
فإذ قد ارتضيت ذلك، وأنت أمرت أن يكون هكذا، فأنا أيضاً أرتضي بتلك النعمة، وعسى أن لا تحول آثامي دونها !

2- يا يسوع الجزيل العذوبة والحنو، أي احترام وشكر، بل أي حمدٍ دائم، يحق لك عليّ، لتناولي جسدك الأقدس، الذي لا يستطيع بشرٌ أن

يوضح سمو منزلته !
ولكن فيم يجب أن أفكرعند هذا التناول، حينما أدنو من سيدي، الذي لا أستطيع أن أكرّمه كما ينبغي، وأرغب، مع ذلك، أن أتناوله بورع ؟
هل من أفكارٍ أفضل وأنفعُ لخلاصي، من أن أتضع أمامك اتضاعاً كاملاً، وأشيد بجودتك غير المتناهية نحوي ؟
أسبحك، يا إلهي، وأرفعك الى الأبد؛ إني أحتقر ذاتي، وأخضع لك في عمق حقارتي.

3- أنت قدوس القديسين، وأنا رجس الخطأة؛ أنت تنعطف اليّ، وأنا غير أهلٍ أن أنظر اليك!
أنت تأتي اليّ، أنت تريد أن تكون معي، أنت تدعوني الى وليمتك ! أنت تريد أن تعطيني الطعام السماوي، خبز الملائكة لآكله، وما هو، في الحقيقة، إلاك أنت أيها «الخبز الحي النازل من السماء، والواهب الحياة للعالم[313]»!

4- من هنا ينبعث الحب، من هنا يسطع الجود! فكم يجب لك علينا من الشكر والتسبيح، لأجل هذه الإحسانات !
ما أنفع وما أفيد ما كان رأيك للخلاص، حين وضعت هذا السر! ويا لها وليمةً عذبةً شهية، أعطيتنا فيها ذاتك طعاماً !
ما أعجب صنعك يا ربّ ! ما أعظم قدرتك وما أسمى حقك عن البيان !
لأنك قلت فكان كل شيء؛ وما أمرت به قد كان.

5- إنه لشيءٌ عجيبٌ يغلب إدراك البشر، ويجب الإيمان به إيماناً، أنك أنت أيها الرب إلهي، الإله الحق والإنسان الحق، تحوى كاملاً تحت شكل قليل من الخبز والخمر، دون أن تفنى إذا أكلك متناولوك !
«فيا ربّ الجميع، الغني عن كل شيء[314]»، لقد شئت أن تحل فينا بسرك هذا. فاحفظ نفسي وجسدي بغير دنس، لأستطيع، بضميرٍ فرحٍ نقيّ، ولأجل خلاصي الأبديّ، أن أقدم وأتناول، بتواترٍ أكثر، أسرارك التي رسمتها ووضعتها خصوصاً لأجل مجدك ودوام ذكرك.

6- إفرحي، يا نفسي، واشكري الله على هذه المنحة السنية، والتعزية الفريدة، التي قد تركها لك في وادي الدموع هذا.
فإنك كلما تجددين هذا السر، وتتناولين جسد المسيح، تتمّمين عمل فدائك، وتصبحين شريكة في استحقاقات المسيح جميعها.
لأن محبة المسيح لا تنقص، ووفرة كفارته لا تنضب.
فعليك من ثم، أن تستعدي دوماً لهذا العمل بتجديدٍ متواصلٍ في الروح، وتتأملي، بانتباهٍ جزيل، في سر خلاصك العظيم.
فإذا أقمت أو سمعت القداس، فينبغي أن يبدو لك هذا العمل عظيماً وجديداً ومستحباً جداً؛ كما لو كان المسيح ينزل في ذلك اليوم عينه، لأول مرة، في مستودع البتول، ليصير إنساناً، او كما لو كان يتألم ويموت معلقاً على الصليب لأجل خلاصِ البشر.

*** ***

الفصل الثالث
في فائدة الاكثار من التناول

صوت التلميذ

1- ها أنا ذا آتي إليك، يا رب، لكي أستفيد من عطيتك، وأفرح بوليمتك المقدّسة، «التي هيأتها للبائس، بلطفك، يا أله[315]».
ها إنّ فيك جميع ما يمكنني وما يجب عليّ أن أبتغي : أنت خلاصي وفدائي، ورجائي وقوّتي، وبهائي ومدي.
«فرّح إذن اليوم نفس عبدك، فإني اليك رفعت نفسي[316]»، أيها الرب يسوع.
إني أبتغي الآن أن أتناولك بعبادةٍ واحترام، وأتوق أن أدخلك بيتي، فأستحق أن تباركني مع زكا، وأن أحصى بين أبناء إبراهيم.
إن نفسي تشتاق الى جسدك، وقلبي يتوق الى الاتحاد بك.

2- هب لي ذاتك وحسبي، إذ لا تعزية تنفع خارجاً عنك.
إني لا أستطيع أن أكون بدونك، ولا يمكنني أن أحيا بغير افتقادك.
ولذلك ينبغي لي أن أكثر التقرّب اليك، وأن أتناولك دواءً لخلاصي، لئلا أخور في الطريق، إن حرمت هذا القوت السماوي.
فإنك هكذا قلت يوماً، يا يسوع الجزيل الرحمة، عندما كنت تكرز للجماهير، شافياً أسقامهم المختلفة : «لا أريد أن أصرفهم الى منازلهم صائمين، لئلا يخوروا في الطريق[317]».
فعاملني على هذا النحو، يا من، لأجل تعزية المؤمنين، قد ترك لهم ذاته في هذا السر.
فإنك أنت غذاء النفس اللذيذ؛ ومن أكلك عن استحقاق، يكون شريكاً في المجد الأبدي، ووارثاً له.

إني كثيراً ما أزل وأخطأ، وسرعان ما أتراخى وأفشل؛ ولذلك فلا بدّ لي من أن أجدد نفسي، وأنقيّها، وأضرمها، بواسطة الصلوات والاعترافات المتواترة، وتناول جسدك الأقدس، لئلا أتحوّل عن عزمي المقدّس، بامتناعي طويلاً عن ذلك.

3- «فإن حواس الإنسان مائلةٌ الى الشرّ منذ حداثته[318]»، وإن لم يسعفه هذا العلاج الإلهي، سقط عاجلاً الى أسوإ حال.

فالتناول المقدّس إذن يردع عن الشر، ويثبت في الخير.
فإن كنت الآن، وأنا أتناول أو أقدّس، كثيراً ما أجد نفسي متهاوناً فاتراً الى هذا الحد، فكيف بي لو لم آخذ هذا الدواء، وألتمس هذه النصرة العظيمة ؟
فلذلك، إني – وإن لم أكن كل يومٍ على ما يجب من الأهلية وحسن الاستعداد لإقامة القداس – سأجتهدُ، مع ذلك، أن أتناول الأسرار الإلهية في الأوقات المناسبة، فأشترك فيٍ هذه النعمة العظيمة.

فإن هذه هي التعزية الخاصة بل الوحيدة للنفس المؤمنة، «ما دامت متغرّبة عنك في الجسد المائت[319]»، أن تكثر من تذكر إلهها، وأن تتناول حبيبها بقلب عابد.

4- ما أعجب تنازلك لنا، وحنوّك علينا ! فإنك أنت أيها الرب الإله، خالق ومحيي جميع الأرواح، تتنازل وتأتي الى نفس بائسة حقيرة، وتشبع جوعها بلاهوتك وناسوتك الكاملين !

يا لسعادة الروح، يا لغبطة النفس، التي تؤهل أن تقبلك بعبادةٍ، أنت ربّها وإلهها، وأن تمتلئ، بقبولك، من الفرح الروحيّ !

آه ! ما أعظم السيد الذي تقبله ! وما أحبَّ الضيف الذي تدخله بيتها ! ما آنسه رفيقاً، وما آمنه صديقاً! ما أبهى وما أمجد العروس الذي تعانقه ! إنه لجديرٌ بالحب أكثر من كل الأحبّاء، وفوق كل أمرٍ مشتهى !

فلتصمت السماء والأرض وكل زينتهما أمام وجهك، يا حبيبي الجزيل العذوبة ! لأن كل ما فيها من مجدٍ وبهاء، إنما هو من فضل جودك، ولا يبلغ الى بهاء اسمك، أنت الذي «لا احصاء لحكمته[320]».

*** ***

الفصل الرابع
في ان المتناولين بعبادة يمنحون خيرات كثيرة

صوت التلميذ

1- أيها الرب إلهي، «ابتدر عبدك ببركات عذوبتك[321]»، لكي أستحق أن أدنو من سرّك الجليل بأهلية وعبادة.
نبّه اليك قلبي، وانتشلني من عمق سباتي؛ «إفتقدني بخلاصك[322]»، فأتذوق بالروح عذوبتك، المستترة بكل غزارتها في هذا السر كما في ينبوعها.
أنر أيضاً عينيّ، لأتأمل في هذا السر العظيم، وقوّني لأومن به إيماناً لا يشوبه ارتياب.
فإنه صنعك لا صنع قوةٍ بشرية؛ وهو رسمك المقدّس، لا اختراع إنسان ؛
إذ لا أحد يستطيع، بنفسه، أن يدرك ويفهم هذه الأسرار، التي تفوق حدّة أذهان الملائكة أنفسهم.
فأنا الخاطئ غير المستحق، أنا التراب والرماد، ماذا يمكنني أن أستقصي وأدرك، من هذا السرّ المقدّس الجزيل السمو ؟

2- رب، إني بسلامة قلبي، وبإيمان ثابتٍ صادق، وامتثالاً لأمرك، أدنو منك بثقةٍ واحترام، وأومن حقاً أنك حاضرٌ هنا في هذا السر، إلها وإنساناً.
أنت تريد إذن أن أتناولك، وأن أتحد بك في المحبة.
فأنا أبتهل الى حلمك، واسألك أن تمنحني نعمة خاصة، تجعلني أذوب وأفيض كلي في حبك، فلا أعود ألتمس من بعد تعزيةً ما، خارجاً عنك.
فهذا السرّ السامي والجليل جداً، إنما هو خلاص النفس والجسد، وعلاج كل سقم روحي: به تعالج رذائلي، وتلجم أهوائي، وتقهر أو

تضعف تجاربي؛ به تفاض نعمةَ أغرز، وتنمو الفضيلة الناشئة، ويثبت الايمان، ويوّطد الرَجاء، وتضطرم وتتسع المحبة.
فلقد طالما جدت بالخيرات – ولا تزال تجود بها – بكثرةٍ في هذا السرّ، على أحبائك الذين يتناولونك بعبادةٍ يا إلهي، «عاضد نفسي[323]»، ومشدّد الضعف البشري، ومانح كل تعزيةٍ داخلية.
فإنك تفيض فيهم غزارة تعزيتك ليقاوموا المضايق المتنوعة، ومن عمق يأسهم تنهضهم الى الثقة بحمايتك وتنعشهم وتنير قلوبهم، بنعمةٍ جديدة، حتى إن الذين كانوا، قبل التناول، يشعرون في أنفسهم بالقلق والفتور، يجدون ذواتهم قد انقلبوا الى حالٍ أفضل، بعد اغتذائهم بهذا الطعام والشراب السماويين.
وإنك لتعامل مختاريك بهذا السخاء، حتى يعرفوا حقاً ويختبروا بجلاءٍ مقدار ضعفهم الذاتي، ومقدار ما ينالون منك من الإحسان والنعم ؛
فإنهم، من أنفسهم، باردون، قساةٌ، ليست فيهم التقوى؛ أما بك فيستأهلون أن يكونوا حارين، نشيطين، أتقياء.
فمن يقترب بتواضعٍ من ينبوع العذوبة، ولا يستقي قليلاً من عذوبته ؟
أو من يقف بقرب نَارٍ عظيمة، ولا يقتبس قليلاً من حرارتها ؟
فأنت هو ذاك الينبوعُ الغزير الفائض بلا انقطاع، وتلك النار المضطرمة على الدوام، التي لا تخبو أبداً.

4- وعليه، فإن لم يكن من الجائز لي أن أستقي من ملء هذا الينبوع، ولا أن أشرب منه حتى الارتواء، فأنا، مع ذلك، أضع فمي على فم القناة السماوية، لأنال ولو نقطة يسيرةً جداً، تنقع ظمإي، فلا أيبس بالتمام.
وإن لم أستطع بعد أن أكون بجملتي سماوياً، مضطرماً مثل الكروبين والسرافين، فإني سأجتهد، مع ذلك، في العكوف على العبادة، وفي إعداد قلبي، للحصول ولو على قبسٍ ضئيل في هذه النار الإلهية، بتناولي السرّ المحيي، بتواضع.
وأنت يا يسوع الصالح، والمخلصُ الجزيل القداسة، تلاف بحلمك ونعمتك كل ما ينقصني، أنت الذي تنازل أن يدعو اليه الجميع قائلاً :«تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين، وأنا أريحكم![324]»

5- فإني أكدّ بعرق وجهي، وأتلوى لآلام قلبي؛ تثقلني الخطايا، وتزعجني التجارب؛ أنا مرتبكٌ ومبهوظٌ بكثرة الأهواء الشريرة، ولس من معين، ليس من ينقذ أو يخلص، سواك أنت أيها الرب الإله مخلصي. فإياك أستودع نفسي وكل ما لي، لكي تحفظني وتقودني الى الحياة الأبدية.
فاقبلي حمداً وتمجيداً لاسمك، أنت الذي هيأ لي جسده ودمه مأكلاً ومشرباً.
فهب لي، أيها الرب إله خلاصي، أن تنمو فيّ عاطفة العبادة، بمواظبتي على تناول سرّك هذا.

*** ***

الفصل الخامس
في سمو هذا السر وفي درجة الكهنوت

صوت الحبيب

1- انك، ولو كانت طهارة الملائكة، وبرّ القديس يوحنا المعمدان، لما كنت أهلاً لقبول هذا السر ولا للمسه ؛
لأن استحقاقات البشر، لا يمكن أن تخوّل الإنسان حقاً بأن يقدّس سر المسيح ويلمسه، ويغتذي بخبز الملائكة.
عظيمةٌ هي مهمةُ الكهنة، وعظيمة رتبتهم! فلقد أعطي لهم ما لم يعط للملائكة :
فإن السلطان على إقامة الذبيحة، وعلى تقديس جسد المسيح، إنما هو لأولئك الكهنة فقط، الذين حصلوا على السيامة الشرعية في الكنيسة.
فالكاهن هو خادم الله، يستعمل كلام الله، بأمر الله وترتيبه؛ ولكن الفاعل الأهم هنا، والعامل غير المنظور، إنما هو الله، الذي كل شيء يخضع لإرادته، وكل شيء يطيع أمره.

2- فعليك، في هذا السر السامي جداً، أن تصدّق الله القدير، أكثر من حكمك الذاتي، أو أي دلالةٍ ظاهرة.
وعليك، إذن، أن لا تدنو منه إلا بتهيبٍ واحترام.
«لاحظ نفسك[325]»، وانظر من هو صاحب الخدمة التي وكلت اليك بوضع يد الأسقف.
ها قد أصبحت كاهناً مقدّساً لإقامة الذبيحة :
فاحرص الآن على أن تقرّب لله، بإيمانٍ وتقوى، هذه الذبيحة في أوانها، وأن تحفظ نفسك بغير لوم.
إنك لم تخفف حملك، بل أصبحت مقيّداً بوثاقٍ من النظام أشد إحكاماً، وأصبح واجباً عليك البلوغ الى قداسةٍ أعظم.

على الكاهن أن يكون متحلياً بجميع الفضائل، فيعطي الآخرين مثال السيرة الصالحة ؛
فليس نهجه نهج الرعاع والعامة، بل هو نهج الملائكة في السماء، أو أهل الكمال على الأرض.

3- إن الكاهن المتشح بالأثواب المقدّسة، ينوب مناب المسيح، ليتوسل الى الله، بإلحاح وتواضع، عن نفسه وعن جميع الشعب.
إنه يحمل، من الأمام ومن الوراء، رسم صليب الربّ، ليتذكر آلام المسيح بلا انقطاع.
يحمل الصليب على صدر حلته، ليتأمل جيداً آثار المسيح، ويسعى بنشاطٍ في اتباعها.
وهو موسومٌ بالصليب على ظهره، ليحتمل بوداعةٍ، ومن أجل الله، جميع المعاكسات التي تلحق به من قبل الآخرين.
إنه يحمل الصليب أمامه، ليندب خطاياه الخاصة، ويحمله من ورائه، ليبكي بالشفقة خطايا الآخرين أيضاً، وليعلم أنه قد أقيم وسيطاً بين الله والخاطئ، فلا يفتر عن الصلاة وتقديم الذبيحة المقدّسة، حتى يستحق الحصول على النعمة والرحمة.
عندما يقدّس الكاهن، يكرّم الله، ويفرّح الملائكة، ويبني الكنيسة، ويساعد الأحياء، ويوّفر للأموات الراحة، ويجعل نفسه شريكاً في جميع الخيرات.

*** ***

الفصل السادس
ابتهال لمعرفة ما يجب فعله قبل التناول

صوت التلميذ

1- عندما أفكر، يا ربّ، في عظمتك وحقارتي، أرتعد جداً، وأقع في الحيرة.
فإن لم أدن منك، تباعدت عن الحياة؛ وإن بادرت اليك عن غير أهلية، عرّضت نفسي لسخطك.
فماذا أصنع يا إلهي وناصري، ومرشدي في الضيقات ؟

2- علمني أنت سواء السبيل، دلني على إحدى الرياضات الوجيزة، مما يليق بالتناول المقدّس.
فإنه من المفيد لي أن أعرف بأي عبادةٍ واحترام، يجب عليّ أن أعدّ لك قلبي، لأتناول سرّك هذا تناولاً يأول الى خلاصي، أو لأقيم هذه الذبيحة العظيمة الإلهية.

*** ***

الفصل السابع
في فحص الضمير وفي العزم على إصلاح السيرة

صوت الحبيب

1- ينبغي لكاهن الله، فوق كل شيء، أن يتقدّم لتقديس هذا السر ولمسه وتناوله، بتواضع قلب عميق، واحترام وتذلل، وايمانٍ كامل، ونيةٍ خالصة في إكرام الله.
إفحص ضميرك فحصاً مدققاً، وطهره ونقه ما استطعت بالندامة الحقيقية والاعتراف الذليل، حتى لا تعود تشعر بشيء يثقلك أو يبكتك، أو يعوقك عن التقرّب بحرية.
تأسف على جميع خطاياك عموماً، وابكِ وتنهد، على الخصوص، لسقطاتك اليومية.
وإن سمح لك الوقت، فاعترف لله، في خلوة قلبك، بكل ما اوصلتك إليه أهواؤك من الشقاء.

2- تنهّد وابكِ، لكونك لا تزال، حتى الآن، جسدياً بهذا المقدار، مولعاً بالعالم ؛
غير مائتٍ عن أهوائك، بل مفعماً من حركات الشهوات ؛
غير ضابطٍ حواسك الخارجية، بل مرتبكاً غالباً بكثرة التخيلات الباطلة ؛
مائلاً بإفراطٍ الى الأمور الخارجية، متوانياً جداً عن الداخلية ؛
تخف الى الضحك والعبث، وتقسو عن البكاء وانسحاق القلب ؛
تسرع الى الرفاهة وتنعمات الجسد، وتتباطأ عن التقشف والعبادة ؛
تواقاً الى استماع الأخبار والنظرِ الى الجمالات، نافراً من تعاطي الأمور الوضيعة الحقيرة ؛

جشعاً في امتلاك الكثير، شحيحاً في العطاء، مبالغاً في الحرص ؛
غير متبصّر في الكلام، ولا طاقة لك على الصمت ؛
غير منضبط في آدابك، ولجوجاً في أعمالك ؛
منصباً بنهم على الطعام، ومتصاماً جداً عن كلام الله ؛
مسرعاً الى الراحة، ومتوانياً عن العمل ؛
متيقظاً للخرافات، ومتناعساً في الأسهار المقدّسة، تتعجل نهايتها، وتسهوعن الانتباه اليها ؛
متهاوناً جداً في تلاوة ساعات الفرض، شديد الفتور في إقامة الذبيحة، كثير اليبوسة في التناول ؛
سريع التشتت، نادراً ما تجمع حواسك وخواطرك بالتمام ؛
فوّار الغضب فجأة، تسوء الآخرين بكل سهولة ؛
ميالاً الى دينونة القريب، وعنيفاً في توبيخه ؛
بطراً في الرخاء، جزوعاً عند الشدة ؛
كثيراً ما تقصد المقاصد الصالحة، وقلما تسوقها الى الانجاز.

3- فإذا اعترفت بما فيك من هذه النقائص وغيرها، وبكيتها متوجعاً، وتأسفت على ضعفك، فاقصد القصد الثابت، بأن تواظب دوماً على إصلاح سيرتك، وتزداد تقدماً في الصلاح.
ثم قرّب ذاتك بملء الاستسلام وكمال الإرادة، محرقة دائمة، على مذبح قلبك، لإكرام اسمي، مفوضاً اليّ بإيمان جسدك ونفسك، فتستحق بذلك أن تدنو وتقرّب لله ذبيحة القداس، وتتناول سرّ جسدي تناولاً يأول الى خلاصك.

4- فإنه لا قربان أكرم، ولا كفارة أعظم، لمحو الخطايا، من أن يقرّب الإنسان نفسه لله، في القداس والتناول، قرباناً خالصاً كاملاً، مع قربان جسد المسيح.
فإن عمل الإنسان ما في وسعه، وتاب توبة حقيقية، فكل مرةٍ يقبل اليّ لأجل الغفران والنعمة، «فحيّ أنا – يقول الربّ – إن مرضاتي ليست بموت الخاطئ، بل أن يرجع فيحيا[326]»، «لأن خطاياه لن أذكرها من بعد[327]»، بل تمحى له كلها.

*** ***

الفصل الثامن
في تقدمة المسيح على الصليب وفي تسليم الذات

صوت الحبيب

1- كما انني قدمت نفسي طوعاً لله الآب من أجل خطاياك، ويداي مبسوطتان على الصليب، وجسمي عريان، حتى لم يبق فيّ شيءٌ إلا قدّمته ذبيحة استعطاف لله ،
كذلك أنت أيضاً، عليك أن تقرّب لي نفسك تطوعاً كل يومٍ في القداس الإلهي، قرباناً طاهراً مقدّساً بكل قواك وعواطفك، وبأعمق ما تستطيع من العبادة.
وهل أطلب منك شيئاً آخر، سوى أن تجتهد في تسليم ذاتك لي بجملتك ؟
فكل ما تعطينيه، غير نفسك، لا أعبأ به، لأني إياك أطلب، لا عطاياك.

2- كما أن جميع الأشياتء لا ترضيك، إن لم تحصل عليّ، كذلك لا شيء مما تعطينيه يستطيع أن يرضيني، إن لم تقرّب لي نفسك.
قرّب لي نفسك، واستسلم بكاملك من أجل الله، فيكون قربانك مقبولاً.
ها أنا ذا قد قرّبت ذاتي كلها للآب من أجلك، بل أعطيتك جسدي ودمي كله قوتاً لك، لأكون كلي لك، وتكون أنت لي على الدوام.
ولكن إن بقيت في نفسك، ولم تقرّب ذاتك لإرادتي طوعاً، فتقدمتك غير كاملة، ولن يكون بيننا اتحادٌ تام.
فإن شئت أن تنال الحرية والنعمة، فعليك، قبل جميع أعمالك، أن تقرّب نفسك طوعاً بين يدي الله.
وإن كان الذين يبلغون الى الاستنارة والحرية الداخلية، قليلين جداً، فما ذلك إلا لكونهم لا يعرفون أن ينكروا ذواتهم إنكاراً كاملاً.
حكمي ثابتٌ بأن «من لا يزهد في كل شيء، لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً».
فأنت، إذن، إن شئت أن تكون لي تلميذاً، فقرّب لي نفسك مع جميع عواطفك.

*** ***

الفصل التاسع
في انه من الواجب علينا أن نقرب لله ذواتنا وكل ما لنا وان نصلي لأجل جميع الناس

صوت التلميذ

1- رب، لك هو كل ما في السماء وعلى الأرض.
إن بغيتي هي أن أقرّب لك نفسي قرباناً طوعياً، وأبقى لك على الدوام.
ربّ، إني بسلامة قلبي، أقرب لك اليوم نفسي عبداً مدى الدهر، تقدمة خضوع وذبيحة حمدٍ أبدي.
فاقبلني مع هذا القربان الأقدس، قربان جسدك الكريم، الذي أقرّبه لك اليوم بحضرة الملائكة، القائمين هنا قياماً لا يرى، لكي يكون لخلاصي وخلاص جميع شعبك.

2- ربّ، إني أقرّب لك، على مذبحك الاستعطافي، جميع الخطايا والذنوب، التي اقترفتها قدّامك وقدّام ملائكتك القديسين، منذ يوم أصبحتُ قادراً على الخطيئة لأول مرة، حتى هذه الساعة ؛
لكي تحرقها جميعاً وتفنيها بنار محبتك، وتمحو جميع أدناس خطاياي، وتنقي ضميري من لك إثم، وتعيد إلي نعمتك التي خسرتها بالخطيئة، غافراً لي آثامي كلها مغفرة كاملة، وقابلاً إياي برحمتك لقبلة السلام.

3- ماذا يمكنني أن أصنع للتكفير عن خطاياي، سوى أن أعترف بها وأنوح عليها بتواضع، وألتمس عطفك بلا انقطاع ؟
إني أبتهل اليك، فاستجب لي بعطفك، لأني ماثلٌ أمامك يا إلهي.
إني متأسفٌ جداً على جميع خطاياي، ولا أريدُ أن أقترفها أبداً من بعد، بل أنا أبكيها، وسأبكيها ما حييت، وإني لمستعدٌ أن أتوب وأفي عنها قدر استطاعتي.
إغفر لي، يا رب، إغفر لي خطاياي من أجل اسمك القدوس، خلص نفسي التي فديتها بدمك الكريم.
ها أنا ذا أفوّض أمري الى رحمتك، وأستسلم بين يديك ؛
فعاملني بحسب صلاحك، لا بحسب شرّي وإثمي.

4- إني أقرّب لك أيضاً كل ما فيّ من خير – وإن قليلاً وناقصاً جداً – لتنقيه وتقدّسه، وتصيّره مقبولاً ومرضياً لديك، وتزيد في كماله على الدوام، وتقتادني الى نهايةٍ سعيدةٍ حميدة، أنا الكسول البطال، أحقر جميع البشر.

5- إني أقرّب لك أيضاً جميع ما يتمناه ذوو التقوى من الأماني الصالحة، مع احتياجات والديّ وأصدقائي، وإخوتي وأخواتي، وجميع أحبائي، والذين أحسنوا اليّ أو الى غيري حباً لك؛
والذين رغبوا اليّ أو طلبوا مني أن أصلي أو أقدس لأجلهم ولأجل جميع ذويهم، سواءٌ كانوا بعد أحياء في الجسد، أم غادروا هذا الدهر ؛
ليشعروا جميعاً في أنفسهم بمعونة نعمتك، ووفرة تعزيتك، وبحمايتك لهم من الأخطار، وانقاذك اياهم من الشدائد، حتى إذا نجيتهم من جميع الشرور، يؤدون لك بفرحٍ شكراً عظيماً.

6- إني أقرّب لك أيضاً – وبنوع خاص – هذه الصلوات والقرابين الاستعطافية، لأجل الذين ظلموني في شيء ما، أو أحزنوني أو ذمّوني، أو ألحقوا بي بعض الضرر أو الغمّ ؛
ثم لأجل جميع الذين قد أكون أحزنتهم أنا أو أزعجتهم أو غممتهم، أو سبّبت لهم عثاراً بالأقوال أو بالأفعال، عن معرفةٍ أو عن جهل، لكي تغفر لنا جميعاً خطايانا وإساءاتنا المتبادلة!
إنزع، يا ربّ، من قلوبنا، كل ريبةٍ وسخطٍ وغضبٍ وخصام، وكل ما يمكنه أن يثلم المحبة، أو ينقص المودّة الأخوية !
إرحم، يا رب، إرحم الذين يلتمسون رحمتك ! هب نعمتك للمحتاجين اليها، واجعلنا نعيش عيشةً تؤهلنا للتمتع بنعمتك، والبلوغ الى الحياة الأبدية، آمين.

*** ***

الفصل العاشر

في أنه لا ينبغي ترك التناول بسهولة

صوت الحبيب

1- عليك أن تلتجئ بتواترٍ الى ينبوع النعمة والرحمة الإلهية، الى ينبوع الصلاح وكل طهارة، لكي تستطيع الشفاء من أهوائك ونقائصك، وتستحق أن تتقوّى وتصبح أشدّ تيقظاً تجاه جميع تجارب إبليس وخدائعه.
فإن العدو – لعلمه بأن أعظم الثمار، بل الدواء الأنجع، إنما هو في التناول المقدّس – يحاول بكل وسيلةٍ وفي كل فرصة، وبقدر ما يستطيع، أن يعوق ويصدّ عنه المؤمنين العبّاد.

2- فإن من الناس من يشعرون بشر حملات الشيطان، ساعة يستعدّون للتناول المقدّس.
إن هذا الروح الشرير – كما هو مكتوبٌ عنه في سفر أيوب - «يدخل بين بني الله[328]»، فيقلقهم بمألوف خبثه، أو يصير بهم الى الخوف الشديد والحيرة، لينقّص محبتهم، أو ينزع إيمانهم بهجماته، عساهم أن يتركوا التناول بالكلية، أو يتقرّبوا اليه بفتور.
ولكن علينا أن لا نكترث لحيله وخيالاته، مهما كانت قبيحةً ومروّعة، بل أن نردّ على رأسه جميع خيالاته.
فإن هذا الشقيّ يستوجب الاحتقار والسخرية، فلا ينبغي ترك التناول المقدّس، لما يقوم به هو من هجماتٍ، أو يثير من اضطرابات.

3- وكثيراً ما يعوق الإنسان أيضاً عن التناول، فرط اهتمامه بالحصول على العبادة اللازمة، أو بعض القلق بشأن الاعتراف.
إصنع بحسب مشورة الحكماء، واطرح القلق والوسواس، لأنهما يحولان دون نعمة الله، ويهدمان عبادة الروح.
لا تهمل التناول المقدّس لأدنى اضطراب أو ثقل ضمير، بل أسرع الى الاعتراف، واغفر للآخرين جميع إساءاتهم بطيبة نفس.
وإن كنت أنت قد أسأت الى أحد، فالتمس الصفح بتواضع، فيغفر الله لك برضى.

4- أي نفعٍ في تأخير الاعتراف طويلاً، أو في تأجيل التناول المقدّس ؟
أسرعْ الى تنقية نفسك؛ عجّل في قذف السُّمّ، بادر الى تناول الدواء، تشعر بأنك أحسن حالاً مما لو تأخرت طويلاً.
إن أجلت اليوم التناول لهذا السبب، فقد يعرض لك غداً سببٌ أهم؛ وهكذا يمكن أن تعاق طويلاً عن التناول، فتضحي أقل استعداداً له.
فانفض عنك هذا التثاقل والجمود، بأسرع ما يمكن، إذ لا خير في طول القلق، والعيش في اضطراب مستمر، والامتناع عن الأسرار الإلهية، لعوائق تنشأ كل يوم ؛
بل على عكس ذلك، فإن تأجيل التناول طويلاً مضرٌّ جداً، إذ من شأنه، عادةً، أن يوّلد فتوراً عظيماً.
يا للأسف ! إن قوماً من الفاترين المتراخين، يرتاحون الى تلقي كل عذرٍ لتأخير الاعتراف؛ وهم إنما يبتغون تأجيل التناول المقدّس، لئلا يلزموا بتشديد المراقبة على أنفسهم.

5- أوه! ما أقل المحبة وما أضعف العبادة، في الذين يؤجلون التناول المقدّس بمثل تلك السهولة!
ما أسعد وما أخطى لدى الله، من عاش حافظاً ضميره في الطهارة، بحيث يكون مستعداً ومتشوقاً جداً للتناول، حتى كل يوم، لو جاز له ذلك، واستطاع إتمامه دون أن يلفت اليه الأنظار!
إن امتنع أحدٌ أحياناً عن التناول، لتواضعه أو لعائقٍ صوابيّ، فتهيّبه جديرٌ بالمديح ؛
ولكن، إن كان قد دبّ فيه الفتور، فعليه أن يستحثّ نفسه، ويعمل ما في وسعه؛ والربّ يعضد رغبته، نظراً الى إرادته الصالحة، التي إنما ينظر الله اليها على الخصوص.

6- فإن عاقه عائقٌ صوابيّ، فإنه يحافظ دوماً على حسن استعداده ونيّته التقيّة بأن يتناول، وهكذا لا يحرم ثمرة السرّ ؛
لأن كل إنسانٍ ورعٍ يستطيع، في كل يومٍ وفي كل ساعة، أن يدنو ويتناول المسيح تناولاً روحياً خلاصياً، من غير مانع البتة.
على أنه ملتزمٌ، في بعض الأيام، وفي الوقت المحدّد، أن يتناول جسد فاديه في سرّ القربان الأقدس، باحترام ومحبة، وأن يبتغي حمد الله وإكرامه، أكثر من تعزيته الذاتية.
فإنه كلما ذكر، بعبادة، سرّ تجسد المسيح وآلامه، واضطرم في محبته، يتناول تناولاً سريّاً، ويغتذي به على وجه منظور.

7- من لا يستعدّ للتناول إلا في حلول عيدٍ أو لدى اقتضاء العادة، فكثيراً ما يكون غير مستعدٍ له.
طوبى لمن يقرّب نفسه محرقة للرب، كلما قدّس أو تناول !
لا تكن، في إقامة القداس، بطيئاً بإفراط، ولا عجولاً بإفراط، بل راع العادة الحميدة، المألوفة عند من تعيش معهم.
ينبغي لك أن لا تعني وتسئم الآخرين، بل أن تسلك السبيل المألوف، الذي رسمه الأقدمون، وأن تفضّل منفعة الآخرين، على إرضاء عبادتك وميلك الخاص.

*** ***

الفصل الحادي عشر
في ان جسد المسيح والكتاب المقدس
هما ضروريان جداً للنفس المؤمنة

صوت التلميذ

1- أيها الرب يسوع، الجزيل العذوبة، ما أعذب ما تتذوّق النفسُ العابدة، المتنعّمة معك في وليمتك، حيث لا يقدّم لها طعام آخر تقتات به، سواك أنت حبيبها الوحيد، الذي تشتهيه فوق رغبات قلبها جميعاً !
ما أعذب ما يكون لديّ، لو أمكنني أن أذرّف في حضرتك دموع الحب العميق، فأبلّ، مع المجدلية الورعة، قدميك بعبراتي!
ولكن أين هي تلك العبادة ؟ أين السخاء في تذريف الدموع المقدسة ؟
أجل، لقد كان من الواجب أن يضطرم قلبي كله، ويبكي من الفرح في حضرتك وحضرة ملائكتك القديسين.
فإني أجدك حاضراً حقاً في سرّ القربان الأقدس، وإن محجوباً بشكلٍ غريب.

2- إن عينيّ لا تقويان على النظر اليك في ضياء جوهرك الإلهي، بل العالم كله لا يستطيع الثبات في مجد عظمتك السّنيّ.
فأنت إذن، مراعاةً لضعفي، تحجب نفسك في هذا السرّ.
إن من تسجد له الملائكة في السماء، أملكه أنا حقاً وأسجد له؛ لكنني لا أزال بعد أراه بالايمان فقط، أما هم فوجهاً لوجه ومن غير حجاب.
فعليّ أن أكتفي بنور الايمان الحقيقي، وأسلك فيه الى أن «ينسم نهار الضياء الأبديّ، وتنهزم ظلال الرموز[329]».
«فمتى جاء الكامل[330]»، بطل استعمال الأسرار، لأن الطوباويين في المجد السماويّ، لا حاجة بهم الى علاج الأسرار.
فهم يفرحون فرحاً لا نهاية له في حضرة الله، ويشاهدون مجده وجهاً الى وجه، وإذ يتحوّلون من مجدٍ الى مجدٍ في لجة اللاهوت، يتذوّقون كلمة الله الصّائر جسداً، كما كان منذ البدء، وكما سيبقى الى الأبد.

3- فعندما أتذكر هذه الغرائب، تنقلب لي جميع التعزيات – حتى الروحية منها – سأماً ثقيلاً، إذ ما دمت لا أرى ربي معتلناً في مجده، فكل ما أراه أو أسمعه في العالم، هو كلا شيء عندي.
أللهم، أنت لَ يشاهدُ أن ما من شيء يستطيع أن يعزيني، ولا خليقةٍ أن توليني الراحة، سواك أنت يا إلهي، الذي أتوقُ الى مشاهدته مدى الأبد.
ولكن ذلك غير مستطاع لي، ما دمت في هذا الجسد المائت؛ فما لي إذن سوى أن أوطن النفس على صبرٍ عظيم، وأن أخضع لك في كل رغبة.
فإن قديسيك، يا رب، الذين يتهللون الآن معك في ملكوت السماوات، قد ترّقبوا هم أيضاً، مدة حياتهم، بالإيمان والصبر الجميل، إقبال مجدك.
فما آمن به أولئك، فأنا أيضاً أؤمن به؛ وما ترجّاه أولئك، فأنا أيضاً أترجّاه؛ وما بلغ اليه أولئك، فأنا أيضاً أثق بالبلوغ اليه بواسطة نعمتك.
وبانتظار تلك الساعة، «سأسلك في الايمان[331]»، تقوّيني أمثلة القديسين.
«وسأتخذ الأسفار المقدّسة، تعزيةً لي[332]» ومرآة حياة؛ وفوق ذلك كله، سأتخذ جسدك الأقدس دواءً وملجأ فريدين.

4- فأنا أشعر بأني محتاجٌ جداً، في هذه الحياة، الى شيئين، بدونهما تصبح حياتي هذه الشقيّة حملاً لا يطاق.
ما دمت معتقلاً في سجن هذا الجسد، فأنا أقرُّ باحتياجي الى هذين الشيئين، أعني الغذاء والنور.
ولذلك قد أعطيتني، أنا الضعيف، جسدك الأقدس قوتاً للنفس والجسد، وجعلت «كلمتك مصباحاً لقدميّ[333]».
لا أستطيع أن أحيا حياةً صالحة بدون هذين الشيئين : لأن كلمة الله هي نورُ نفسي، وسرّك خبز الحياة.
ويمكن أيضاً تسميتهما مائدتين قد أقيمتا عن جانبي خزانة الكنيسة المقدّسة.
فالواحدةُ هي مائدة المذبح الأقدس، عليها الخبزُ المقدّس، أي جسدُ المسيح الكريم.
والأخرى، هي مائدةُ الشريعة الإلهية، تحوي التعليم المقدّس، وتعلم الايمان القويم، وتقود بأمانٍ الى داخل الحجاب، حيث قدس الأقداس.
فيا أيها الربُّ يسوع، يا ضياء النور الأزلي، شكراً لك على مائدة التعليم المقدّس، التي هيأتها لنا بواسطة عبيدك الأنبياء والرسل، وسواهم من المعلمين.

5- شكراً لك يا خالق البشر وفاديهم، يا من، لكي يعلن محبته للعالم كله، قد أعدّ عشاءً عظيماً، لم يقدّم فيه الحمل الرمزي مأكلاً، بل جسده ودمه الأقدسين، مفرّحاً، بهذه الوليمة المقدّسة، جميع المؤمنين، ومسكراً إياهم بكأس الخلاص، التي فيها جميع لذات الفردوس، وفيها يشاركنا الملائكة القديسون، ولكن بسعادةٍ وغبطةٍ أعظم.

6- يا ما أعظم وأشرف وظيفة الكهنة ! فقد وهب لهم أن يقدّسوا رب الجلال بالكلمات المقدّسة، وأن يباركون بشفاههم، ويمسكوه بأيديهم، ويتناولوه بأفواههم، ويوزعوه على الآخرين!
آه! كم يجب أن تكون نقيّة تلك الأيدي، وطاهراً ذلك الفم، ومقدّساً ذلك الجسد، ومنزّهاً عن كل وصمة، قلب الكاهن الذي ينزل به مراراً كثيرة مبدعُ الطهارة !
إن الكاهن الذي يتناول سرّ المسيح بهذا التواتر، يجب أن لا يخرج من فمه إلا ما كان مقدساً وصالحاً ونافعاً من الكلام.

7- ويجب أن تكون عيناه بسيطتين محتشمتين، فقد ألفتا النظر الى جسد المسيح؛ ويداه طاهرتين مرتفعتين نحو السماء، فقد ألفتا أن تلمسا خالق السماء والأرض.
فإنه للكهنة خصوصاً قد قيل في الناموس: «كونوا قدّيسين، لأني أنا الرب إلهكم قدُّوس[334]».

8- لتعضدنا نعمتك أيها الإله القدير، نحن الذين قبلوا رتبة الكهنوت، لكي نستطيع أن نخدمك بأهليةٍ وعبادة، بكل نقاوةٍ وضمير صالح.
وإن كنا لا نستطيع أن نسلك بنقاوةٍ السيرة الواجبة علينا، فهب لنا، على الأقل، أن نبكي بكاءً صادقاً على الشرور التي صنعناها، وأن نخدمك منذ الآن فصاعداً، بغيرةٍ أعظم، بروح التواضع وعزم الإرادة الصالحة.

*** ***

الفصل الثاني عشر
في أنه ينبغي لمن عزم على تناول المسيح ان يستعد لذلك باجتهاد عظيم

صوت الحبيب

1- أنا محبُّ الطهارة، ومانح كل قداسة.
أنا أطلب قلباً طاهراً، فهناك موضع راحتي.
«أعدد لي عليّة كبيرةً مفروشة، فأصنع عندك الفصح مع تلاميذي[335]».
إن شئت أن آتي اليك، وأمكث عندك، «فاطرح الخمير العتيق[336]»، ونقّ مخدع قلبك.
أقصِ عنه العالم بأسره، وكل اضطراب الرذائل؛ واجلس «كالعصفور المنفرد على السطح[337]»، متذكراً تعديّاتك بمرارة نفس.
فإن كل محبٍ إنما يعدّ لحبيبه العزيز، المكان الأفضل والأجمل، إذ بذلك تعرف المودة عند من يضيف حبيبه.

2- ولكن اعلم أنك باستحقاق أعمالك لا تستطيع أن تستعدّ الاستعداد الكافي، ولو خصصت له سنة كاملة، لا يشغل فيها فكرك شيءٌ آخر.
فإن أذن لك بالتقرّب من مائدتي، فما ذلك إلا بفضل حنوّي ونعمتي، كما لو دعيّ متسوّل الى وليمة غنيّ، وهو لا يملك ما يكافئُ به الإحسان، سوى التذلل والشكر.
إصنع ما في وسعك، واصنعه بنشاط، لا على سبيل العادة أو عن اضطرار، بل اقبل، بمخافةٍ واحترامٍ ومحبة، جسد الرب إلهك المحبوب، الذي يرتضي أن يأتي اليك.
أنا هو الذي دعاك، أنا أمرتُ بذلك، فأنا أكملُ ما ينقصك: فهلم تناولني.

3- إذا منحتك نعمة العبادة، فاشكر الله لا لأنك تستحقها، بل لأني رحمتك.
وإن لم تكن لك تلك النعمة، بل كنت بالحريّ تشعر باليبوسة، فالزم الصلاة، وتنهّد واقرع، ولا تكفّ حتى تؤهل لنيل فتيتةٍ أو قطرةٍ من هذه النعمة الخلاصية.
إنك أنت المحتاج اليّ، لا أنا المحتاج اليك.
لست أنت تأتي لتقدّسني، بل أنا آتي لأقدسك وأجعلك أفضل حالاً.
أنت تأتي لتتقدّس مني، وتتحد بي، وتنال نعمةً جديدة، تضرمك ثانية لإصلاح نفسك.

لا تهمل هذه النعمة، بل أعدد قلبك بكل نشاط، وأدخل اليك حبيبك.

4- بيد أنه من الواجب عليك، لا أن تستحث نفسك على العبادة قبل التناول فحسب، بل أن تحرص أيضاً على حفظها بعد قبولك هذا السرّ.
فإن المحافظة على العبادة بعد التناول، ليست بأقل لزوماً من حسن الاستعداد قبله.
لأن حسن المحافظة بعد التناول، هو أيضاً خيرُ استعدادٍ للحصول على نعمةٍ أعظم.
فمن انصب في الحال بإفراطٍ على التسليات الخارجية، عاد منها سيء الاستعداد جداً.
إجتنب كثرة الكلام، وامكث في الخلوة متنعماً بإلهك، فإنّ في حوزتك من لا يستطيع العالم كله أن ينزعه منك.
لي أنا يجب أن تسلم ذاتك كلها، بحيث لا تعود تعيش من بعد في ذاتك، بل فيّ أنا، خالياً من كل همّ.

*** ***

الفصل الثالث عشر
في أنه ينبغي للنفس العابدة أن تتوق بكل قلبها الى الاتحاد بالمسيح في سر القربان الأقدس

صوت التلميذ

1- رب، «من لي بك فأجدك[338]» وحدك، وأفتح لك قلبي كله، وأتنعم بك كما تشتهي نفسي، «فلا يذمني أحد»، ولا تزعجني أو تنظر اليّ خليقةُ البتة، بل أنت وحدك تخاطبني وأنا أخاطبك، كما هي عادة الحبيب في مخاطبة حبيبه، والصديق في مؤاكلة صديقه !
إن ما أطلبُ وما أشتهي، هو أن أتحد كلي بك، وأن أجرّد قلبي عن كل الخلائق، وأتعلم، بالتناول المقدّس والمواظبة على إقامة الذبيحة، أن أزداد تذوقاً للأمور السماوية والأبدية.
آه ! أيها الرب إلهي، متى أصير بجملتي متحداً بك، وغارقاً فيك، وناسياً ذاتي تمام النسيان ؟
هب لي أن تكون أنت فيّ وأنا فيك، وأن نبقى أبداً على هذه الوحدة.

2- «أنت حقاً حبيبي : من بين ألوفٍ اخترتك[339]»، ولقد سرّت نفسي بالسكنى فيك جميع أيام حياتها.
أنت حقاً مانح السلام لنفسي، إذ فيك السلام الأعظم والراحة الحقيقية، وليس خارجاً عنك إلا تعبٌ ووجعٌ وشقاءٌ لا حدّ له.
«أنت حقاً الإله المتحجب[340]»، ومشورتك ليست مع الكافرين، بل «الى المتواضعين والمستقيمين نجواك[341]».
آه! ما أعذب روحك يا ربّ! فإنك، لكي تعلن عذوبتك لبنيك، تتنازل وتقوتهم بخبزٍ لذيذٍ جداً، ينزل من السماء.
«حقاً إنه ما من أمةٍ أخرى – مهما عظمت – لها آلهتها قريبةً منها، مثلما أنت، يا إلهنا[342]»، حاضرٌ بين جميع مؤمنيك، تهب لهم ذاتك مأكلاً ونعيماً، لتعزيهم كل يوم، وترفع قلوبهم الى السماء.

3- أيُّ أمةٍ أخرى، لها من المجد مثل ما للشعب المسيحي ؟
أم أيُّ خليقةٍ تحت السماء، هي محبوبةٌ كالنفس العابدة، التي يأتي اليها الله ليشبعها بجسده المجيد ؟
يا لها نعمة تعجز البيان ! يا له من تنازلٍ عجيب! يا له حباً لا يقاس، قد خصّ به الإنسان دون سواه !
ولكنّ بماذا أكافئُ الرب عن هذه النعمة، وعن هذه المحبة السامية ؟
ليس لي تقدمةٌ أبذلها، وتكون أكثر مرضاةً لإلهي، من أن أسلم له قلبي تسليماً كاملاً، وأن أتحد به اتحاداً صميماً.
وعندما تتحد نفسي بالله اتحاداً كاملاً، فحينئذٍ تتهلل أحشائي جميعها.
حينئذٍ يقول لي : إن شئت أنت أن تكون معي، فأنا أريد أن أكون معك !
فأجيبه أنا : إرتضِ، يا ربّ، أن تقيم معي، فأنا أريدُ بكل سرورٍ أن أكون معك؛ ورغبتي كلها، إنما هي أن يكون قلبي متحداً بك.

*** ***

الفصل الرابع عشر
في اشتياق بعض العباد الشديد الى جسد المسيح

صوت التلميذ

1- «ما أعظم وفرة عذوبتك، يا ربّ، التي ادخرتها للمتقين لك![343]»
عندما أتذكر، يا ربّ، بعض العبّاد الذين يتقدمون الى سرّك بأكمل الورع والمحبة، أشعرُ غالباً في نفسي بالحزن والخجل، لأني أتقدّم بمثل هذا الفتور، بل بمثل هذه البرودة، الى هيكلك، وإلى مائدة التناول المقدّس ؛
ولأني أبقى يابس القلب، خالياً من الحب، غير مضطرم كلي أمامك يا إلهي، ولا مخطوفٍ اليك بمحبة شديدة، مثل كثير من العباد، الذين، لشدة اشتياقهم الى التناول، وشديد ما كانوا يحسون في قلوبهم من المحبة، لم يكونوا يتمالكون عن البكاء ؛
بل من صميم نفوسهم كانوا يشتاقون اليك، أيها الإله الينبوع الحيّ، فاتحين لك أفواه القلوب والأجساد، غير قادرين على تلطيف جوعهم أو إشباعه، إن لم يتناولوا جسدك بكل حبورٍ ونهمٍ روحي.

2- يا له إيماناً حقيقياً مضطرماً، يقيم البرهان القاطع على حقيقة حضورك المقدّس !
«فإن الذين يعرفون ربّهم حقاً عند كسر الخبز، إنما هم أولئك الذي تضطرم قلوبهم جداً في داخلهم، عندما يكون يسوع سائراً معهم[344]».
أما أنا فما أبعدني، في الغالب، عن مثل هذه العواطف والعبادة، وعن مثل هذا الحب الشديد المضطرم!
فيا يسوع الصالح، العذب والحليم، تعطف عليّ، وهب لي أنا عبدك الفقير البائس، أن أشعر – ولو حيناً بعد آخر – بقليلٍ من عواطف هذا الحب في قلبي، عند التناول المقدّس، ليتقوّى إيماني، وتنمو ثقتي بخيريّتك، حتى إذا اضطرمت في المحبة اضطراماً كاملاً، وتذوقت المن السماويّ، لا تخبو من بعد أبداً.

3- إنك قادرٌ برحمتك أن تهب لي هذه النعمة التي أبتغيها، وأن تتلطف وتفتقدني بروح الحرارة، في اليوم الذي ارتضيته لذلك.
فإني، وإن كنتُ غير مضطرم بمثل الشوق الذي يشعر به عبادك الأخصاء، فأنا، مع ذلك، أتوق بنعمتك الى هذا الشوق العظيم المستعر، راغباً ومتضرعاً اليك، أن تجعلني شريكاً لجميع أولئك الذين يحبونك بحرارة، وأن تحصيني في جماعتهم المقدّسة.

*** ***

الفصل الخامس عشر
في ان نعمة العبادة إنما تكتسب بالتواضع وإنكار الذات

صوت الحبيب

1- ينبغي لك أن تطلب نعمة العبادة بإلحاح، وتلتمسها برغبة، وتتوقعها بأناةٍ وثقة، وتقبلها بشكر، وتحفظها بتواضع، وتعمل معها بنشاط، وتفوّض الى الله زمن الافتقاد العلوي وكيفيته، الى أن يحين أوانه.
وعليك أن تتضع خصوصاً، حين لا تشعرُ في داخلك بالعبادة إلا قليلاً، أو لا تشعر بها البتة ؛ ولكن عليك أن لا تفشل كثيراً، ولا تكتئب بإفراط، فكثيراً ما يعطي الله، في لحظة قصيرة، ما قد رفضه مدة طويلة، ويهب احياناً، في آخر الصلاة، ما قد ماطل بعطائه في أولها.

2- لو كانت النعمة تمنح دائماً فوراً وبحسب المبتغى، لما تيسر للإنسان الضعيف احتمالها.
فعليك إذن أن تتوقع نعمة العبادة بثقة وطيدةٍ وصبرٍ وتواضع ؛ فإن لم تعطها، أو نزعت عنك سراً، فانسب ذلك لنفسك ولخطاياك.
إن ما يعوق النعمة ويحجبها، قد لا يكون في بعض الأحيان سوى أمرٍ يسير – هذا إن صحّ أن نسّمي يسيراً، وليس بالحريّ أمراً جسيماً، ما يحول دون خيرٍ عظيم كهذا.
ولكن سواءٌ كان يسيراً أو جسيماً، فإن أنت أقصيته عنك، أو انتصرت عليه انتصاراً كاملاً، فإنه يكون لك ما طلبت.

3- فإنك حالما تستسلم لله من كل قلبك، غير طالب هذا الأمر او ذاك، عن رغبةٍ أو إرادةٍ ذاتية، بل جاعلاً ذاتك كلها في الله، تجد في الحال نفسك قد اتحدت به، وحصلت على السلام؛ إذ ما من شيء يستطيع أن يلذ لك ويسرّك، مثل رضى المشيئة الإلهية.
فمن يرفع نيته الى العلاء، الى الله، بقلبٍ سليم، متجرداً عن كل حبٍ أو كرهٍ للخلائق غير مرّتب، فإنه يصبح جديراً جداً بنيل النعمة، وأهلاً لموهبة العبادة.
فالربُّ إنما يسكب بركته حيثما يجد الآنية فارغة.
بقدر ما يكتمل زهد الإنسان في الدنيويات، ويموت هو عن نفسه باحتقار نفسه، تزداد النعمة مبادرة اليه، ووفرة في الدخول الى قلبه، فتحرره وترفعه أكثر فأكثر.

4- حينئذٍ يرى ويستغني، ويدهش ويرحب فيه قلبه[345]»، لأن «يد الرب معه[346]»، وهو قد جعل نفسه في يد الرب الى الأبد.
«هكذا يبارك الإنسان الذي يلتمس الرب بكل قلبه[347]»، ولم ينل نفسه باطلاً.
فهذا الإنسان، بقبوله سر الإفخارستيا المقدّس، يستحق النعمة العظيمة، نعمة الاتحاد بالله، لأنه لا ينظر الى عبادته وتعزيته الخاصة، بل الى مجد الله وكرامته، فوق كل عبادة وتعزية.

*** ***

الفصل السادس عشر
في انه من الواجب علينا
أن نكشف للمسيح حاجاتنا ونطلب نعمته

صوت التلميذ

1- أيها الرب الجزيل العذوبة والودود جداً، المشتاق أنا الآن الى قبوله بعبادة، إنك تعرف ما أنا عليه من الضعف، وما أقاسي من الشدائد، وما أنا ملقى فيه من الشرور والرذائل، وكم أنا في الغالب مبعوظٌ، مجرّبٌ، قلقٌ، مدنس.
فأنا آتي اليك ملتمساً الدواء، وأبتهل اليك أن تعزيني وتفرّج عني.
إني أكلم العليم بكل شيء، من كل ما في داخلي جلي لديه، ومن هو وحده القادر أن يعزّيني وينصرني، تمام التعزية والنصرة.
أنت تعلم الخيرات التي أحتاج اليها بالأكثر، وكم انا فقيرٌ بالفضائل.

2- ها أنا ذا واقفٌ أمامك بائساً عرياناً، أطلب النعمة وألتمس الرحمة.
فأشبع بائسك الجائع؛ أدفئي بنار حبك أنا المقرور، وأنر عماي بضياء حضورك.
حول لي جميع الأرضيات الى مرارة، وجميع المشقات والمعاكسات الى ترويضٍ في الصبر، وجميع الدنيويات والمخلوقات، الى موضوع احتقارٍ ونسيان.
إرفع اليك قلبي نحو السماء، ولا تدعني أهيم عى الأرض.
كن أنت وحدك عذباً لي من الآن الى الأبد، لأنك انت وحدك طعامي وشرابي، وحبي وفرحي، وعذوبتي وكل خيري.

3- ليتك تضرمني وتحرقني بحضورك، وتحوّلني كلي الى ذاتك، فأصبح وإياك روحاً واحداً، بنعمة الاتحاد الداخلي، وذوبان الحب المضطرم !
لا تدعني أنصرف عنك جائعاً ظمئاً، بل عاملني بالرحمة، كما عاملت قديسيك مراراً كثيرة، على نحوٍ عجيب.
وهل من عجب إذا اتقدت كلي بك، ففنيت في نفسي، وأنت النار المضطرمة على الدوام، التي لا تخبو أبداً، والحب الذي يطهّر القلوب وينير العقل ؟

*** ***

الفصل السابع عشر
في الحب المتقد والشوق الشديد الى تناول المسيح

صوت التلميذ

1- إني، بمزيد التقوى والحب المضطرم، وبكل عواطف قلبي وحرارته، أشتاق لأن أتناولك يا ربّ، كما اشتاق اليك، في التناول، كثيرٌ من القديسين وأهل التقوى، الذي أرضوك جداً بقداسة سيرتهم، عائشين في اضطرام العبادة.
إلهي، أيها الحب الأزلي، يا كل خيري، وسعادتي التي لا تنتهي، إني أشتهي أن أقبلك بأشد شوق وأليق احترام، حصل عليه أو استطاع أن يشعر به أحدّ من القديسين.

2- ومع كوني لا أستحق الحصول على تلك العواطف التقوية، فأنا، مع ذلك، أقربُ لك أشواق قلبي جميعها كما لو كنت أنا وحدي حاصلاً على جميع تلك الرغبات المضطرمة، المرضية لديك جداً.
بل كل ما تستطيع نفسٌ تقية أنِ تتصوّر أو تشتهي، فأنا أهبه وأقرّ به لك باحترام عظيم وحرارةٍ داخلية.

لا أريد أن أستبقي لنفسي شيئاً، بل أن أقرّب لك، بطيبة نفس كاملة، ذاتي وكل ما لي، ذبيحة طوعية.
أيها الرب إلهي، خالقي وفاديّ، إني أتوق أن أقبلك اليوم، بمثل الشوق والاحترام، والحمد والإكرام، بمثل الشكر والتهيب والحب، بمثل الإيمان والرجاء والطهارة، التي بها تاقت اليك وقبلتك أمك الجزيلة القداسة، مريم العذراء المجيدة، عندما بشرها الملاك بسر التجسّد، فأجابته بتواضعٍ وتقوى :«ها أنا أمة الرب، فليكن لي بحسب قولك[348]».

3- وكما ان سابقك المغبوط، أرفع القديسين، يوحنا المعمدان، قد ارتكض في حضرتك، متهللاً بفرح الروح القدس، وهو بعد محتجبٌ في أحشاء أمه ،
وكما أنه، في ما بعد، إذ رأى يسوع سائراً بين الناس، كان يقول في كثيرٍ من التواضع والحب والورع: «أما صديق العروس، الواقف يسمعه، فإنه يفرح فرحاً لصوت العروس[349]».
كذلك أنا أيضاً أتمنى أن أضطرم بالرغائب العظيمة المقدّسة، فأقرّب لك ذاتي من كل قلبي.
ومن ثم فإني أقدّم واقرّب لك أيضاً تهاليل جميع القلوب الورعة، مع أشواقها المضطرمة، واختطافاتها العقلية، واستناراتها الفائقة الطبيعة، ورؤاها السماوية، مع كل فضيلة وتسبيح، تشيد وستشيد به خليقة في السماء وعلى الأرض ؛
أقرب لك ذلك من أجلي ومن أجل جميع من طلب إليّ أن أصلي لأجلهم، لكي يسّبحك الجميع ويمجدوك الى الأبد كما يليق.

4- فاقبل أمانيّ أيها الرب إلهي، ورغبتي في أن أسّبحك تسبيحاً لا ينتهي، وأباركك بركة لا حدّ لها، فإن التسبيح والبركة يحقان لك على حسب العظمة التي لجلالك المعجز البيان.

ذاك هو ما أقرّبه، وأريد أن أقرّبه لك كل يومٍ وفي كل لحظة من الزمن؛ وإني لأدعو الأرواح السماوية بأسرها، وجميع مؤمنيك، وأناشدهم متضرعاً من صميم القلب، أن يسدوا لك معيً الشكر والتسبيح.

5- لتسّبحك جميع الشعوب والقبائل والألسنة، وليعظموا بتهليلٍ عظيم، وعبادةٍ مضطرمة، إسمك القدّوس القاطر عذوبة.
وليؤهل جميع الذين يقدّسون باحترامٍ وتقوى سرّك الجزيل السمو، ويقبلونه بإيمان كامل، أن يجدوا لديك نعمة ورحمة، وليبتهلوا متضرّعين من أجلي أنا الخاطئ.

ومتى حصلوا على نعمة الورع التي يبتغونها، ونالوا نعيم الاتحاد بك، ثم انصرفوا عن مائدتك المقدّسة السماوية، ممتلئين تعزية، ومغتذين بنوعٍ عجيب، فليتفضلوا ويذكروني أنا المسكين.

*** ***

الفصل الثامن عشر
في انه لا يليق بالإنسان أن يكون فضولياً في استقصاء هذا السر
بل ان يقتدي بالمسيح بتواضع مخضعاً حكمه للايمان المقدس

صوت الحبيب

1- إن كنت لا تريد الغرق في لجة الرّيب، فتحاش أن تسبر، ببحثٍ فضولي باطل، أعماق هذا السر البعيد الغور.
«فإن من يسبر جلال الله، يعييه مجده[350]»، لأن الله قادرٌ أن يصنع، فوق ما يستطيع الإنسان أن يدرك.
إن البحث عن الحقيقة بتواضعٍ وتقوى مسموحٌ به، ما دام المرء مستعداً لقبول التعليم، مجتهداً في السير حسب آراء الآباء الصحيحة.

2- طوبى للسذاجة، التي تترك مسالك الأبحاث الوعرة، وتسلك في سبل وصايا الله، المعبّدة الأمينة !
كثيرون قد فقدوا التقوى، حين أرادوا استقصاء الأمور السامية.
إنما يطلب منك الإيمان ونقاوة السيرة، لا سموُّ الفهم والتعمق في أسرار الله.
إن كنت لا تفهم ولا تدرك ما هو دونك، فكيف تستوعب ما هو فوقك ؟
إخضع لله وطاطئ حكمك للإيمان، فتعطى نور العلم بحسب منفعتك وحاجتك.

3- من الناس من يجرّبون بشدةٍ في ما يخص الايمان بهذا السر؛ ولكن لا ينبغي أن ينسب ذلك اليهم، بل بالحري الى العدو.
فلا تكترث، ولا تجادل افكارك، ولا تجب على ما يلقي الشيطان في قلبك من الشكوك؛ بل آمن بكلام الله، آمن بقديسيه وأنبيائه، فيهرب

عنك العدو الشرير.
كثيراً ما يعود بفائدةٍ عظمى على خادم الله، أن يعاني مثل هذه التجارب.
فإن الشيطان لا يجرب الكفّار والخطأة – فهم ملكه دون منازع – لكنه إنما بجرّب المؤمنين الأتقياء، ويعذبهم على وجوه مختلفة.

4- فتقدّم إذن بإيمان سليم لا يشوبه ارتياب، وادن من هذا السرّ بهيبةٍ وتخشع، وفوّض باطمئنان، الى الله القدير، كل ما يفوتك إدراكه.
فالله لا يخدعك، وإنما ينخدع من يفرط في الوثوق بنفسه.
إن الله يماشي البسطاء، ويتجلى للمتواضعين، «يعطي الفهم للصغراء[351]»، ويفتح أذهان النفوس الطاهرة، ويحجب نعمته عن الفضوليين والمتكبّرين.
العقل البشري ضعيفٌ قابلٌ الضلال؛ أما الايمان الحقيقي، فلا يمكن أن يضلّ.

5- إن كل قياس عقلي وبحثٍ طبيعي، إنما يجب أن يتبعا الإيمان لا أن يسبقاه أو يخالفاه ؛
لأن الايمان والحب يقدّمان هنا على كل شيء، ويعملان، بطرق خفية، في هذا السرّ الأقدس السامي الجلال.
فإن الله سرمديٌّ، غير محدود، وغير متناهٍ في القدرة «يصنع، في السماء وعلى الأرض، عظائم لا تفحص[352]»، وعجائبه ليس لها استقصاء.
فلو كانت أعمال الله سهلة الإدراك على العقلِ البشريّ، لما حقّ أن تدعى عجيبة ومعجزة البيان.

المجـــــد
للـــه

فهرس هجائي للمواد

تنبيه :
1- يقوم الخط (-) مقام الكلمة المكتوبة بحرف غليظ.
2- قد أثبتنا، في حقل خاص بالفقرات، مراجع المواضيع التي تمر عرضاً أوعلى سبيل التخصيص في بعض فقرات من الفصل دون سواها.

	السفر	الفصل	الفقرة
أ			
الأبدية: سعادة النهار -	3	48	
الآخرون: احتمال نقائصهم	1	16	
	2	3	2
الصمت عن شؤونهم	3	45	5
افخارستيا: (انظر **القربان الأقدس**)			
الألفة المفرطة : اخطار-	1	8	
آلام المسيح: التشبه بها	2	1	5
الاستراحة فيها	2	1	4
تذكرها في سر القربان	4	2	6
آلامنا: (انظر **احتمال**)			
الآمال الباطلة: الهرب من -	1	7	
الايمان: ضرورة – وفوائده	4	18	
ب			

البخل: - يعوق عن السلام	1	6	1
البساطة: (انظر **سلامة النية)**			
التبصر: - في الأعمال	1	4	
البطلان: - في جميع الأرضيات	1	1	5-3
	2	1	5 ،4
ث			
الثبات: - حتى في الفشل	3	57	
الثقة: وضع – في الله	2	1	3
	3	30	
	3	47	
	3	59	
لا سيما حين الشدة	3	46	
لا في البشر	1	7	
	3	45	
ج			
التجربة: احتمال – لأجل الله	3	35	
الاستغاثة بالله حين -	3	29	
	3	30	1
فوائد -	1	13	2
	3	35	2
كيفية السلوك حين -	3	35	
الجسد: ضروريات – (انظر **ضروريات)**			
إماتة -: (انظر **إماتة)**			
الجهاد: ضرورة – وفوائده	3	19	4
جهنم (الجحيم): عذاب -	1	24	7 ،5 -3
ح			
الحب: - الالهي: مفاعيله	3	5	
- الذاتي: مضارّه	3	27	
حب يسوع فوق كل شيء	2	7	
المحب الحقيقي: امتحان -	3	6	
المحبة: وجوب – نحو الجميع	1	8	2
الاعمال الصادرة عن -	1	15	2 ،1
حرارة العبادة: - تخفف كل شيء	1	25	11
حرية: أبناء الله	1	38	
	3	49	3
- الروح	3	26	
- القلب	3	37	
إحسانات الله: تذكر -	3	22	
الحق (الحقيقة): ابتغاء- في الله وحده	1	3	2 ،1
اعتبار الانسان نفسه بموجب -	3	50	8 ،7
أحكام: - الناس: لا ينبغي أن تخشى	3	36	
- الله: بعيدة الغور	3	14	3
يجب أن ترهب	3	4	5
	3	58	1

الحكمة: - السامية: قوامها	1	2	
- السماوية و- البشرية	3	32	3، 4
صلاة لاستمداد -	3	27	5
الاحتمال: (انظر **الصبر)**			
الحياة الأبدية: احتمال كل شيء لأجل -	3	47	2
الشوق الى -	3	48	2، 3
نعيم -	3	49	6
خ			
خدمة الله: عذوبتها	3	10	
الخضوع: (انظر **الطاعة)**			
الخطأة: عقوبات -	1	24	3، 4
الخلوص: أهمية -	2	4	
الخلائق: احتقار – لوجود الخالق	3	31	
	3	42	
لا سعادة في -	3	16	
التوكل على – باطل	1	7	1، 2
د			
الداخلي: الانسان - : ميزاته	2	5	2
وفرة سلامه	2	1	1، 6، 7
الدينونة: - الأخيرة	1	24	
- الباطلة	1	14	
ر			
الرئاسة: الآمن في -	1	20	2
مرضاة الله: تتميم -	3	15	
الرغائب: وجوب فحص -	3	11	
تقديم – الله	3	15	
الراهب: رياضات - الصالح	1	19	
- الصالح و – المتراخي	1	25	
الرهبانية: السيرة -	1	17	
راحة النفس: قوام -	2	1	
الروحي (الروحاني): الانسان -			
(راجع الداخلي)			
الروحيات: تقديم – على غيرها	3	44	
ز			
الزمان: قيمة -	1	23	1-6
	1	25	11
س			
انسحاق القلب: تحصيل -	1	20	5
فوائد -	1	21	
سذاجة: (انظر **سلامة)**			
السلام: تحصيل -	1	6	2
	1	11	

	3	23	
قوام -	3	25	
لمن -	1	6	1
مناط -	3	42	
السلامة: - في النية	2	4	
- في السلوك أمام الله	3	4	
الاستسلام: كمال -	3	37	
المسالم: الإنسان -	2	3	
السيرة: الرهبانية (راجع **الرهبانية**)			
صلاح – وإصلاحها (انظر هاتين الكلمتين)			
ش			
الشدة: فائدة -	1	12	
الشقاء البشري: اعتبار	1	22	
	3	20	
الشكر: - على احسانات الله	3	10	2
	3	22	
- على النعمة	2	10	
الشهوة: كبح -	3	12	
ص			
الصبر: ضرورة	3	12	3-1
المسيح مثال -	3	18	2
- على الاهانات	3	19	3
في الزلات	3	57	2 ،1
الصدق: (راجع **الحق**)			
تصديق: - الناس: بطلانه	3	45	
صداقة: - يسوع	2	8	
- البشر	3	42	
الصليب: ثمار -	2	12	8
قلة محبي -	2	11	4 ،1
لا مناص من -	2	12	6 ،4 ،3
هو الطريق الملكية	2	12	
حمله اقتداء بيسوع	3	56	
صلاح: - السيرة: قيمته	1	3	4
إصلاح: - السيرة: عدم تأجيله	1	22	5
النشاط فيه	1	25	
الصلاة: ممارسة – في الداخل	3	38	2
وجوب – لأجل الجميع	4	9	6 ،5
الصمت: فوائد -	1	20	
- عن شؤون الآخرين	3	45	5
ض			
ضروريات: - الجسد	1	22	
الضعف: - البشري	1	22	6
	3	20	
الضمير: فحص – قبل التناول	4	7	

فحص – كل يوم	1	19	4
نقاوة -	2	6	
المضايق: كثرة -	3	48	
ط			
الطبيعة: حركات – والنعمة	3	54	
- الفاسدة	3	55	
الطمأنينة: (راجع **السلام)**			
طهارة: - القلب	3	27	4
المطهر: احتمال – على الأرض	1	24	2
الطاعة: ضرورة – وفوائدها	1	9	
- على مثال يسوع	3	13	
ع			
العبادة: نعمة-: وجوب اخفائها	3	7	
صلاة لطلبها	3	3	6، 7
التماسها بتواضع	4	15	
العجب الباطل: الهرب من -	1	7	2، 3
	3	7	2
معرفة: - الذات: ماهيتها	1	2	4
العزلة: فوائد -	1	20	
التعزية: عدم استحقاقنا -	3	52	
عدم التماس – في الخلائق	1	25	
فقدان -	2	9	
التماس – في الله	3	16	
عقوبات: - الخطأة	1	24	3، 4
العقل: استنارة -	3	23	8-10
العلم: احتقار – الدنيوي	3	43	
التواضع في -	1	2	1، 2
الأعمال: تفويض – الى الله	3	39	
- الوضيعة: وجوب ممارستها	3	51	
غ			
الغاية: - القصوى	3	9	
الاغتياب: عدم الخوف من -	3	28	
الغير: (راجع **الاخرون)**			
ف			
الافتخار: عدم – في شيء	3	40	4
الفرح: - الحقيقي	3	16	
	2	6	1
الفضول: - في البحث عن سيرة الغير	3	24	
- في مطالعة الكتب المقدسة	1	5	2
- في تقصي الأسرار	4	18	
الفضائل: تحصيل -	1	3	4، 5
الأفكار: - الشريرة	3	6	5، 6
	3	23	5-7

ق			
القديسون: حالهم في السماء	3	85	
أمثلتهم	1	18	
تقدمة: - جميع الأشياء	4	7	4
	4	9	
- الذات على مثال المسيح	3	13	
التقدم: الغير على -	1	11	
قوام -	3	25	
قياس -	1	19	2
القربان الأقدس: محبة الله في -	4	2	
البركات التي في -	4	4	
تصديق الله في -	4	5	2
	4	18	
عظمة -	4	5	
نعمة -	4	1	
ك			
الكتب: - البسيطة التقوية	1	5	1
- المقدسة: ضرورتها	4	11	4
طريقة قراءتها	1	5	
كرامة: (انظر **مجد**)			
كلام: - الله: كيفية استماعه	3	2	
	3	3	1
- البشر: النافل منه	1	10	
عدم الاكتراث له	3	46	
الكمال: بلوغ -	1	11	
نصائح تقود الى	1	25	11
- الرهباني	3	32	2 ،1
	3	39	4
الكاهن: سمو وظيفة -	4	5	3 ،1
الصفات المطلوبة في -	4	11	7 ،6
ل			
الله: أحكام – الغامضة	3	14	
احسانات- : تذكرها	3	22	
ارجاع كل شيء الى -	3	9	
	3	33	
السلوك أمام -	3	5	
استماع كلام -	3	3	
التعبد لله	3	10	
عذوبة – للمحب	3	34	
على – يجب القاء كل هم	3	17	
في – يجب التماس الراحة	3	21	
في – يجب التماس التعزية	3	16	
اللجوء الى – في الشدائد	3	29	
	3	38	
تمجيد – في كل شيء	3	40	

التوكل على -	2	1	3
	3	46	
	3	59	
م			
مجد: - السماء: ابتغاؤه	3	48	
- العالم: احتقاره	3	41	
- القديسين: بهاؤه	3	47	3
امتحان: - الراهب	1	17	
- الصديق	1	13	5
	3	59	2
المسيح: التأمل في حياة -	1	1	1
حياة – هي طريقنا	3	18	3
- هو الطريق والحق والحياة	3	56	1
تعليم -	1	1	2
	3	43	1
- قدوتنا في الألم	3	18	1
ملكوت: - الله	2	1	
الموت: التأمل في -	1	23	
الإماتة: فوائد -	1	11	3
أميال: (انظر **أهواء**)			
ن			
مناجاة: - يسوع	3	1-4	
النصيحة: قبول -	1	9	3
النعمة: حركات الطبيعة و -	3	54	
ضرورة - ومفاعيلها	3	55	
عدم ائتلاف – مع تذوق الأرضيات	3	53	1، 2
التواضع لحفظ -	3	7	
نقائص: - الاخرين	1	16	
	2	3	2
انكار الذات: - مجلبة العبادة	4	15	
- موجز الكمال	3	37	
	3	39	
التشبه بالمسيح في -	3	56	
قلة وجود -	2	11	
التناول: التأهب له: ابتهال لأجل ذلك	4	6	
الاستسلام الكامل	4	8	1
الشوق المضطرم	4	14	
فحص الضمير	4	7	
التهيب	4	12	
التواضع	4	16	
ترك – بسهولة: لا يجوز	4	10	
ثمار -	4	4	
تحريض على -	4	توطئة	
الشكر بعد-: السهر الواجب	4	12	
تقديم الذات لله	4	9	
مناجاة النفس للمسيح	4	11	

الاتحاد بالمسيح	4	13	
الاقبال بتواتر على -	4	3	
كسب الفضائل بواسطة -	4	15	
النية: (راجع **خلوص، سلامة)**			
ه			
الأهواء: - تفسد الحكم السديد	2	3	1
في مقاومة – تحصيل السلام	1	6	6
إماتة -	1	11	
الاهانات: احتمال -	3	19	3
و			
الاتحاد: - بالمسيح	3	21	7-3
	4	13	
الوحشة: الاستسلام لله عند -	3	50	
التواضع: سبب- : ضعفنا	1	22	6
فوائد -: هو مجلبة لسلام وافر	2	6	1
هو مجلبة لنعمة العبادة	4	15	
هو لحرز النعمة	3	7	1
هو شرط محبة الله لنا	2	2	2
هو امتحان الفضيلة الحقة	3	7	5
ممارسة- : في حب العلم	1	2	2 ،1
في استماع كلام الله	3	3	
	3	4	
في الاعمال	3	51	
في تقدير الذات	1	2	4 ،3
	3	8	
التوكل على الله: (راجع الثقة)			
الوهن: (راجع الضعف)			
ي			
يسوع: محبة – فوق كل شيء	2	7	
محبة – من أجل ذاته	2	8	4
	2	11	2
صداقة – ومؤالفته	2	8	

فهرس الكتاب

تصدير:	**لسيادة المطران بطرس كامل مدور**	**1**
مقدمة :	**للأستاذ بولس سلامه**	**ج**
	السفر الأول	
	نصائح مفيدة للحياة الروحية	
1	في الاقتداء بالمسيح واحتقار أباطيل العالم كلها	

2	في استحقار الانسان نفسه	
3	في تعليم الحق	
4	في التبصر في الأعمال	
5	في مطالعة الكتب المقدسة	
6	في الأميال المنحرفة	
7	في الهرب من الامال الباطلة ومن التشامخ	
8	في الحذر من الألفة المفرطة	
9	في الطاعة والخضوع	
10	في تجنب الكلام النافل	
11	في تحصيل السلام وفي الغيرة على التقدم	
12	في منفعة الشدة	
13	في مقاومة التجارب	
14	في اجتناب الدينونة الباطلة	
15	في الأعمال الصادرة عن المحبة	
16	في احتمال نقائص الآخرين	
17	في السيرة الرهبانية	
18	في قدوة الآباء القديسين	
19	في رياضات الراهب الصالح	
20	في حب العزلة والصمت	
21	في انسحاق القلب	
22	في اعتبار الشقاء البشري	
23	في التأمل في الموت	
24	في الدينونة وعقوبات الخطأة	
25	في النشاط لاصلاح سيرتنا كلها	
	السفر الثاني	
	نصائح تقود الى الحياة الداخلية	
1	في الحياة الداخلية	
2	في الخضوع بتواضع	
3	في الإنسان الصالح المسالم	
4	في طهارة النفس وخلوص النية	
5	في تبصر الإنسان نفسه	
6	في فرح الضمير الصالح	
7	في محبة يسوع فوق كل شيء	
8	في صداقة يسوع ومؤالفته	
9	في حرمان كل تعزية	
10	في الشكر على نعمة الله	
11	في قلة المحبين لصليب يسوع	
12	في طريق الصليب المقدس الملكية	
	السفر الثالث	
	في التعزية الداخلية	
1	في مناجاة المسيح للنفس المؤمنة	
2	في ان الحق يتكلم في داخلنا بدون دوي كلام	
3	في انه من الواجب استماع كلام الله بتواضع، وفي ان كثيرين لا يقدرونه	
4	في انهه يجب السلوك أمام الله بالحق والتواضع	
5	في مفاعيل الحب الالهي العجيبة	

6	في امتحان المحب الحقيقي	
7	في اخفاء النعمة تحت حرز التواضع	
8	في احتقار الانسان نفسه في عيني الله	
9	في انه يجب توجيه كل شيء الى الله توجيهه الى الغاية القصوى	
10	في ان خدمة الله عذبة بعد ازدراء الدنيا	
11	في انه يجب فحص رغائب القلب وضبطها	
12	في التدرب على الصبر وفي مصارعة الشهوات	
13	في طاعة المرؤوس المتواضع على مثال يسوع المسيح	
14	في وجوب التأمل في أحكام الله الغامضة لئلا نستكبر في الصلاح	
15	كيف يجب ان نسلك ونتكلم في كل أمر مشتهى	
16	في ان التعزية الحقيقية إنما يجب التماسها في الله وحده	
17	في وجوب القاء همنا كله على الله	
18	في احتمال المشقات الزمنية بأناة على مثال المسيح	
19	في احتمال الاهانات وفي من هو الصبور حقا	
20	في اعتراف الانسان بوهنه الذاتي وفي شقاء هذه الحياة	
21	في وجوب الاستراحة في الله فوق جميع الخيرات والمواهب	
22	في تذكر احسانات الله الكثيرة	
23	في أربعة أمور تولي سلاماً عظيماً	
24	في اجتناب البحث الفضولي عن سيرة الآخرين	
25	في ما يقوم به سلام القلب الثابت والتقدم الحقيقي	
26	في سمو حرية الروح التي تستحق بالصلاة والابتهال أكثر مما بالدرس	
27	في ان حب الذات هو أعظم ما يعوقنا عن الخير الأعظم	
28	ضد السنة المغتابين	
29	كيف يجب أن نستغيث بالله ونباركه عند حلول الشدة	
30	في طلب العون الالهي، وفي الثقة باسترجاع النعمة	
31	في انتباذ كل خليقة قصد وجود الخالق	
32	في إنكار الذات والزهد في كل شهوة	
33	في عدم ثبات القلب، وفي انه من الواجب علينا ان نوجه غايتنا الأخيرة الى الله	
34	في ان المحب لله يتذوقه فوق كل شيء وفي كل شيء	
35	في انه لا أمان من التجربة في هذه الحياة	
36	ضد أحكام الناس الباطلة	
37	في تسليم الذات تسليماً خالصاً كاملاً للحصول على حرية القلب	
38	في حسن التصرف في الأمور الخارجية وفي الالتجاء الى الله عند الأخطار	
39	في أنه ينبغي للانسان أن يكون لجوجاً في الأمور	
40	في ان الانسان لا يملك من ذاته شيئاً من الصلاح ولا يستطيع أن يفتخر بشيء	
41	في احتقار كل كرامة زمنية	
42	في انه لا ينبغي للانسان أن يجعل سلامه في الناس	
43	ضد العلم الدنيوي الباطل	
44	في عدم الارتباك بالأمور الخارجية	
45	في أنه لا ينبغي أن نصدق جميع الناس، وفي سهولة الزلل في الكلام	
46	في وجوب التوكل على الله عندما نرشق بسهام الكلام	
47	في انه هيجب على الانسان أن يحتمل جميع المشقات لأجل الحياة الأبدية	
48	في نهار الأبدية، وفي مضايق هذه الحياة	
49	في الشوق الى الحياة الأبدية، وفي كثرة الخيرات الموعود بها المجاهدون	

50	كيف يجب على الانسان الذي في وحشة أن يقرب نفسه في يدي الله	
51	في العكوف على الأعمال الوضيعة عند التقصير عن الأعمال السامية	
52	في انه لا يسوغ للانسان أن يحسب نفسه مستحقاً التعزية بل بالحري مستوجباً الضربات	
53	في ان نعمة الله لا تأتلف مع تذوق الأرضيات	
54	في اختلاف الحركات بين الطبيعة والنعمة	
55	في فساد الطبيعة وفاعلية نعمة الله	
56	في انه يجب علينا أن ننكر ذواتنا ونقتدي بالمسيح في حمل الصليب	
57	في انه يجب على الإنسان أن لا يكون كثير الفشل إذا سقط في بعض الزلات	
58	في أنه لا ينبغي لنا أن نفحص عن الأسرار السامية، ولا عن احكام الله الغامضة	
59	في ان كل أمل وثقة انما يجب أن يوطدا في الله وحده	
	السفر الرابع	
	في سر القربان الأقدس	
	تحريض تقوي على التناول المقدس	
1	بأي احترام يجب أن نتناول المسيح	
2	في ان الله يظهر، في سر القربان الأقدس، عظيم جودته ومحبته للبشر	
3	في فائدة الاكثار من التناول	
4	في ان المتناولين بعبادة يمنحون خيرات كثيرة	
5	في سمو هذا السر، وفي درجة الكهنوت	
6	ابتهال لمعرفة ما يجب فعله قبل التناول	
7	في فحص الضمير، وفي العزم على اصلاح السيرة	
8	في تقدمة المسيح على الصليب وفي تسليم الذات	
9	في انه من الواجب علينا أن نقرّب لله ذواتنا وكل مالنا، وان نصلي لأجل جميع الناس	
10	في أنه لا ينبغي ترك التناول بسهولة	
11	في ان جسد المسيح والكتاب المقدس هما ضروريان جداً للنفس المؤمنة	
12	في انه ينبغي لمن عزم على تناول المسيح أن يستعد لذلك باجتهاد عظيم	
13	في انه ينبغي للنفس العابدة أن تتوق بكل قلبها الى الاتحاد بالمسيح في سر القربان الأقدس	
14	في اشتياق بعض العباد الشديد الى جسد المسيح	
15	في ان نعمة العبادة انما تكتسب بالتواضع وانكار الذات	
16	في انه من الواجب علينا أن نكشف للمسيح حاجاتنا ونطلب نعمته	
17	في الحب المتقد والشوق الشديد الى تناول المسيح	
18	في أنه لا يليق بالانسان أن يكون فضولياً في استقصاء هذا السر، بل أن يقتدي بالمسيح بتواضع مخضعاً حكمه للايمان المقدس	
	فهرس هجائي للمواد	
	فهرس الكتاب	

[1]) يوحنا 8: 12

[2]) الجامعة 1: 2

[3]) الجامعة 1: 8

[4]) رومانيين 11: 20
[5]) ارميا 5: 21
6) يوحنا 8: 25
[7]) فيليبيين 3: 8
[8]) مزمور 116: 2
[9]) يوحنا 2: 25
[10]) ابن سيراخ 8: 22
[11]) 2 كورنثيين 1: 8
[12]) فيليبيين 1: 23
[13]) أيوب 7: 1
[14]) 1 بطرس 5: 8
[15]) ابن سيراخ 31: 31
[16]) أوفيديوس : دواء الحب 91
[17]) 1 كورنثيين 10: 13
[18]) 1 بطرس 5: 6
[19]) مزمور 33: 19
[20]) غلاطيين 6: 2
[21]) يوحنا 12: 25
[22]) امثال 16: 9
[23]) ارميا 10: 23
[24]) أيوب 38: 3
[25]) رومانيين 8: 18
[26]) لوقا 12: 37، 44
[27]) سنيكا : الرسائل 7
[28]) يوحنا 5: 13
[29]) مزمور 4: 5
[30]) 1 يوحنا 2: 17
[31]) مزمور 79: 6
[32]) مزمور 24: 17
[33]) مزمور 65: 12
[34]) مزمور 56: 2
[35]) 2 كورنثيين 5: 4
[36]) لوقا 12: 40
[37]) 2 كورنثيين 6: 2
[38]) مزمور 143: 4
[39]) لوقا 16: 9
[40]) عبرانيين 13: 14
[41]) حكمة 5: 1
[42]) مزمور 106: 42
[43]) رومانيين 12: 2
[44]) مزمور 36: 3
[45]) ابن سيراخ 19: 1
[46]) لوقا 17: 21
[47]) يوئيل 2: 12
[48]) رومانيين 14: 17
[49]) مزمور 44: 14
[50]) يوحنا 14: 23

[51]) يوحنا 12: 34
[52]) عبرانيين 13: 14
[53]) 2 كورنثيين 1: 12
[54]) اشعيا 48: 22
[55]) ميخا 3: 11
[56]) مزمور 145: 4
[57]) غلاطيين 6: 14
[58]) ملوك 16: 7
[59]) 2 كورنثيين 10: 18
[60]) اشعيا 40: 6 ؛ 1 بطرس 1: 24
[61]) يوحنا 11: 28
[62]) مزمور 29: 7
[63]) مزمور 29: 8
[64]) مزمور 29: 9
[65]) مزمور 29: 11
[66]) مزمور 29: 12
[67]) أيوب 7: 18
[68]) رؤيا 2: 7
[69]) أمثال 31: 10
[70]) نشيد الأناشيد 8: 7
[71]) لوقا 17: 10
[72]) مزمور 24: 16
[73]) لوقا 9: 23
[74]) متى 25: 41
[75]) متى 24: 30
[76]) يوحنا 19: 17
[77]) رومانيين 6: 8
[78]) لوقا 24: 26، 46
[79]) رومانيين 8: 18
[80]) كورنيين 12: 2
[81]) أعمال 9: 16
[82]) متى 16: 24
[83]) أعمال 14: 21
[84]) مزمور 84: 9
[85]) مزمور 34: 3
[86]) 1 ملوك 3: 9
[87]) مزمور 118: 125
[88]) مزمور 118: 36؛ تثنية 32: 2
[89]) خروج 20: 19
[90]) 1 ملوك 3: 9
[91]) 1 ملوك 3: 9
[92]) يوحنا 6: 69
[93]) يوحنا 6: 64
[94]) مزمور 93: 12، 13
[95]) أشعيا 23: 4
[96]) يوحنا 12: 48
[97]) مزمور 24: 6

[98]) مزمور 26: 9
[99]) مزمور 142: 6
[100]) مزمور 142: 10
[101]) كورنثيين 1: 3
[102]) مزمور 3: 4
[103]) مزمور 118: 111
[104]) مزمور 58: 17
[105]) مرقس 4: 39
[106]) مزمور 26: 1
[107]) مزمور 26: 3
[108]) مزمور 18: 15
[109]) ارميا 10: 23
[110]) مزمور 90: 4
[111]) تكوين 18: 27.
[112]) لوقا 18: 19
[113]) مزمور 30: 20
[114]) مزمور 36: 20
[115]) ابن سيراخ 18: 30
[116]) مزمور 36: 4
[117]) أيوب 15: 15
[118]) رؤيا 6: 13
[119]) أشعيا 29: 16
[120]) مزمور 116: 2
[121]) حكمة 9: 10
[122]) مزمور 4: 9
[123]) فيليبين 3: 20
[124]) مزمور 102: 9
[125]) عبرانيين 12: 4
[126]) مزمور 31: 5
[127]) مزمور 68: 15
[128]) 1 يوحنا 2: 16
[129]) أيوب 30: 7
[130]) مزمور 54: 7
[131]) مزمور 33: 9
[132]) عبرانيين 1: 3
[133]) 1 ملوك 3: 9
[134]) مزمور 118: 65؛ 50: 3
[135]) ابن سيراخ 39: 21
[136]) مزمور 18: 10
[137]) حكمة 14: 13
[138]) 2 مكابيين 1: 4
[139]) مزمور 44: 17
[140]) أعمال 5: 41
[141]) مزمور 70: 12
[142]) اشعيا 45: 2
[143]) مرقس 4: 39
[144]) مزمور 42: 3

[145]) يوحنا 21: 22
[146]) 1 بطرس 4: 7
[147]) يوحنا 14: 27
[148]) أيوب 33: 26
[149]) جامعة 2: 11
[150]) طوبيا 3: 23
[151]) يوحنا 12: 27
[152]) مزمور 39: 14
[153]) متى 26: 42
[154]) مزمور 76: 11
[155]) نحوم 1: 7
[156]) مزمور 16: 7
[157]) ارميا 32: 27
[158]) متى 8: 7
[159]) متى 6: 34
[160]) يوحنا 14: 27
[161]) يوحنا 14: 1
[162]) يعقوب 1: 17
[163]) يوحنا 15: 9
[164]) يوحنا 15: 16
[165]) مزمور 54: 7
[166]) تكوين 6: 12
[167]) عزرا 10: 13
[168]) رؤيا 3: 18
[169]) متى 13: 46
[170]) يوحنا 12: 9
[171]) غلاطيين 5: 17
[172]) مزمور 88: 10؛ 43: 26
[173]) مزمور 67: 31
[174]) يهوديت 9: 11
[175]) ابن سيراخ 17: 7
[176]) ابن سيراخ 36: 7
[177]) رومانيين 8: 18
[178]) مزمور 26: 14
[179]) مزمور 90: 15
[180]) 1 كورنثيين 9: 22
[181]) 1 كورنيين 4: 3
[182]) اشعيا 51: 12
[183]) 2 تيموثاوس 2: 14
[184]) متى 16: 27؛ رومانيين 2: 6
[185]) رومانيين 8: 21
[186]) يشوع 9: 14
[187]) متى 26: 41
[188]) مزمور 8: 5
[189]) مزمور 101: 28، 13
[190]) دانيال 4: 13
[191]) 1 ملوك 1: 8

[192]) مزمور 38: 6
[193]) مزمور 3: 4؛ 118: 111
[194]) مزمور 88: 17
[195]) 2 كورنثيين 12: 5
[196]) يوحنا 5: 44
[197]) 1 كورنيين 4: 20
[198]) مزمور 93: 10
[199]) مزمور 118: 99، 130
[200]) صفنيا 1: 12
[201]) 1 كورنثيين 4: 5
[202]) 1 أخبار 28: 9
[203]) كولسيين 3: 3؛ غلاطيين 6: 14
[204]) مزمور 59: 13
[205]) مزمور 36: 39
[206]) يهوديت 13: 17
[207]) القديسة أغاثي.
[208]) مزمور 115: 2
[209]) متى 10: 36
[210]) متى 24: 23
[211]) غلاطيين 6: 14
[212]) لوقا 2: 35
[213]) مزمور 7: 10
[214]) مزمور 7: 12
[215]) 1 كورنثيين 4: 4
[216]) مزمور 142: 2
[217]) تكوين 15: 1
[218]) زكريا 14: 7
[219]) رومانيين 7: 24
[220]) مزمور 119: 5
[221]) اشعيا 25: 8
[222]) عبرانيين 11: 13؛ 1 كورنثيين 13: 12
[223]) تكوين 47: 9
[224]) 1 كورنثيين 15: 28
[225]) متى 25: 34
[226]) أيوب 7: 20
[227]) مزمور 70: 12
[228]) مزمور 26: 9
[229]) مزمور 143: 6
[230]) متى 6: 12
[231]) مزمور 37: 10
[232]) رومانيين 8: 21
[233]) لوقا 22: 18
[234]) يشوع 1: 6
[235]) افسيين 4: 24
[236]) 1 ملوك 10: 6
[237]) تكوين 15: 1
[238]) أشعيا 61: 3

[239]) فيليبين 1: 20
[240]) 1 كورنثين 4: 7
[241]) مزمور 87: 16
[242]) مزمور 118: 32
[243]) تكوين 31: 5
[244]) أيوب 29: 3
[245]) مزمور 16: 8
[246]) مزمور 118: 71
[247]) مزمور 68: 8
[248]) طوبيا 13: 2
[249]) اشعيا 11: 3
[250]) مزمور 118: 32
[251]) رومانيين 8: 18
[252]) أيوب 10: 21
[253]) مزمور 50: 19
[254]) 1 بطرس 2: 11
[255]) سالونيكيين 5: 22
[256]) 1 بطرس 2: 13
[257]) أعمال 5: 41
[258]) أعمال 20: 35
[259]) 1 كورنثين 12: 31
[260]) رومانيين 7: 23
[261]) تكوين 8: 21
[262]) رومانيين 7: 22
[263]) رومانيين 7: 12
[264]) رومانيين 7: 25
[265]) رومانيين 7: 18
[266]) يوحنا 15: 5
[267]) فيليبين 4: 13
[268]) 2 كورنثيين 12: 9
[269]) متى 9: 9
[270]) يوحنا 14: 6
[271]) يوحنا 8: 32؛ 1 تيموثاوس 6: 12
[272]) متى 19: 17
[273]) متى 19: 21
[274]) متى 16: 24
[275]) يوحنا 13: 16؛ متى 10: 24
[276]) يوحنا 13: 17
[277]) يوحنا 14: 21
[278]) رؤيا 3: 21
[279]) 1 ملوك 8: 20؛ نحميا 4: 20
[280]) 1 مكابيين 9: 10
[281]) اشعيا 49: 18
[282]) أيوب 5: 11
[283]) مزمور 18: 11
[284]) مزمور 118: 137
[285]) مزمور 18: 10

[286]) 1 كورنثيين 14: 33
[287]) حكمة 6: 8
[288]) رؤيا 4: 10
[289]) متى 18: 1
[290]) متى 5: 9
[291]) اشعيا 60 : 22؛ 65: 20
[292]) متى 18: 1
[293]) متى 18: 3، 4
[294]) لوقا 6: 24
[295]) لوقا 6: 20
[296]) مزمور 141: 6
[297]) فيليبين 2: 21
[298]) مزمور 140: 8؛ 24: 2
[299]) 2 كورثيين 1: 3
[300]) متى 11: 28
[301]) يوحنا 6: 51
[302]) متى 26: 26؛ 1 كورنثيين 11: 24
[303]) يوحنا 6: 57
[304]) يوحنا 6: 64
[305]) يوحنا 13: 8
[306]) متى 11: 28
[307]) 3 ملوك 8: 27
[308]) متى 11: 28
[309]) 1 تيموثاوس 2: 5
[310]) 1 كورنثيين 1: 3
[311]) متى 11: 28
[312]) لوقا 1: 43
[313]) يوحنا 6: 51
[314]) 2 مكابيين 14: 35
[315]) مزمور 67: 11
[316]) مزمور 85: 4
[317]) متى 15: 32
[318]) تكوين 8: 21
[319]) 2 كورنيين 5: 6
[320]) مزمور 146: 5
[321]) مزمور 20: 4
[322]) مزمور 105: 4
[323]) مزمور 53: 6
[324]) متى 11: 28
[325]) 1 تيموثاوس 4: 16
[326]) حزقيال 33: 11
[327]) عبرانيين 10: 17
[328]) أيوب 1: 6
[329]) نشيد الأناشيد 2: 17
[330]) 1 كورنثيين 13: 10
[331]) 2 كورنثيين 5: 7
[332]) 1 مكابيين 12: 9

[333]) مزمور 118: 105
[334]) احبار 19: 2
[335]) لوقا 22: 11، 12
[336]) 1 كورنثيين 5: 7
[337]) مزمور 101: 8
[338]) نشيد الأناشيد 8: 1
[339]) نشيد الأناشيد 5: 10
[340]) اشعيا 45: 15
[341]) امثال 3: 32
[342]) تثنية الاشتراع 4: 7
[343]) مزمور 30: 20
[344]) لوقا 24: 32
[345]) اشعيا 60: 5
[346]) لوقا 1: 66
[347]) مزمور 127: 4؛ 118: 2
[348]) لوقا 1: 38
[349]) يوحنا 3: 29
[350]) أمثال 25: 27
[351]) مزمور 118: 130
[352]) أيوب 5: 9